دراسة ونقد

في

مسائل بلاغية هامّة

تأليف

دكتر محمّد فاضلي

مؤسسه مطالعات و تحقيقات فرهنگی

بسم الله الرحمن الرحیم

دراسة ونقد

في

مسائل بلاغية هامة

تأليف:

محمد فاضلي

مؤسسه مطالعات وتحقيقات فرهنگی

تهران ۱۳۶۵

مؤسسهٔ مطالعات وتحقیقات فرهنگی
وابسته به
وزارت فرهنگ و آموزش عالی

دراسة ونقد فی مسائل بلاغیة هامة
شماره: ۵۵۳
تیراژ: ۲۰۰۰ نسخه
نوبت چاپ: چاپ اول
تاریخ انتشار: ۱۳۶۵
چاپ وصحافی: چاپخانهٔ دانشگاه فردوسی مشهد

المحتويات

موضوع	صفحة
التشبيه ظاهرة عامة	١٨٠–١٨٢
اهميّة التشبيه وبلاغته	١٨٢–١٨٩
اركان التشبيه	١٨٩–١٩١
أدوات التشبيه	١٩١–١٩٤
أقسام التشبيه	١٩٤–١٩٥
١– التشبيه البليغ	١٩٥–١٩٨
٢– التشبيه التمثيلى	١٩٨–٢٠٣
صور وقوع التشبيه التمثيلى	٢٠٣–٢٠٦
بلاغة التمثيل	٢٠٦–٢٠٧
منزلة التشبيه التمثيلى	٢٠٨
٣– التشبيه الضمنى	٢٠٨–٢١٠
بلاغة التشبيه الضمنى	٢١٠
٤– تشبيه المركب بالمركب	٢١٠–٢١٣
الفرق بين التشبيه المركب والمقيد والمتعدد	٢١٣–٢١٧
٥– التشبيه المقلوب	٢١٧–٢١٩
التشبيه المقلوب من الناحية النفسية	٢١٩–٢٢١
جمال التشبيه المقلوب وبلاغته	٢٢١–٢٢٢
٦– التشبيه المجمل والمفصل	٢٢٢–٢٢٣
اغراض التشبيه	٢٢٣–٢٣٢
التشبيه فى ميزان النقد	٢٣٢–٢٤١

الفصل الثانى – المجاز

٢٤٢–٢٧٥.

معنى الحقيقة والمجاز

الحقيقة لغة	٢٤٢–٢٤٣

الاغلاط المطبعية

يرجى من القرّآء الكرام ان يصلحوا الاغلاط المطبعية التاليه قبل قراءتها

الصفحه	السطر	الخطا	الصواب
٩	٢٠	ابن اثير	ابن الاثير
١١	٢٣	عشيت	غشيت
١٣	٢٢	قَصرْ	قَصْرَ
١٦	٧	ابن نصر	ابو نصر
١٦	٨	فأيّاكم	فايّاكم
١٨	٣	كيد	كبد
١٩	١٦	تحلص	تخلص
٢٤	١٠	كفى	كفى
٢٦	٩	نذرت ما	نذرت لك ما
٢٦	٢٢	الذاريات، ٥٧	ق، ٣٧
٢٧	٢٤	الجِدّ	الجِدّ
٢٩	٢٤	٣٣	٥٣
٣٦	٣	والعبد	والبعد
٣٩	٢	نابغه	النابغة
٥٠	٩	وكأنا	كأنا
٦٠	١٥	مضرّيه	مَضَريّه
٦٥	٣	والخيال	الخيال
٧٥	٢٢	مريم، ١٩	مريم، ٤٦
٧٨	١٧	أناكا	أتاكا
٨٥	٢١	التخضيض	التحضيض
٩٧	١٤	بالتفضيل	بالتفصيل
٩٩	١٨	مُجزية	مجزية
١٠٤	٣	منينِ	منينَ
١١٣	١٩	البقره، ٣١٤	البقره، ٢١٤
١١٣	٢٤	الانبياء، ٢٦	الانبياء، ٣٦
١١٦	١٢	هذ	هذا
١١٦	١٦	ربّكم	ربّكم
١١٦	٢١	هود، ٨٢	هود، ٧٢
١١٦	٢٣	المؤمن، ٤٠	بنى اسرائيل، ٤٠
١٢١	٢٠	بنى اسرائيل، ٥٠	الطور، ١٦

الصفحه	السطر	الخطا	الصواب
١٢٦	١٩	آل‌عمران، ١٨٨	البقره، ١٨٨
١٢٦	٢٢	البقره، ٢٦٨	آل‌عمران، ٨
١٣٠	١٢	وإنّى	إنّى
١٣١	٢٣	يجبىء	يجيىء
١٣١	٢٤	اول السطر	※
١٣٢	١٧	الاّ تكون	الا ان تكون
١٣٣	٤	والاختصاص	وبين الاختصاص
١٣٤	١٧	يوسف، ٤	يوسف، ١٠٠
١٣٨	٤	ولو انّ لنا	فلو انّ لنا
١٤٥	٦	عازتٍ	عازبٍ
١٦٣	٢٣	المائده، ١٣	المائده، ١١٧
١٦٤	١٨	هود، ٢٩	الشعراء، ١١٥، ١١٤
١٦٤	٢٣	ندير	نذير
١٩٠	١٢	الا كان	الأركان
٢١٠	١٢	بلاة	بلاغة
٢١١	٥	لم تُغْنِ	لم تَغْنَ
٢١٩	١١	لايقلب	لاينقلب
٢٣٦	٦	الفراريح	الفراريج
٢٥٨	١٣	ولاتَلِدوا	ولايَلِدوا
٢٥٨	١٨	ـ٥	ـ٦
٢٥٩	٤	ـ٦	ـ٧
٢٥٩	٧	وامّال	وامّا
٢٥٩	٢٢	الزمر، ١٩	الزمر، ٩
٢٦٣	١٣	لايؤمنون	لايؤ منون بالاخرة
٢٦٤	١٩	البقره، ٦	البقره، ١٦
٢٦٥	٤	يوم	يوماً
٢٧٢	١٦	المسكسو	المكسوّ
٢٧٦	٣	كقول	كقوله
٣١٩	٢١	مريم، ١٠٠	الكهف، ١٠٠
٣١٩	٢٤	المؤمن، ٣٦٠	المؤمن، ٣٦
٣٢٧	٢١	البقره، ١٧٨	البقره، ١٨٧
٣٢٨	٢٢	المائده،، ٤١	المائده، ٣٢
٣٢٩	٢٤	ق، ٣	ق، ٣٠
٣٣٠	٢	ائتيا طائعين	ائتيا طوعاً اوكرهاً قالتا اتينا طائعين
٣٣٠	١٨	السجده، ١١	فصلت، ١١
٣٣٤	١٠	الحمودة	المحمودة
٣٣٥	٢	المحرّدة	المجرّدة
٣٤٠	١٠	نعجه	نعجة
٣٤٧	٢	لـ س	لبس
٣٥٧	١٧	به	بـ
٣٦٣	٥	ليحبطن	ليَحْبَطَنّ
٣٦٥	١٤	احدثتَ	ما احدثتَ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان إتصالى بعلم البلاغة ومباحثه يرجع الى عهد الصغر حينما كنت تلميذاً اقرأ على والدى رسالة موجزة فى البيان .

فهذا الإتصال وإن لم يلبث طويلاً ولكن ترك فىّ اثراً عميقاً لما أحسست فى نفسى ميلاً و رغبة إلى مسائل هذا العلم، لعل هذه الرغبة انبعثت من الأسباب التالية :

الف ـ كان هذا الإتصال فترة جديدة فى دراستى لمسائل الصرف والنحو، فأخذتنى من التقليب والتنقيب فى الألفاظ .

ب ـ كانت مسائل هذه الرسالة تفوح برائحة الالتفات الى المعنى بين أساليب البيان، والاعتماد على الذوق والطبع كقسم من الحجة والبرهان، فكان البيان عندها آفاقاً وسيعة يحلق فيها الخيال على جَناح من الشعور والإحساس . فوجدت الكلمات امامها تنبض بحيوية وقوة، وتطور وجدّة لاتحدها القواميس ولاتضيق على الأديب مهما بلغ مراده .

فلم تكن الكلمات عندها ميتة كخرزات سبحة تتلاعب بها ايدى الصرفيين اوالنحويين، وتدفنها القواميس فى صدورها، وتضع عليها حجر الجمود والتقليد .

ج ـ كانت الرسالة مع صغر حجمها جامعة لمسائل كثيرة بعبارات واضحة واسلوب سهل، وخالية من اختلاف الأقوال وتضارب الآراء التى

تجعل الدارس لا يهتدى إلى الطريق الصواب إلا بصعوبة .

فلما انتهيت من قراءة هذه الرسالة و رجعت مرة أخرى إلى مسائل الألفاظ، إنقطع ذلك الإتصال بينى وبين مباحث علم البلاغة ولكن لم يفارقنى أثره، فبقى فى قرارة نفسى كجمرة تلمع وتشتعل كلما اقتربت من أجواء هذه المباحث وآفاقها .

لقد قيّض الله لى بعد سنوات سفراً مباركاً نزلت فيه على استاذ جليل، فلما رأيته كالخليل، لازمته لزوم الظل للظليل، واقمت عنده حوالى سبع سنوات فاستفدت منه فى هذه المدة فوائد كثيرة .

منها انه اضافنى على مائدة «التلخيص» وشرحه المعروف «بالمطول» فرأيت فيها ماتشتهى الأنفُس وتَلَــَذُّ الأعْيُن، واستيقظت منى الميول والرغبات المكبوتة، فعكفت عليها عكوف النَهِم الشَرِه، وتذكرت قوله تعالى : «كُلوا من طَيِّباتِ ما رَزَقناكُم»[1].

فما تركتها إلا أن ذقت جميع ما عليها، اوشممت رائحته او لمسته وقلبته ظهراً على بطن .

وفى ذلك الوقت نفسه شعرت باننى احب بعض ما على المائدة أكثر من بعض، وكذلك أحب أن يوضع بعضه بجانب بعضه الآخر فى الترتيب والتنظيم . فتمنيت لو اتاح الله لى فرصة ان اجمع مسائل فى علم البلاغة كما احبها، وادرسها على ضوء من التحقيق، وأضيف إليها أيضاً ما استفدت من ذلك الأستاذ الشفيق، وهو الذى اذكره اليوم بالفضل وغدا بالعز .

إن هذه الفرصة لم تقدر لى فيما مضى ولست آسفاً عليه واعتقد ان الخير فيما وقع، ذلك لأننى قرأت فى هذه المدة كتباً كثيرة فى مسائل البلاغة والنقد من المتقدمين والمتأخرين، على رأسها «أسرار البلاغة» و

١ـ البقرة، ٥٧ .

«دلائل الإعجاز» للشيخ الامام عبدالقاهر الجرجانى. فهذه الكتب ساعدتنى كثيراً فى تنقيح وتهذيب ما اردت جمعه ونظمه، وزوّدتنى بما لم اعرفه من قبل .

فيسّرنى أن تلك الفرصة تتيسر لى الآن وأتناول ذلك العمل اليوم، لأنى اسلك الطريق بزاد اكثر، وادرس الموضوع بمعرفة اوفر، فلعل عملى اليوم الى الصواب أقرب، ومن الآخطاء والسقطات أبعد .

فلا أدعى هنا أننى جئت بما لم يسبق إليه أحد و أتيت بما هو برىء من العثرات والزلات، لأن الكمال ليس إلا لله وحده . ولكن اقول قد بذلت فى هذا الطريق جهد نفسى وبحثت عن المسائل بكل إخلاص، فلا أكتب للهتاف ولا أعمل للرئاء .

فليستحى من ادعى الكمال فى علم قال الإمام عبدالقاهر فى حقه :

«واعلم أنك لاترى فى الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بديئاً واخيراً على ماجرى عليه فى علم الفصاحة والبيان .

أمّا البدىء فهو أنك لاترى نوعاً من انواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر فى علم الفصاحة بالضد من هذا فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أو كلّه رمزا و وحياً وكناية و تعريضاً، وإيماء إلى الغرض من وجه لايفطن له الا من غلغل الفكر وادق النظر . . .

وأما الأخير فهو إنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلوم ان يحفظوا كلاماً للأوليين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم من غير ان يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم ــ إن يسألوا عنه ــ بيان له وتفسير، الإ علم الفصاحة . فإنك ترى طبقات من

الناس يتداولون فيما بينهم الفاظاً للقدماء، وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، اويستطيعوا ـ إن يُسْئلو عنها ـ أن يذكروا لها تفسيراً يصح»[٢].

فادعاءالكمال فى هذا المجال يعد نوعاً من الإغترار او جهلاً بحقيقةالأمر، فلايدعيه إلا الجهلة والغفل الذين يظنون إنهم يحسنون كل شيء صنعا . نسألالله ان يعصمنا من اقتفائهم واحتذائهم .

وها انا أقدم ما تيسرلى تحت عنوان «دراسة ونقد فى مسائل بلاغية هامة» فى مقدمة وثلثة أبواب . ومنالله التّوفيق وعليهالتكلان .

محمد فاضلى

٢ــ دلائل الاعجاز ٣٤٩ــ٣٥٠ .

مقدمة فى الفصاحة والبلاغة

حينما نقرأ نصاً أدبياً أونسمع كلاماً يوحى بتجربة ويصل إلى قرارة أنفسنا ونتأثر به ونتعجب منه، نحكم له بوضوح البيان، وقوة التركيب و سلامة الاسلوب، وملائمته مع الواقع والنفس .

وكذا إذا عبّرنا عن فضل قائل على آخر او كلام على غيره نقول: ان الفاظه متمكنة ومقبولة والفاظ الآخر قلقة نابية ومستكرهة، وان هذا الكلام واضح الدلالة ومصيب الاشارة، حسن الترتيب والنظام، وانه لايشوبه شيء من اللفظ العامى والساقط السّوقى والغريب الوحشى، وانه قد وقع فى موقعه، بخلاف الكلام الآخر .

فهذه الاحكام والتعبيرات ترجع فى الحقيقة الى ما يراد من كلمتى الفصاحة والبلاغة . قال الشيخ : «البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة ما يعبر به من فضل قائل على آخر او كلام على غيره»[1].

وايضا ان الفصاحة والبلاغة هما منشأ غاية علم البلاغة اعنى معرفة اعجاز القرآن، وانهما كانتا النواة الاولى للتنبه الى مسائل البلاغة والنقد فى الأدب العربى .

فعلى هذا يجدر بالباحث عن المسائل البلاغية معرفتهما ومايراد بهما.

١ــ دلائل الاعجاز ٣٥ .

الفصاحة لغة :

الفصاحة في اللغة الوضوح والبيان والظهور . جاء في لسان العرب : الفصاحة البيان . . . تقول : رجل فصيح وكلام فصيح، اى بليغ . ولسان فصيح، اى طَلْق . . .

ويوم مُفْصِح : لاغيم فيه ولاقُرّ .

وفصح اللبن، إذا أخذت عنه الرغْوة . وأفصحت الشاة والناقة : خلص لبنها . وافصح الصبح : بدا ضوءه واستبان . وكل ما وضح فقد أفصح، وكل واضح مفصح .

وافصح لك فلان : بيّن ولم يجمجم[٢] .

وجاء في القرآن الكريم على لسان موسى : «واخى هارون هوأفصح منى»[٣]، أى أبين ولسانه أطْلقُ، لأن موسى يقول : «ويضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى، فأرسل إلى هارون»[٤] . فهذا القول دليل على ان المراد بالفصاحة البيان وطلاقة اللسان .

وقال النبى(ص): «أنا أفصحُ العرب بَيْدَ أنى من قريش» أى أبينهم.

«ولفظة الفصاحة في القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف لاتخرج عن معناها اللغوى وهو الظهور والبيان»[٥] .

الفصاحة اصطلاحاً :

فقد يماً جرت كلمة الفصاحة على لسان أهل هذا الفن وتداولوها بينهم ، لكن الكلمة لم تقف عند حد واحد، ولم يكن المراد بها سواء

٢ـ لسان العرب، مادة فصح .

٣ـ القصص، ٣٤ .

٤ـ الشعراء ١٣ .

٥ـ مصطلحات بلاغية، ١٠-١١ .

لديهم . فنرى أن دائرة ما يُعنى بها رحبت عند بعض وضاقت عند الآخرين، وتجاذبها اللفظ والمعنى على حسب اختلاف نظريتهم .

فهذا الجاحظ تناول الكلمة و دارت في كلامه، فهو وان لم يذكر لها تعريفا خاصا لكن يستنبط من كلامه انه يعني بها ما يعتبر فيه اعطاء الحروف حقها من الفصاحة، وترك لغات النازلة على العرب، واستعمال الألفاظ في موضعها وفيما هو لائق بها .

ألا ترى ان الله لا يذكر الجوع إلا في موضع الفقر المذل والعجز الظاهر . وكذلك لا يذكر المطر إلا في موضع الانتقام، والعامة واكثر الخاصة لا يعرفون هذه الدقايق لأنهم يتركون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، ولا يفصلون بين ذكر المطر و ذكر الغيث .

ويعتبر فيه ايضا أن لا تكون الألفاظ متنافرة فتوجب صعوبة التلفظ، كقول الشاعر :

و قبرُ حرْبٍ بمكانٍ قَفْرٍ   و ليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

ولا تكون الكلمة اقل اللغتين استعمالا واضعفهما، ولا يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً كما لا يكون غريباً وحشياً[٦].

ولكن خير كلمة يشير إليها في هذا المقام هي تتبع مجارى كلام العرب الفصحاء[٧]، فهذا القول جامع لكل ما اراده فيما سبق .

والمتأمل في كلامه يرى ان الفصاحة تمتزج بالبلاغة عنده اوترادفها. فيقول : وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه و دوّناه ـ : «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ،

٦ـ ينظر البيان والتبيين ١/١٥، ١٨، ٢٠، ٦٥، ١٤٤ .

٧ـ المصدر نفسه ١/١٦٢ .

فلايكون لفظه إلى سمعك اسبق من معناه إلى قلبك»[٨].

وقال ايضا : «اما انا فلم أرَ قطّ امثل طريقة فى البلاغة من الكتاب، فانهم قد التمسوا فى الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولاساقطاً سوقياً»[٩].

وقال ايضا فى تفسير قول العتابى فى معنى البلاغة «وانما عنى العتابى افهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء»[١٠].

وإذا تركنا الجاحظ نرى أن صاحب الصناعتين يسلك طريقين :

أحدهما ـ أنه بعد الإشارة إلى المعنى اللغوى للفصاحة والبلاغة ينتهى إلى أنهما ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما، لأن كل واحد منهما انما هو الإبانة عن المعنى والاظهار له .

الثانى ـ أنه بعد أن نقل من بعض العلماء أن «الفصاحة تمام آلة البيان» يصل الى ان الفصاحة والبلاغة مختلفتان، و ذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هى إنهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

ويؤيد هذا الرأى بأن الببغاء يسمى فصيحاً لا بليغاً لأنه يقيم الحروف فقط ولا يقصد المعنى الذى يؤديه[١١].

فمن تمام آلة البيان كون الكلام سهل اللفظ، جيّد السبك غير مستكره ولامتكلف . فإذا اجتمع فى كلام واحد هذه النعوت مع وضوح المعنى، يسمى فصيحاً كما يسمى بليغاً لوجود تقويم الحروف وايضاح المعنى كليهما.

ثم ذكر العسكرى[١٢] ان قوماً زادوا على تقويم الحروف فى معنى ـ

٨ـ المصدر السابق ١/١١٥ .

٩ـ المصدر ١/١٦٢ .

١٠ـ المصدر السابق ١/١٣٧ .

١١ـ الصناعتين، ٦ـ٧ .

١٢ـ الصناعتين، ٨ـ٩ـ١٠ .

الفصاحة، فخامة اللفظ وشدة الجزالة[١٣]. و ذلك مثل قول النبى (ص) «ألا إن هذا الدين متين فأوغل برفق، فان المُنْبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

وكقول الحسين بن على (عليهما السلام) : «إن الناس عبيد الأموال، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه مادرّت به معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالابتلاء قلّ الديانون» .

وإذا جمع الكلام نعوت الجودة وخلا من فخامة الالفاظ وجزالتها سمى بليغاً لا فصيحاً، وذلك كقول بعضهم ـ وقد سئل عن حاله عند الوفاة ـ : «ما حال من يريد سفراً بعيداً بلازاد، ويقدم على ملك عادل بغير حجة، ويسكن قبراً موحشاً بلا أنيس ؟» .

وكقول آخر لأخ له : «مددتَ إلى المودة يداً فشكرناك، وشفعتَ ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع الى محمود الود اولى بك من المقام على مكروه الصدّ» .

فعلى هذا أيضاً ان الفصاحة غير البلاغة وأنه يجوز ان تجتمعا فى كلام واحد إذا كان جامعاً لما اعتبر فى كل منهما، وان تفترقا إذا لم يكن كذلك .

١٣ـ لم اجد فى كتاب العسكرى تفسيرا واضحا للمراد من الجزالة ولكن يستنبط من كلامه ان الجزل من الألفاظ ماكان شريفا وصلبا وغير سهل. (الصناعتين، ٢٤) .

والجزل من الالفاظ عند ابن اثير ماكان متينا على عذوبته فى الفم و لذاذته فى السمع، وهو يقابل الرقيق . ويقول : فالالفاظ الجزلة تتخيّل فى السمع كاشخاص عليها مهابة و وقار، والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذى دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج. (المثل السائر ١/١٦٨ـ١٧٨) ولايخفى ان الجزل بهذه التفاسير لايليق بكل مقام مع أن اعتباره فى مفهوم الفصاحة يستلزم وجوده فى كل موضع .

وأتى بعدالجاحظ والعسكرى، الخفاجى (ت ـ ٤٦٦ هـ) وتناول الفصاحة فى كتابه **«سرالفصاحة»** و درسها دراسة مفصلة .

والفصاحة عنده غير البلاغة ، و ذلك لأنه يعنى من الفصاحة حسن الألفاظ، ومن البلاغة حسن الألفاظ والمعانى معا . فكل بليغ عنده فصيح و ليس كل فصيح بليغاً .

وبعبارة أخرى ان الفصاحة عنده مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ والمعانى[١٤].

ولاتستحق كلمة وصف الفصاحة عنده حتى تتكامل فيها ثمانية اشياء:

الاول ، ان تَتألّفَ تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج، لأن الحروف التى هى أصوات، تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر، فكما ان اجتماع الألوان المتباينة للبصر أحسن من الألوان المتقاربة، كان اجتماع الأصوات المتباينة ألذ عند السمع من غيرها .

فعلى هذا أن كلمة «هُعْخُع»[١٥] المؤلفة من الحروف المتقاربة فى المخرج غير فصيحة .

الثانى ، ان تجد لتأليف الكلمة فى السمع حسنا ومزية على غيرها، و إن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة . و ذلك مثل تأليف كلمة «العذيب» اسم موضع، و «عذيبة» اسم امراة و «عَذْب» و «عذاب» و «عَذَب» و «عذبات» من (ع، ذ، ب) ، فإن السامع يجد فيها من الحسن والمزية مالايجده فى ذعب وعبذ . مثلاً، مع انهما مأخوذان أيضا من الحروف المذكورة بتغيير ترتيبها .

١٤ـ سرالفصاحة، ٦٠، ٢٥٧ .

١٥ـ نبت يرعاه الإبل .

وليس سبب ذلك بُعد الحروف فى المخارج فقط لوجوده فى كل منها، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد .

وحاصله انه من شروط الفصاحة أن تكتسب الكلمة بسبب تأليفها الخاص مزية وحسنا فى السمع وان لاتكون مستكرهة ونابية عنده . فلهذا نحكم بفصاحة «الغصن» و «الفنن» و «أغصان البان» دون «العُسلوج»[١٦] و «عساليج الشَوْحَط»[١٧].

ونحكم بقبح الجرشى فى قول المتنبى :

مُبارَكُ الاسم أغرُّ اللقَبْ   كريم الجِرِشّى[١٨] شريف النَّسبْ

وبقبح الحَقَلَّد فى شعر زهير بن ابى سلمى :

تَقِيٌّ نقيٌّ لم يُكثِّر غنيمةً   بنكهَة ذى قربى ولا بحَقَلَّدِ[١٩]

الثالث ان تكون الكلمة غير متوعرة وحشية، كقول ابى تمام :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه   بلا طائر سعد ولا طائر كهل

فلكمة «كهل» هاهنا من غريب اللغة، وقد روى أن الاصمعى لم يعرف هذه الكلمة .

١٦ــ العسلوج : الغصن .

١٧ــ الشوحط : شجر يتخذ منه القسى .

١٨ــ البيت من قصيدة فى جواب كتاب انفد اليه سيف الدوله بخطه. مطلعها :

فهمتُ الكتابَ أبرّ الكتُب   فسمعاً لأمر امير العَرب

كريم الجرشى : اى كريم النفس .

١٩ــ من قصيدة يمدح بهاهرم بن سنان . ومطلعها :

عشيتُ ديارا بالبقيع فثَهمد   دوارس قد أقْوَين من ام معبدِ

البقيع وثهمد : موضعان .

النهكة : النقص وإلا ضرار . الحقلد : البخيل السّئ الخلق .

فالكهل لفظة ليست بقبيحةالتأليف، لكنها وحشية غريبة لايعرفها مثل الأصمعى .

ومن ذلك ايضا ما يروى عن ابىعلقمةالنحوى من قوله :

«ما لكم تتكأكؤن علىّ تكأكؤكم[٢٠] على ذى جنّةٍ ؟ افرنقعوا عنّى» .

فإن تتكأكؤن و«افرنقعوا» كلمتان وحشيتان .

الرابع ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية، كقول ابىتمام :

جلّيتَ والموتُ مُبدٍ حُرَّ صفحته
وقد «تَفرعَن» فى افعاله الأجل[٢١]

فكلمة «تفرعن» مشتقة من اسم فرعون وهى من ألفاظ العامة ، و عادتهم أن يقولوا : «تَفَرْعَن فلانٌ» إذا وصفوه بالجبرية .

الخامس ان تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة ، فكل ما انكره أهل اللغة ورده علماء النحو والصرف من التصرف فى الكلمة، داخل فى هذا القسم .

ومخالفة الكلمة للعرف العربى الصحيح تقع على وجوه، فمنها :

١ــ أن اللفظة بعينها غير عربية كا«لمِقراض» فى قول أبى الشيص :

وجناحِ مقصوصٍ تحيّف ريشَه ريبُ الزمان تحيُّفَ المِقْراض

فالمقراض ليس من كلام العرب، لأنه لم يسمع الامثنى .

٢٠ــ فى رواية الجاحظ «كما تكأكئون على ذى جنة» البيان والتبيين ١/٣٧٩ .

٢١ــ البيت من قصيدة فى مدح المعتصم بالله . ومطلعها :

فحواكَ عينٌ على نجواك يا مَذِلُ حتامَ لايتقضّى قولك الخَطِلُ

المَذِل : الذى لايكتم سره : الخطل : المضطرب .

٢ـ أن الكلمة عربية إلا انها قد عبّر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة، كال «أيّم» فى قول ابى عبادة :

يشُقّ عليه الريحُ كلَّ عشيّةٍ جيوبَ الغَمام بين بِكرٍ وأيّم*

فوضع الايّم موضع «الثيب» وليس كذلك لأن الأيم فى عرف اللغة من لازوج لها بكراً كانت او ثيبا .

وكاستعمال الصلَف بمعنى الكبر والتيه فى قول أبى تمام :

ما مُقْرَبٌ يختال فى أشطانه ملآنُ مِنْ صلَفٍ به وتَلَهْوُق[٢٢]

وهذا هو مذهب العامة فى استعمال هذه اللفظة، واما العرب فتقول: صَلِفت المرأة عند زوجها، إذا لم تَحظَ عنده . وصَلَفت الرجلَ إذا كرهته .

٣ـ الحذف من الكلمة اعتباطا . كقول النجاشى :

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه ولاكِ اسقنى إن كان ماؤك ذافضلِ

أراد «ولكن اسقنى» .

٢٢ـ البيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب ويصف فرسا حمله عليه .

المُقْرَب : الفرس المشدود بالحبل قريبا من بيت مالكه .

التَلَهْوُق : التكلف لأكثر ما يمكن .

وفى الحديث : «كان خلق رسول الله (ص) سجيّة ولم يكن تلهوقا».

وجملة «ما مقرب» مبتدأ وخبر على الإستفهام .

* والبيت من قصيدة يرثى فيها حميدا الطوسى واولاده . ومطلعها :

أ«قصرَ حُميد»! لاعزاءَ لمُغْرَم ولا قَصرْ عن دمعٍ وإن كان مِنْ دم

و رواية الديوان : «تشق عليه الرّيح» .

و كقول المتنبى :

تـعثّرتْ بهِ فـى الأفـواه ألسنُهـا
والبُرْدُ فى الطُرْق والاقلامُ فى الكتُب[٢٣]

٤ـ الزيادة فى الكلمة كقول ابن هَرْمة :

وانت، على الغواية، حين ترْمى و عن، عيب الرجال، بمنتـزاح[٢٤]

أراد «بمنتزح» .

٥ـ ايراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ، «كالباهت» ، فى قـول البحترى :

متحيّريـن فبـاهت متعجب" ممّا يرى او ناظر" متأمِل[٢٥]

فإنها لغة رديئة، والعربى المستعمل «مَبْهوت» .

و ك «الذ» فى الذى فانها لغة شاذة . قال المتنبى :

و إذا الفتى طرح الكلامَ مُعرِّضا فى مجلسٍ أخذ الكلامَ اللّذعَنا[٢٦]

٢٣ـ فالمتنبى لم يلحق الباء فى «به» بالهاء واكتفى بالكسرة ضرورة. والبيت من قصيدة يرثى بها اخت سيف الدولة، يقول : لهول هذا الخبر تلجلجت به الالسنة فى الأفواه، وتعثرت الرسل الحاملة لـه فى الطـرق، و رجفت ايدى الكتاب فى كتابته .

٢٤ـ جاء فى اللسان : وانت بمنتزح من كذا : أى ببعد منه، قال ابن هرمة يرثى ابنه :

فأنت، من الغوائل، حين ترمى، و من ذمّ الرّجال ، بمنتزاح

٢٥ـ و رواية الديوان بتحقيق حسن كامل الصيرفى :

«متحيّرون فباهت" متعجب"»

والبيت من قصيدة يمدح فيها المتوكل ويذكر وفدا الروم عليه .

٢٦ـ البيت من قصيدة مدح بها بدربن عمارٍ، ويعرّض بأعوربن كروس لما وشى بالمتنبى . يعنى انه عرض بذكر اولاد الزنا، وقد فهم هـذا التعريض من عناه، فهو يأخذه لنفسه . وقبله :

وانّهُ المشير عليك فىّ بضلّة فالحرّ ممتحن" بأولادِ الزنا

٦ـ فك الادغام لغير موجب، و ذلك كقول قعنب بن أم صاحب :

مهلا أعاذلُ ، قد جرّبتِ من خُلُقى
إنى اجودُ لأقوامٍ وإن ضَنِنوا

السادس، أن لاتكون الكلمة قد عبر بها عن معنى آخر يكره ذكره، فاذا وردت فى بيت شعرٍ أوكلامٍ قبحت، وان لم يقصد بها ذلك المعنى المكروه .

و ذلك كا«لمقاعد» فى قول الشريف الرضى :

أعزِزْ علىّ بأن أراك وقدخلَتْ مِنْ جانبيك مقاعدُ العوّاد[٢٧]

فكلمة «مقاعد» فى هذا البيت وان كملت فيها بقية صفات الفصاحة إلا انها توافق ما يكره ذكره فى هذا الشأن، لاسيما انها أضيفت إلى من يحتمل إضافتها إليهم وهم العواد، ففيها قبح ظاهر بخلاف ما لو ذكرت منفردة، فالأمر حينئذ فيها سهل .

وكا«لدلو» فى قول ابى تمام :

متفجّرٌ نادمتُه فكأنّنى للدلو او للمرِزْمينِ نديم[٢٨]

٢٧ـ البيت من قصيدة فى رثاء ابى اسحق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب، وتوفى فى شوال سنة ٣٨٤ هـ. وكان بينهما من المودة الأكيدة .
و روايةالديوان طبع بيروت سنة ١٣٨٠ هـ : «من جانبيك مقاود العوّاد» والظاهر انه خطأ .
و بعده :
أعزز علىّ بان يفارق ناظرى لمعان ذاك الكوكب الوقّاد
اعزز علىّ بأن نزلت بمنزل متشابه الأمجاد والأوغاد

٢٨ـ البيت من قصيدة فى مدح محمدبن الهيثم بن شبانة، و رواية الديوان بشرح الخطيب التبريزى طبع دارالمعارف : «للنجم أو للمرزمين نديم» .
و قبله :
لله كفّ محمد و ولادُها للبذل اذ بعض الأكفّ عقيم

فالمراد من الدلو هنا أحد البروج ولكنه وافق اسم الدلو المعروف . فانت تجد باقرب تأمل الفرق بين «أنت المرزم جوداً» و «أنت الدلو كرماً» من حسن الأول وقبح الثاني .

السابع ان تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فانها متى زادت على الصور المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن دائرة الفصاحة و ذلك مثل «مغناطيسهن» في قول ابن نصر بن نباته[٢٩] :

فأيّاكم أن تَكشفوا عن رؤوسِكم ألا إن مغناطيسهنّ الذوائب

فهذه الكلمة مع اشتمالها على عيوب اخرى غير مرضية لما ذكر . و مثل «سويداواتها» في قول المتنبي :

إنّ الكرامَ بلا كرام منهمُ مثلُ القلوب بلاسُوَيْداواتِها[٣٠]

الثامن ان تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو مايجرى مجرى ذلك . فلهذا أنكر المبرد تصغير «داهية» في قول الشاعر[٣١] :

٢٩ــ هو عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن نباتة التميمي السعدي، ابو نصر. من شعراء سيف الدولة ابن حمدان . طاف البلاد، ومدح الملوك، واتصل بابن العميد ومدحه .

... قال ابن خلكان معظم شعره جيد .

توفى ببغداد . (الاعلام ١٤٨/٤ــ١٤٩) .

٣٠ــ البيت من قصيدة يمدح فيها ابا ايوب احمد بن عمران . السويداوات جمع سويداء : حبة القلب . يقول : ان الكرام من الخيل اذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين، كالقلب دون سويداء .

٣١ــ هو لبيد بن ربيعة العامري . والبيت من قصيدة يرثي فيها النعمان بن المنذر . وقبله :

ألا كلّ شئ ما خلاالله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

وبعده :

وكلّ امرئ يوما سيعلم سعيَه إذا كُشِّفَت عندالإله المَحاصل

وكلُّ أناسٍ سوف يدخـل بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تصفرّ منها الأناملُ[٣٢]

والفصاحة عند الشيخ عبدالقاهر (ت ٤٧٤ هـ) تسلك سبيلا جديدا و تتوجه الى ناحية اخرى فى البيان . فهى عبارة عن فضل ومزية فى نظم الكلام وترتيبه وتأليفه وتركيبه، وما يعبر به عن فضل قائل على آخر فى النطق والتكلم والاخبار عن الاغراض والمقاصد وبيان ما فى النفس والكشف عن ضمائر القلوب[٣٣].

فالشيخ يتفحص عن الفصاحة فى تركيب الكلام لا المفردات[٣٤]، وفى المعانى لا الألفاظ، وسنبين هذا عند الكلام فى «الفصاحة بين اللفظ والمعنى» .

فالظاهر ان الفصاحة عنده تساوى البلاغة وترادفها .

والفصاحة عند السكاكى (ـ ٦٢٦ هـ) تنقسم الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى، ويعنى به خلوص الكلام عن التعقيد والتعمية فى التوصل الى معناه . و ذلك كقول الفرزدق :

و ما مثلُه فى الناسِ إلا مُملَّكا أبـو أمِّه حىٌّ أبـوه يُقاربُه[٣٥]

٣٢ـ سر الفصاحة، ٦٦ـ٩٩ .

٣٣ـ دلائل الإعجاز، ٢٩، ٣٠، ٣٥ .

٣٤ـ لعلّ ابن الأثير قد ألهم من الشيخ حيث يقول : «واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الالفاظ اكثر ممّا يقع فى مفرداتها» (المثل السائر ١٤٥/١) .

٣٥ـ والبيت فى مدح خال هشام بن عبدالملك، وهو ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى .

لم أجد البيت فى ديوان الفرزدق طبع بيروت . وتقدير البيت :
وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربُه إلاّ مملَّكٌ ، أبو أمِّه أبوه

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كبدالسماءِ ولـم يكُن　　كاثنينِ ثانٍ إذهُما فـي الغار[٣٦]

وقسم يرجع الى اللفظ، ويعنى به كون الكلمة عربية اصلية، وعلامة ذلك كون الكلمة كثيرة الاستعمال على ألسنة الفصحاء وجارية على قوانين اللغة وسليمة عن التنافر[٣٧] .

وأمّا الفصاحة عند ابن الأثير ٣٨ (- ٦٣٧ هـ) فهي تلخص في حسن- الألفاظ ، لأن الكلام الفصيح هو الظاهر البين الذي لايحتاج في فهم ألفاظه الى مراجعة القواميس . ويرجع سبب ذلك إلى كثرة دوران الكلمات في- الاستعمال ثم إلى مكانة حسنها، لأن الفصحاء والأدباء غربلوا الألفاظ فما وجدوه فصيحا استعملوه ومارأوه قبيحا تـركوه . فحسن الألفـاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرهـا سبب ظهورها وبيانهـا . فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسَن، ولا وجه لتمييز الحسن من القبيح الا

٣٦- البيت من قصيدة في مدح المعتصم وذكر أمر الافشين. ومطلعها:

الحقُّ أبـلجُ والسيـوفُ عـوارِ　　فحذارِ مـن أسدالعرينِ حذارِ

ثم أشار في ابيات القصيدة الى امر بابك ومازيار وهلاكهما وصلبهمـا قبله :

ولقد شفى الأحشاءَ مـن بُـرحائها　　أن صـار بـابكُ جـارَ مازيـارِ

ثانيه فـي كبدالسماء و لـم يكَن　　كاثنين ثـانٍ إذ همـا فـي الغارِ

و رواية الديوان : «لاثنين ثان اذ . . .»

وعلى هذه الرواية يكون «ثان» خبراً ليكن، ويـرد علـيه استعمال- المنصوب في صورة المجرور وهو لغة رديئة، فالأفصح حفظ صورته وهي «ثاني» .

٣٧- مفتاح العلوم، ١٩٦-١٩٧ .

٣٨- المثل السائر ١/٦٥-٦٦ .

من طريق السمع، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات فما استلذه السمع فهو حسن وما نفر عنه فهو قبيح. فلهذا نحكم بفصاحة «المزْنة» و «الديمة» لمكان حسنهما وميل السمع إليهما وقبح «البُعاق» لكراهتها في السمع مع أن هذه اللفظات الثلاث من صفات المطر وتدل على معنى واحد[٣٩].

والفصاحة عند ابن الأثير غير البلاغة لأنها مقصورة على الألفاظ بخلاف البلاغة فانها تعم اللفظ والمعنى، فكل بليغ فصيح ولاعكس.

وأيضاً أن الفصاحة تطلق على اللفظة الواحدة لجواز أن تكون حسنة وأما البلاغة فلاتكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب[٤٠].

والفصاحة تتناول اختيار الألفاظ المفردة ونظم كل كلمة مع اختها المشاكِلة لها.

والبلاغة تتناولهما مع وضع كل كلام في موضعه اللائق به ومطابقته لما يقتضيه الواقع ونفس الأمر[٤١].

و ذكر أحمد بن عبدالوهاب النويري (ـ ٧٣٣) الفصاحة والبلاغة وفسرهما، وأشار الى ما عرض للفصاحة في المراد بها من الجزر والمدّ عند علماء هذا الفن وقال: «وقالوا: لايسمى الفصيح حتى تخلص لغته عن اللكنة الأعجمية ...»

وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في المعاني، ويستدلون بقولهم: لفظ فصيح ومعنى بليغ.

ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد في الألفاظ

٣٩ـ المثل السائر ١/٦٥ـ٦٧.

٤٠ـ المصدر ١/٧٠.

٤١ـ المصدر ١/١٤٢.

والمعانى، والأكثرون عليه»[٤٢].

لقد جاءالقزوينى (ـ ٧٣٩) بعدهم وتناول الفصاحة والبلاغة فى كتابيه «الايضاح والتلخيص»، وشكى من تضارب الآراءواختلاف الأقوال، و رأى انها لاتغنى من الجوع شيئا، فقال : «للناس فى تفسير الفصاحة والبلاغة اقوال مختلفة فلم اجد منها مايصلح لتعريفهما به»[٤٣].

ولكن كل ما جاء به فى البحث عن الفصاحة انه قسمها الى فصاحة المفرد والكلام والمتكلم . ثم اخذ فى تفسير كل منها . فلم يُضف فى اوصاف الفصاحة شيئاً على ما ذكره القوم ولم يَزد عليه امراً جديداً، بل لخّص ما أشاروا إليه فى هذا المقام وحتى انه قصّر فى بيان ما ذكروه ولم يبلغ شأو بعضهم .

وهذا ابن الأثير فقد جاء فى بيان الفصاحة والبلاغة بمباحث قيمة و نظرات جديدة تنبيء عن خوضه وعمق تأمله فى هذا المجال وسبره غمار الفصاحة والبلاغة . وسنشير إلى هذه النظرات إن شاءالله .

فسر القزوينى فصاحة المفرد بخلوصه من تنافر الحروف والغرابة و مخالفة القياس اللغوى، وفصاحة الكلام بالخلوص من ضعف التأليف و تنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها[٤٤].

فهو كما ذكرنا لم يعتبر فى اوصاف الفصاحة غير ما اعتبره علماء هذا الفن، ولم يتنبه الى عوامل أخرى مؤثرة فى الفصاحة والبلاغة كالعوامل النفسية والظروف التى أحاطت بالكلمة .

والفصاحة عنده غير البلاغة، لأنها تقع صفة للمفرد كما تقع صفة

٤٢ـ نهاية الأرب ٦/٧ـ٧ .

٤٣ـ الايضاح، مع شروح التلخيص ١/٦٥ـ٦٦ .

٤٤ـ الإيضاح، تلخيص ١/٧٦، ٩٥ .

للكلام والمتكلم، بخلاف البلاغة، فانها لاتطلق على المفرد . وايضا ان الظاهر من كلامه أن الفصاحة تبتدىء باللفظ وتتركز عليه على عكس البلاغة.

« نقد وتحقيق في معنى الفصاحة »

إعلم أن عالم الألفاظ عالم عجيب، يموج بالدقائق واللطائف، ويمور بالرموز والأسرار . عالم في صدره من النكت والفن مالايعدّ ولايعرف، و على لسانه من الوحي والاشارة مالايحدّ ولايوصف .

عالم تنعكس عليه رغبات الشعوب ونزعاتهم، ويتجسد فيه شعورهم واحاسيسهم، وتُضرب على اوتاره الحانُ اشواقهم وأشجانهم، ويُحكى في طياته غضبُهم و رأفتهم، جهلهم ومعرفهتم .

أليست الألفاظ زفراتٍ يتنفس بها البؤساء والمرضى، ونفثاتٍ يلفظها الغرباء والجرحى، وحبّات قلوبٍ نُظمت في سلك من الشعور والاحساس، وبلّوراتٍ يتجسد فيها صُراخ المظلوم وشكوى المهموم ؟

أليست كلمات من يتقلب في النعم والرفاهيّة تختلف عن كلمات من يتلوى من البؤس والشقاء ؟ هل صياحُ البطَر، يستوى وصُراخَ التعَس والضجَر ؟

أليست الألفاظ الجزلة تستعمل في الحروب والحماسة والتهديد والتهويل، والألفاظ الدقيقة تستعمل في الاستعطاف والسؤال والحنين والأشواق ؟

وأليست كلمات أهل الحضر ولغاتهم تتفاوت من الفاظ اهل البادية و سكانها ؟

الألفاظ كانت ـ وستكون ـ تتكرر على السنة الناس : مريضهم و صحيحهم، سعيدهم وشقيهم، فقيرهم وغنيهم، بعيدهم وقريبهم، مهمومهم و مسرورهم، حكيمهم وسفيههم. وكلما كانت الكلمة اكثر تداولاً وتكراراً كانت أثقل حمولة بتجارب الناس فى حياتهم . «فيقطّر فيها كل جيل تجاربه الخاصة من حياته الخاصة، وكأنما يتخذ من الفكرة الكامنة فى حنايا اللفظة مشجبا يعلق عليه هذه التجارب التى بثها إيّاها»[٤٥].

والألفاظ مع انها فى متناول كل شخص وبابها مفتوح على كل نازل لامانع له ولا زاجر، وله ان يأخذ مايشاء وكيفما يريد، إلا أنها تتلون بلون كل قائل وتصبح ملكا خاصا له . و ذلك "لأنها لاتحمل معها مجرد المعانى المدونة لها فى القواميس والتى نسجت عليها العناكب بيوتها، فإن هذا المقدار شيء تافه وضئيل يحط من شأن رسالة الألفاظ . لأن المعنى الذى نجده فى معاجم اللغة ما هو الا النواة التى تتجمّع حولها طائفة من المعانى الثانوية . فالنواة تدل على شيء اوحدث ما، واما المعانى الثانوية فتدل على النواحى المتعددة المتنوعة لذلك الشيء أو الحدث»[٤٦].

فالألفاظ تحمل بجانب تلك المعانى طابع الإنسان وما احاط به من العواطف والاحاسيس، والميول والنزعات . قال «جورج ديهاميل» الكاتب الفرنسى :

يأخذ الرجل الكلمة وإذا بها ملك له، بعدان كانت للجميع . فبطريقه نطقه وحركات عضلاته، وبحجم انفاسه ونسبة تصريفه لها، وبرنة صوته وتنغيمه بل وبالظواهر الاضافية من تغيير وجهه الى دلالة عينيه إلى حركة يده واعضائه وجسمه كله، بكل هذه الوسائل يضع الإنسان طابعه الخاص

٤٥ـ فنون الأدب ، ٨ .

٤٦ـ قواعد النقد الادبى، ٤٠ .

على الكلمة التي يفوه بها، طابعه الذي ينم عن عاداته وشهياته وشهواته و مواضع نقصه وندمه وآلامه.

يقول: «نبيذ» ـ على بساطة الكلمة ـ فندرك جميعاً هل هو يحب النبيذ أم يخشاه، وهل هو في عطش أم ري، وهل هو من الخبراء فيه أو الدُخلاء عليه؟

ويقول: «حب» فيقلقنا بنطقه لهذا المقطع أو يؤثر فينا، أويثيرنا أو يحملنا على الابتسام»[٤٧].

فمن البساطة ان نحصُرَ دلالة الألفاظ وآفاقها على مجرد تلك المعاني المكتوبة لها في القواميس، فنطوف او ندور عليها على مر الدهور. إذـ الألفاظ حينئذ ليست الا جثثا هو امد أو هياكل جامدة تذروها الرياح فلا تستحق البقاء الذي كتب لها.

فاللفظ كائن حي ينمو ويتطور، يذبل ويزدهر، ينبض بالقوة والحيوية، يوحي بالعواطف والإحساسات، ويرمز الى كثير من المفاهيم.

قال «تشارلتن» ـ أستاذ الأدب الأنجليزي في جامعة ما نشستر بانجلترا ـ: «فالكثرة الغالبة من الألفاظ مثقلة بأشياء غير الفكرة التي تحملها، مثقلة إلى جانب الافكار بمالا يقع تحت حصر من المشاعر والصور»[٤٨].

وحمولة الألفاظ تتفاوت ثقلا وخفة، كثرة وقلة، بالنسبة الى الأفراد والطوائف، والعوامل والظروف.

ألا ترى أن كلمة «الجوع» التي تتكرر على ألسنتنا في حياتنا اليومية وتتداولها حينما نجلس حول مائدة الغداء والعشاء ملوّنة بأنواع

٤٧ـ دفاع عن الأدب، ١٨٠.

٤٨ـ فنون الأدب، ٥.

الطعام، لاتحمل معها ما تحمله جارية على ألسنة جياع افريقيا من المعنى والاحساس والخوف والوحشة .

فكلمة الجوع تنبه فينا شهياتنا، وتحرك فينا ميولنا وحرصنا على الأكل والافراط فيه، ولكن نفس الكلمة تثير فيهم آلامهم وأحزانهم وتزيد فيهم وحشتهم واضطرابهم .

وأيضا ان كلمة «الظبية» للمحب الذى يشاهد عليها ملامح من حبيبته وللعاشق المجنون الذى يقول فيها :

إذا نظرتُ عرفتُ الجيد منها و عينيها ولم نعرِف سواها
كرِهْنا أن نُفزّعها، فقلنا : أشلّ اللهُ كفَّىْ من رماها[49]

غيرُها للصائد والبدوى .

فهى توحى فى الأول بذكريات الحب والحنين والشوق، وتحمل معها ملامح من الحبيبة، وتوصى بالعطف والحنو على الظبية لمشابهة بينها وبين ما يهواه الشاعر . واما فى الثانى فتوقظ الكلمة شهياته وتسيل لعابه من فمه، وتصوّر له لذة صيدها وافتراسها .

وكذلك ان لفظة «الأم» عند من ترعرع فى حضنها وقضى ليله و نهاره قربها، وامتص ثديها وأحس حرارة قلبها الممتلىء بالعطوفة والرأفة، وتربّى بأنا شيدها الساحرة، اوسعُ معنى وأغزرُ مادة وأثقلُ حمولة و أكثرُ ايحاء والذُّ نغمة من الكلمة نفسها عند من لم يقض ساعة فى حجرها ولم يبت ليلة عندها، ولم يرضع لحظة من ثديها، ولم يسمع كلمة من فمها .

وكذا ان كلمة «السيف» عند عنترة البطل الذى يرى فى لمعانه بارق ثغر حبيبته ويقول :

٤٩ــ ديوان مجنون ليلى، ١٩ .

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهل منّي وبيضُ السيف تقطر من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم [٥٠]

ترمز بجانب معناها ـ أعني القطعة المخصوصة من الحديد ـ الى كثير من الخواطر والذكريات .

وأنّ كلمة «ليلى» عند المجنون وهو الذي يقول :

وإنّي لتعروني لذكراك نَفْضة كما انتفضَ العصفورُ بلّله القطر [٥١]

قنبلة مشحونة بالصور والمشاعر والغرام والهيام والوصل والفراق والانين والحنين وغير ذلك، تنفجر فى قلبه عند سماعها .

ومما يدل على اسرار اللفظ و رموزه انك ترى أنه قد تراعى فيه ناحية دقيقة جدّاً وهي ان تكون بين اصواتها والموضوع ملائمة بحيث ان تكون الأصوات حكاية للشيء الموصوف او وحيا له الى الخاطر، و هذه الخاصية ترجع الى الكلمات وينظر فيها الى كل كلمة على حدة وتأثير اصواتها [٥٢].

فقد يُكثر من حروف الضاد والطاء ليدل على الضرب والطعن، كما نرى فى بيت بشّار :

إذا ما غضبنا غضبَةً مضريّةً هتكنا حجابَ الشمس او تقطرَ دما

٥٠ـ البيتان من معلقته المشهورة التى نظمها فى أعقاب حرب داحس والغبراء ليعاتب عَبْلة ويفتخر امامها بشجاعته وكرمه . ومطلعها :

هــل غادر الشعراءُ من متردّم ؟ ام هل عرفتَ الدارَ بعد توهّم ؟

٥١ـ ديوان مجنون، ٥٣ : وقبله :

فيا حبّذا الأحياء ما دمتِ فيهمُ ويا حبّذا الأموات إن ضمّك القبر

وفى رواية اخرى (لذكراك هزّة) .

٥٢ـ قواعد النقد الأدبى، ٤١ .

ويُكثر من حروف «السين» و «الصاد» ليدل على صليل السيوف، و من حرف الراء ليدل على خرير المياه مثلاً .

وكذلك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، واحيانا لهما وزن واحد وعدة واحدة، إلاّ أنه لايحسن استعمال إحداهما فى موضع الآخر، بل يفرق بينهما فى صوغ الكلام و تركيبه . وهذا شيء لايدركه إلاّ من دقّ فهمه وجلّ نظره .

فمن ذلك قوله تعالى : «ما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قلبَيْنِ فى جوفه»[٥٣] وقوله : «ربّ إنى نذرتُ ما فى بطنى محرّراً»[٥٤] فاستعمل «الجوف» فى الآية الأولى و «البطن» فى الثانية . فهاتان اللفظتان وان كانتا سواء في الدلالة والوزن وعدد الحروف إلاّ انه لايحسن استعمال إحدهما فى موضع الآخر .

وكذا قوله: «ماكذَبَ الفؤادُ ما رأى»[٥٥] مع قوله : «إنّ فى ذلك لذكرى لمَنْ كان له قلبٌ اوألقى السمعَ وهو شهيد»[٥٦] فالقلب والفؤاد وان كانا بمعنى واحد إلاّ انه وقع كل منهما فى موقع لايحسن وقوع الآخر فيه.

وكذا لفظتا «العسل» و «الشهد» فانهما فى المعنى وعدد الحروف سواء ، لكن يمكن ان يكتسب كل منهما فى نظم الكلام حسنا لم يكتسبه الآخر لو وضع فيه . كما ترى فى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

٥٣ـ الأحزاب، ٤ .

٥٤ـ آل عمران، ٣٥ .

٥٥ـ النجم، ١١ .

٥٦ـ الذاريات، ٥٧ .

نحن بنو الموتِ إذا الموتُ نزل   لا عارَ بالموت إذا حُمَّ الأجَلْ
الموتُ أحلى عندنا من العَسَل[٥٧]

وقول المتنبى :

إذا شئتُ حفَّتْ بى على كل سابح   رجالٌ كأن الموتَ فى فمها شهدُ[٥٨]

فكل من لفظتى العسل والشهد حسن فى موضعه وان كان «الشهد» لم يرد فى القرآن لأن «العسل» أحسن منه . فلو بدل موضعهما لزال حسنهما وقبولهما[٥٩].

وقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدل على احساس الشاعر أو الأديب من بعض، والشاعر الموفق هو الذى يهتدى الى الكلمة التى تكون شديدة الإبانة عما يريد، لأن التمييز بين الألفاظ شديد .

قيل ان رجلا أنشد ابن هرمه قوله :

بالله ربّك، ان دخلتَ فقل لها   هذا ابن هرمةَ قائِما بالباب

٥٧ـ والأبيات على ما جاء فى شرح ديوان الحماسة للتبريزى (د ١/١٥٤ـ١٥٥) :

أنا ابو برزة إذ جدّ الوَهَلْ   خلقت غير زمّل ولا وكل
ذا قوّة و ذا شباب مقتبل   لا جزع اليوم على قرب الأجل
الموت أحلى عندنا من العسل   نحن بنى ضبّة أصحاب الجمل
نحن بنو الموت إذا الموت نزل   ننعى ابن عفّان باطراف الاسل
ردّو علينا شيخنا ثمّ بجل

أى ثمّ بجَلْنا ذاك ـ حسبُنا ـ .

٥٨ـ البيت من قصيدة يمدح بها عمر بن سيّار بن مكرم التميمى . و مطلعها :

أقلُّ فعالى ـ بله اكثره ـ مجدُ   وذا الجِدُّ فيه نلت ام لم انل جَدُّ

٥٩ـ المثل السائر ١/١٤٢ـ١٤٤ .

فقال : ماكذا قلت، أكنت أتصدّق ؟!

فقال : فقاعدا

قال : أفكنت أبول ؟!

قال : فماذا ؟

قال : واقفا، ليتك علمت ما بين هذين من قدرِ اللفظ والمعنى . والفرق بين هاتين الكلمتين مع أنهما متقاربتان جدا، هو ان القيام يستدعى الاستمرار والدوام، بينما الوقوف لايستدعيهما . وابن هرمة يريد ان يعلم صاحبته بمكانه من غير ان يريد اخبارها بانه ثقيل الظل، لايبرح بابها، بل هو قائم بجواره[٦٠].

فاختيار الألفاظ و وضعها فى موضعها اللائق بها، من دقائق البيان ولطائفها التى يبلغ الكلام بتوفيتها حد الاعجاز، وبالاشتمال عليها درجة «ان من البيان لسحرا» .

فأفلاطون لم يبعد من الحقيقة حين رأى أن الأشياء ليست جميلة جمالا مطلقا، وإنما تكون جميلة عند ما تكون فى موضعها، وقبيحة عند ما تكون فى غير موضعها[٦١].

ومن اعجب امر اختيار الألفاظ و وضعها فى موضعها اللائق بها، أننا نرى لفظا واحدا يكون حسنا ومقبولا فى موضع ومستكرها وضعيفا فى موضع آخر . و ذلك مثل كلمة «الشيء» فى قول عمر بن ربيعة المخزومى:

و مِنْ مالىءٍ عينيه من شيءِ غيرِه
إذا راح نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُّمى[٦٢]

٦٠- اسس النقد الأدبى عند العرب/٤٥٤-٤٥٥ . الصناعتين، ٦٨ .

٦١- الأسس الجمالية فى النقد العربى، ٣٥ .

٦٢- وقبله :

وكم من قتيل لايُباء به دمٌ ... ومن غَلِقٍ رهنا، إذاضمَّه مِنى

فلفظة الشيء هاهنا كناية عن كل ما استهواه الشاعر واستحسنه في حين لا يكون التصريح بها ممدوحا، ثم إنها استعملت منضمة ومضافة فجاءت حسنة، بخلافها في قول المتنبي :

لو الفلكَ الدّوار أبغضتَ سعيه لعوّقه شيءٌ عن الدّوران[٦٣]

فانها مستكرهة لخلوها عن موجب اختيار ابن ابي الربيعة لها او سبب مناسب آخر، ولذكرها مطلقة ومقطوعة عن كل القيود والمنضمات[٦٤].

ومثل كلمة «يؤذي» في قوله تعالى : «فإذا طعمتم فانتَشِروا ولا مستأنسينَ لحديثٍ، إنّ ذلكم كان يؤذي النبيَّ فيَستَحيي منكم، واللهُ لا يستحيي مِنَ الحقِ»[٦٥].

وقول ابي الطيب المتنبي :

تَلَذُّ له المرؤةُ وهي تؤذي ومَنْ يعشَقْ يَلذُّ له الغَرام[٦٦]

فهذه اللفظة جاءت في الآية جزلة متينة، وفي البيت ركيكة وضعيفة، فحطّت من قدره مع انه من ابيات المعاني الشريفة .

وسبب ذلك ان كلمة «يؤذي» إذا جاءت في الكلام ينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ومتعلقة به كما رأيت في الآية . ولكن المتنبي استعملها منقطعة، لأنه قال : «تلذ له المرؤة وهي تؤذي» ثم قال : «ومن

٦٣ـ البيت من قصيدة يذكر فيها خروج شبيب العقيلي على كافور و قتله بدمشق، مطلعها :

عدوّك مذموم بكلّ لسان ولو كان من اعدائك القمران

٦٤ـ راجع دلائل الاعجاز، ٣٩ .

٦٥ـ الاحزاب، ٣٣ .

٦٦ـ البيت من قصيدة يمدح بها المغيث بن العجلي، ومطلعها :

فؤادٌ ما تسلّيه المُدامُ و عمرٌ مثل ما تهَبُ اللِئامُ

يعشق . . .» فجاء بكلام مستأنف[٦٧].

و وردت كلمة «يؤذى» بعينها على الاستعمال الفصيح فى الحديث، و ذلك انه «اشتكى النبى (ص) فجاءه جبريل ورقّاه، فقال: بسم الله ارقيْك من كلّ داء يؤذيك» .

فالحاق الضمير بـ«يؤذى» البسها حلّة من الحسن والقبول وأخرجها عن القبح العارض لها فى صورة الإنقطاع .

ومن هنا تزاد هاء السكت فى نهاية بعض الكلمات كى لايكون حرفه الاخير محل قطع، كما ترى فى قوله تعالى : «هاؤمُ اقرؤا كتابيَه ، إنى ظننتُ أنى مُلاقٍ حسابيه، ثم قال : ما أغْنى عنّى ماليَه، هَلَكَ عنّى سلطانيه»[٦٨].

ومثل كلمة «تؤذى» كلمة «لى»، فإذا جاءت مندرجة ومتعلقة بما بعدها تكون حسنة وإلاّ تعد مستكرهة . فانظر إلى قوله تعالى : «انّ هذا اخى له تسعٌ وتسعون نَعْجةً، ولى نعجةٌ واحدة»[٦٩].

وقولِ المتنبى :

تُمسى الأمانىُّ صرعى دون مبلغِه   فما يقول لشىءٍ ليتَ ذلك لى[٧٠]

فلفظة «لى» فى الآية لم تقع فى آخر الجملة ولم تنقطع عما بعدها ، فحازت من الحسن والقبول ما لم تحزه فى بيت المتنبى .

٦٧ــ المثل السائر ١/٥ــ١٤٦ .

٦٨ــ الحاقة، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٢٩ .

٦٩ــ ص، ٢٣ .

٧٠ــ البيت من قصيدة فى مدح سيف الدولة . ومطلعها :

أجاب دمعى وما الدّاعى سوى طَلَلِ   دعا، فلبّاه قبلَ الرّكبِ والإبلِ

وأما قوله الآخر :

ما أجْدَرَ الأيّامَ والليالــى　　بأنْ تقولَ : ما لَهُ ومالى؟![71]

فليس من هذا القبيل، لأن «لى» هاهنا ذكرت بعد «مــا» وقبلهــا «ماله» ثــم قال و «مالى» فجاء الكلام على نسَق واحد ليس فيه الضعف والركاكة بخلاف البيت الأول .

ومما يدل على وضع الكلمة فى موضعها اللائق بها أو فى غير ذلك، موضع «قمل» فى قوله تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجَرادَ والقُمّلَ والضَفادِعَ والدّمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ»[72].

وقول الفرزدق :

مِن عزّه احتَجرتْ كليبٌ عنده　　زرْباً كأنهُم لَديْهِ القُمَّل[73]

فالآية تضمنت خمس كلمات : الطوفان، الجراد، القمــل، الضفادع والدّم . فأحسنها الطوفان والجراد والدم، فكلمة القمل والضفادع لم تقع فى الأول وفى الآخر بل جُعِلت فى الوسط، ليُطرِقَ السمعَ فــى الابتداء والانتهاء لفظٌ حسن، حتى أنّ احسن تلك الكلمات الثلاث واخفَها وهو الدّم جعل فى الآخر ليخفف ما اثقل السمع ويجبُره .

وأما كلمة «القمل» فى قول الفرزدق فجاءت فى آخر البيت منقطعة

٧١ــ البيت هومطلع قصيدة انشدها ابوطيب بشيراز فــى مــدح عضدالدولة و وصف متصيّد له .

٧٢ــ الأعراف، ١٣٣ .

٧٣ــ البيت من نقائض فرزدق . ومطلع القصيدة :

إنّ الذى سَمكَ السماء بنــى لنــا　　بيتا ، دعــائِمُــهُ أعــزّ و أطْوَلُ

و رواية الديوان طبع بيروت هكذا :

مِنْ عزّهم جحرت كليب بيتهــا　　زربــاً ، كأنّهُمُ لديــه القُمَّلُ

وصارت قافية، فلم يقع بعدها ما يهوّن من امر قبحها او استكراهها[٧٤].

ومن أعجب امر اختيار الألفاظ ايضا انك ترى ان بناء الكلمة وصوغها على الغرابة والكراهة والقبح فتكون وحشية ونافرة غير مأنوسة، اوثقيلة على السمع وكريهة على الذوق، أو سخيفة ومتبذلة، إلاّ انها قد تقع موقعا لاتجد فيه أحسن وأفصح منها . وليس هذا الاّ لأن تلك اللفظة قد حطّمت حدودها وتحمّلت ايحاءات لاتؤدى بدونها .

ونظير ذلك فى غير الألفاظ اننا كثيرا مارأينا مناظر اشمأزّت منها النفس ونفر منها الطبع وارتد عنها البصر، ولكن لما وقعت فى يد الفنان و سلط عليها خياله المبدع و ريشته الساحرة، أخرجها كأحسن ما يكون فى العالم ، وجعل منها لوحا شخصت عنده الأبصار وتطايرت إليه القلوب و تنافست فيه المتنافسون[٧٥]. وما هذا الاّ لأن الفنان قد صبغ المناظر بصبغة خياله، واودع فيها رموزاً واشارات لم تكن موجودة من قبل .

فالألفاظ الوحشية اوالمتنافرة اوالسخيفة مثلا، إذا جاءت فى كلام الشاعر المفلق أوالأديب البارع لاتقف عند حدها بل تتحمل ايحاءات و اشارات تلبسها حلّة قشيبة من الحسن والفصاحة ، وتتجلى كوسيلة لتجسيم الفكرة وتشخيصها .

ولقد أحسن الجاحظ حيث يقول : «وقد أصاب القوم فى عامة ما وصفوا، إلاّ أنى ازعم ان سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى . وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع، و ربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل

٧٤- المثل السائر ١/١٤٥-١٤٨ .

٧٥- قال ارسطو : فالكائنات التى تقتحمها العين حينما تراها فى الطبيعة تلذّ لها مشاهدتها مصوّرة اذا احكم تصويرها، مثل صور الحيوانات الخسيسة والجيف . (فى الشعر، ترجمة بدوى ١٢) .

الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني»[٧٦].

فالشاعر أو الأديب المبدع ربما يخطر بباله ما يستعصى على التعبير بالألفاظ المعروفة والقوالب المألوفة، لأنه إذا عبر عنه بتلك الألفاظ وصاغه في تلك القوالب بات تجارب مألوفة وفقدت جدتها، فالظل لو تجسّم لم يبق ظلا . لهذا نرى انه يستخدم الفاظا لم يكثر دورانها على الألسنه ولم تألفها الاسماع، فيحفظ بذلك جدة فكرته وطرافتها، ويزيد في قوة تأثير التعبير منها .

لعل خير مثال لكلمة كان صوغها وبناؤها على الخلو من الحسن والقبول ولكن وقعت في موقع لا يسد مسدّها فيه غيرها، هو كلمة «ضيزى» في القرآن الكريم من قوله تعالى: «ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى»[٧٧] فهي لفظة غريبة من اغرب ما فيه وما حسنت في كلام قط إلاّ في موقعها منه .

فغرابة اللفظ في الآية أشدّ الأشياء ملاءمة لهذه القسمة التي انكرها الله تعالى على العرب[٧٨]. ولم يتنبه ابن الأثير لهذه النكتة في حواره مع رجل متفلسف حول سرّ فصاحة كلمة «ضيزى»، فيدور كل ما ذكره ـ واعتزّ به ـ على حظّها الموسيقي . فقال: ألا ترى ان السورة كلّها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء، فقال تعالى: «والنجم إذا هوى، ماضلّ صاحبكم وما غوى»، وكذلك الى آخر السورة، فلما ذكر الاصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال : «ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى» فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه، و

٧٦ـ البيان والتبيين ١/١٤٥ .

٧٧ـ النجم، ٢١، ٢٢ .

٧٨ـ فنون الأدب، ١٢ .

غيرها لايسدّ مسدها فى مكانها . . .»[٧٩].

ويمكن ان تعد من الكلمات التى بناؤها على الاستكراه والتنافر و معها ايحاء واشارة، لفظة «جحيش» فى قول تأبّط شرا :

يظلّ بموماةٍ ويُمسى بغيرها جحيشا، ويعرورى ظهورَ المهالك

فالظاهر ان مرادف جحيشاً اعنى فريداً او وحيداً لم يخف على تأبّط شرا وهو من هو، فاختيار هذه الكلمة واستعمالها لم يكن عبثا من جانبه، بل أرى انه اودع فيها رمزا و اشارة لايؤديها وحيد او فريد، فهو لايريد ان يكتفى بأن يقول انه يصرف نهاره فى مفازة لاماء فيها ويمسى فى غيرها منفردا، حتى يكون معناه انه يقاسى المتاعب فى النهار ويتخلص منها فى المساء، بل يعنى انه يتقلب فى الشدائد والمهالك من تحمل الحرّ والعطش فى النهار والوحدة الموحشة المستكرهة فى المساء . فعلى هذا ان كلمة «جحيش» أنسب الألفاظ ملأمة للتعبير عن هذه الوحدة الموحشة .

فلا اوافق ابن الأثير فى قوله هاهنا : «فانّ لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة، ويا لله العجب : أليس انها بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة لائقة، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختلّ شىء من وزنه، فتابط شراً ملوم من وجهين فى هذا الموضع . أحدهما انه استعمل القبيح، والآخر انه كانت له مندوحة عن استعمال فلم يعدل عنها»[٨٠].

فلايغرنك اننا نريد ان ننكر وقوع كلمات غير فصيحة فى كلام الشعراء والأدباء، كلاّ . إذ من البديهى ان التعبير عن التجارب المألوفة بالألفاظ الغربية والمتنافرة، كما نراه فى العصور التى يقل فيها النوابغ والافذاذ، لايعد فصاحة بل ضعفا و ركاكة .

٧٩ـ المثل السائر ١/١٥٦ـ١٥٧ .

٨٠ـ المثل السائر ١/١٦٣ .

بل كل ما نريد ان نقول هاهنا انه ربما تكون الكلمات والقوالب الغريبة اوالمتنافرة مثلا التى تستخدم فى كلام نوابغ الشعراء والأدباء ، جاءت قصدا وسعيا من وراءها لاغفلة ولاضرورة، وذلك لتضمنها ايحاءات واشارات لم يتضمنها غيرها، فأصبحت تلك الكلمات والقوالب حسنة وفصيحة كأحسن ما يكون .

هذا الذى ذكرناه من ابتداء مبحث اسرار الالفاظ الى هنا كان قُلاًّ من كُثر، ولكن ظهر منه ان حسن الألفاظ وقبولها وفصاحتها امر تشترك فيه عوامل كثيرة واسباب متعددة تستمد من النفس والطبع، والزمان والمكان، والمعنى واللفظ، وموسيقى الكلمات واصواتها، والاسلوب والتركيب، والملأمة بين اللفظ والمعنى وغيرها، فينبغى على من يدرس الفصاحة الالتفات إليها والعناية بها والوقوف عندها .

ولكن علماء هذا الفن لم يدرسوا تلك العوامل دراسة تشفى من الغليل، وتهدى السالك إلى سواء السبيل، وان كان الشيخ عبدالقاهر وابن الأثير قد أتيا فى هذا المجال بما يرجع اليهما فضله، واهتديا الى دقائق لم يسبقهما فيها احد .

وهذا ابن سنان الخفاجى الذى الف كتابا فى اسرار الفصاحة و رموزها و ذكر فى مقدمته ان الغرض من تأليفه معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرّها[٨١]، فعنى بدراسة الفصاحة وسعى وراءها، لكنه مع ذلك كلّه لم يحم حول كثير من عوامل الفصاحة كالنواحى النفسيّة مثلا، اولم يدرسها دراسة عميقة . فإذا رأيت فى كلامه التفاتاً إلى الدواعى النفسية فاعلم أنه لايتجاوز من نظرات عابرة واشارات سريعة، وذلك كقوله فى قبح التكرار: «واجاز لنا فى بعض الأيام شيخنا ابو العلاء بن سليمان قول الشاعر» :

٨١- سرّ الفصاحة، ٥ .

ألا طرقتنا بعد ماهجعوا هند وقدسرن خمسا واتلأب بنا نجد
الا حبذا هند وأرض بها هند وهندأتى من دونها النأي والعبد[٨٢]

وقال : من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا، ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة، فلم ير من الاعتذار للتكرير الا هذا العذر»[٨٣].

فهو وان كان اهتدى الى الملاءمة بين اللفظ والمعنى لكنه لم يدرس المسألة مستوفاة ولم ينظر إليها من الجهات المختلفة، بل اكتفى بانه ذكر فى جملة اوصاف الفصاحة كون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها عن شيء لطيف او خفي أوقليل اوما يجرى مجرى ذلك[٨٤]. ولايخفى ان الملاءمة بين اللفظ والمعنى لاتنحصر فى هذه الناحية، إذ لها صور اخرى كالملاءمة في التنافر والغرابة والسخافة والعدد والعدة، على ان هذه الملاءمة ليست فى صميم اللفظ من حيث انه لفظ، فهي الى الشكل اقرب منها الى اللفظ .

لقد سبق ان الخفاجي ذكر فى فصاحة اللفظة المفردة اوصافا ثمانية و اشرنا إليها باختصار . وهذه الأوصاف ترجع كلها إلى اللفظ، او فى اعتباره على الأقل، لأن الفصاحة عنده مقصورة على وصف الألفاظ، فيدل هذا على انه لم يهتم بعوامل الفصاحة غير لفظية .

وفيما ذكره نظر من وجوه: الأول ـ ان بعضا من هذه الاوصاف يغنى

٨٢ـ سر الفصاحة، ١١٥ .

٨٣ـ البيتان للحطيئة العبسى احد شعراء الهجائين والمداحين . والبيت الأول هو مطلع قصيدة يمدح بها بنى سعد .

و رواية الديوان طبع بيروت م ص٢٩، هكذا: ألاطرقتنا بعد ماهجدوا. وقد سرن خمسا : اى سرن خمسة ايام لايرون فيها ماء . واتلأب : ارتفع .

٨٤ـ سر الفصاحة، ٩٧ .

عن بعضه، و ذلك مثل كون تأليف الكلمة على صورة توجب في السمع حسنا ومزيّة على غيرها . قال ابن الأثير: الألفاظ داخلة في حيّز الأصوات فما استلذه السمع فهو حسن، وما استنكره وكرهه فهو قبيح . فلاحاجة إذاً الى ما ذكره علماء البيان من خصائص الفصاحة وشرائطها»[٨٥].

فهذا الوصف ان لم يغن عن بقية الأوصاف الثمانية فلاشك انه يغني عن بعضها، وفي رأسه المادة الاولى وهي : «ان يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج»[٨٦].

الثاني ـ انه لاحاجة الى اعتبار تباعد مخارج الحروف في الفصاحة، و ذلك لأن بناء اللغة على الاستعمال والدوران والحسن والخفة، فنرى ان الثلاثي من الألفاظ اكثر من الرّباعي والخماسي، والخماسي أقل منهما في الوجود ولايستعمل منه الاّ القليل النادر، وانه لم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، ولابين اللاّم والرّاء، ولا بين الزاء والسين . وهذا دليل على العناية ببعد المخارج .

على انه لو كان بعد المخارج في التلفظ معتبرا في الفصاحة، لما استطاع شاعر او أديب على قول بيت او عبارة إلاّ في مدة طويلة . وايضا حينما نُسأل عن حسن او قبح لفظة نجيب بسرعة، ولانقول للسائل اصبر حتى نرى هل الحروف متقاربة او متباعدة في المخرج .

ومما يدل على ضعف اعتبار تباعد المخارج عدم اطراده، فإن كلمة «جيش» مع قرب مخارج الحروف حسنة، و «ملع» مع تباعد حروفها في المخرج قبيحة[٨٧]. فلم يبق هاهنا إلاّ أن يكون الذوق السليم مرجعا، لاقرب

٨٥ـ المثل السائر، ١٤٩ .

٨٦ـ سرّ الفصاحة، ٦٦ .

٨٧ـ المثل السائر ١/١٥٢ـ١٥٤ .

مخارج الحروف او بعدها، ولا ترتيبها في الصعود والنزول[٨٨].

الثالث ـ انه اعتبر في الفصاحة ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية، و نسبه الى الجاحظ[٨٩]. وليس الأمر كذلك لأن الجاحظ نفسه لا يرى الكلمة الساقطة والسخيفه مخلة بالفصاحة مطلقاً، فهو ـ كما ذكرنا ـ قال : «وقد أصاب القوم في عامّة ما وصفوا، إلاّ أني أزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني . وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع، و ربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الالفاظ والشريف من المعاني»[٩٠] وهذا الكلام ينادي بأن وصف الكلمة بخلوها مطلقا من السخافة والابتذال، امر اعتبره القوم ولا يرتضيه الجاحظ .

وأيضاً الظاهر من كلام الخفاجي انه يعنى من الساقطة العامية، السخيفة والمبتذلة بين العامة[٩١]، مع أنها تنقسم الى أقسام ليس كلها عيبا في الكلام. لأن سبب الابتذال اما لان الكلمة سخيفة ضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة، مثل كلمة «لقالق» في قول المتنبي :

و ملمومةٌ سيفيّةٌ رَبعيّه يصيح الحصا فيها صياحَ اللقالق[٩٢]

٨٨ـ شرح مفتاح العلوم للتفتازاني، مخطوط .

٨٩ـ سرّ الفصاحة، ٧٨ .

٩٠ـ البيان والتبيين ١/١٤٥ .

٩١ـ سرّ الفصاحة، ٨٠، ٨١ .

٩٢ـ البيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر ايقاعه بالطغاة والمتمردين . ومطلعها :

تذكّرت ما بين «العُذيب» و «بارق»
مجرّ عَوالينا و مَجْرى السوابق

ملمومة : مجتمعة، صفة للكتيبة .

وكلمة «آجرّ» فى قول نابغة الذبيانى :

او دمية فى مرمرٍ مرفوعةٍ بُنيت بآجرٍ يشاد بقَرْمدِ

فهاتان اللفظتان معيبتان ومتبذلتان جدّا، فينبغى الاحتراز منهما الاّ أن تقعافى موضع يراد فيه المشاكلة بين اللفظ والمعنى .

فاذا اردت ان تعرف سر فصاحة القرآن انظر الى بيانه عند التعبير عن «الاجرّ» : «وقال فرعون : يا أيّها الملأُ ماعلمتُ لكم من إلهٍ غيرى، فأوْقِدْ لى ياهامانُ على الطين فاجعل لى صَرْحا»[٩٣] فترك كلمة «الآجرّ» وعبر عنها بالوقود .

واما لأن الكلمة قد استعملت عند العامة فى غير ما حقها أن تستعمل فيه . فهذا القسم، منه ما هو مكروه ذكره مثل كلمة «الصُرْم» فانه فى الاصل بمعنى القطع، ولكن استعملتها العامة فى معنى «السرم» ــ المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ــ ولهذا عيب على المتنبى قوله :

أذاق الغوانى حسنُه ما اذقنَنى وعفّ، فجازاهن عنى بالصُرم[٩٤]

ومنه ما هو غير مكروه ذكره، وذلك مثل كلمة «الظرف» المستعمل فى حسن الخلق والصورة واللباس مع انها تختص بالنطق . إذ يقال فى صفات خلق الانسان : الصباحة فى الوجه، الوضاءة فى البشرة، الجمال فى الأنف، الحلاوة فى العينين، الملاحة فى الفم، الظرف فى اللسان، الرشاقة فى القد اللباقة فى الشمائل وكمال الحسن فى الشعر .

فإذا استعملت كلمة «الظرف» فى غير المنطق والكلام لاتعد غير

٩٣ــ القصص، ٣٨ .

٩٤ــ البيت من قصيدة يمدح بها الحسين بن اسحق التنوخى. ومطلعها:

مَلامى النّوى فى ظلمها غاية الظلم لعلّ بها مثل الذى بى من السُقْم

و رواية الديوان بشرح البرقوقى: (وعفّ، فجازاهنّ عنى على الصُرم).

فصيحة، ولكن يعاب قائلها بجهله بمعرفة اصل وضع اللغة. فيعاب ابو نواس في قوله :

اختصم الجودُ والجمالْ فيك ، فصارا الى جدالْ
فقال هذا : يمينه لي ، للعُرْف والبذل والنوال
وقال هذاك : وجهه لي ، للظَرْف والحسن والكمال
فافترَقا فيك عن تراضٍ، كلاهما صادقُ المقال[٩٥]

لأنه وصف الوجه «بالظَرف» مع انه من صفات النطق[٩٦].

الرابع ـ انه ذكر في جملة اوصاف الفصاحة ان لا يكون الكلمة قد عبر بها عن امر آخر يُكره ذكره»[٩٧] ولا يخفى ان هذا انما يصح إذا لم توجد قرينة تدل على اختصاص الكلمة بالمعنى المقبول، اما إذا وجدت فلا يكون الاشتراك حينئذ مخلاً بالفصاحة . و ذلك كقوله تعالى : «فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه ، أولئك هم المفلحون»[٩٨].

فلفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والاكرام والضرب الذي هو دون الحد، وذلك نوع من الهوان ولكن القرينة ههنا خصصتها بالمعنى الحسن[٩٩].

الخامس انه اعتبر كثرة الحروف مطلقا من أسباب قبح الكلمة و

٩٥ـ هذه ابيات يمدح بها عبدالوهاب بن مايسان من اشراف الفرس . و رواية الديوان طبع بيروت :

وقال هذا : و وجهه لي للحسن والظَرْف والكمالْ

٩٦ـ المثل السائر، ١٨٠ـ١٨٤ .

٩٧ـ سرّ الفصاحة، ٩٢ .

٩٨ـ الأعراف، ١٥٧ .

٩٩ـ المثل السائر ١/١٨٥ .

خروجها مـن دائرة الفصاحـة، وليس الأمر هكذا لأننا نـرى ان لفظـة «سويداواتها» فى قول المتنبى :

إنَّ الكِرامَ بـلا كرامٍ منهُـم مثلُ القلوب بلاسُوَيْداواتِها

قبيحة، ولكنّ كلا من لفظتى «فسيكفيكهم الله»[١٠٠] و «ليستخلفنهم فى الأرض»[١٠١] حسن مع ان الأولى تسعة أحرف والثانية عشرة أحرف . فلو كانت كثرة الحروف مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك.

فالسبب فى قبح كلمة «سويداواتها» ليس الطـول وكثرة الحروف فقط، ألا ترى لو اسقط الهاء والألف ـ ها ـ منها لبقيت الكلمة أيضا على قبحها، فهى فى نفسها قبيحة مع ان مفردها حسنة[١٠٢].

السادس ـ ان أمر التصغير ليس شيئا خفيا يحتاج الى التنبيه، إذ يهتدى إليه الناظم والأديب من سياق الكلام وصياغته . وايضا ان بناء التصغير على استعماله فى الأمور اللطيفة أو الحقيرة، «فالوصية بـه إذاً ملغاة لاحاجـة إليها»[١٠٣].

فإذا كان هذا صاحب سر الفصاحة فـى تناول اوصاف الفصاحة فمـا ظنك بالآخرين ؟

١٠٠ـ البقرة، ١٣٧ .

١٠١ـ النور، ٥٥ .

١٠٢ـ المثل السائر ١/١٨٨ .

١٠٣ـ المثل السائر ١/١٥٥ .

الفصاحة بين اللفظ والمعنى

سبق ان الفصاحة يتجاذبها اللفظ والمعنى و وعدنا ان نرجع الى هذه المسئلة و ندرسها بشيء من التفصيل[١٠٤]، فنقول وبالله التوفيق :

اعلم انه لاخفاء ولاخلاف في ان الفصاحة دليل تفاضل الكلام، وعلامة تفوق البيان، و رمز من رموز اعجاز القرآن . ولما لم يكن مكان هذه الصفات في الكلام معلوما على سبيل التعين، كان مورد الفصاحة منه ايضا كذلك، فلهذا اختلف العلماء في رجوع الفصاحة الى اللفظ او المعنى او اليهما .

فهذا ابوهلال العسكري يرى ان الفصاحة مقصورة على اللفظ ، لأنها عبارة عن تمام آلة البيان، وآلة البيان وادواته ليست شيئا غير الألفاظ . ثم يعدّ من تمام آلة البيان كون الكلام سهل اللفظ، جيّد السبك غير مستكره ولامتكلف[١٠٥].

وقد حذا حذوه الخفاجي و رأى ان الفصاحة مقصورة على اللفظ و تدور عليه، وقال : والفرق بين الفصاحة والبلاغة ان الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لاتكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني[١٠٦].

ثم جاء ابن الأثير وعنى من الفصاحة حسن الالفاظ وكونها ظاهرة بينة

١٠٤- انظر هذا الكتاب، ٧ و١٧ .

١٠٥- الصناعتين، ٦-٧ .

١٠٦- سر الفصاحة، ٦٠ .

وكثيرة الدوران، وخصص اللفظ بصفة الفصاحة وجعل المعنى تبعا لـه[١٠٧]. فيستدل على صحة رأيه بان لفظة «المزْنة» و «الدّيمَة» حسنة يستلذها السمع، ولفظة «البُعاق» قبيحة تكرهها السمع، فلو كانت الفصاحة فى هذه الألفاظ لأمر يرجع الى المعنى لما كانت مختلفة فى الحسن والقبح لأنها سواء فى الدلالة على ذلك المعنى.

ولما ورد عليه ان من آيات القرآن مالا يفهم معناه الا باستنباط و تفسير وتلك الآيات فصيحة لامحالة، فكيف التوفيق بينها و بين الفصاحة بمعنى الظاهر البين ؟ أجاب بقوله :

قلت : «لأن الآيات التى تستنبط وتحتاج الى تفسير ليس شيء منها الا ومفردات الفاظه كلها ظاهرة واضحة، وانما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة الفاظه المفردة، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه، وهذا ليس قدحا فى فصاحة تلك الالفاظ، لأنها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة اى ظاهرة واضحة»[١٠٨].

فهؤلاء هم الذين تجاذب اللفظ عندهم الفصاحة، فأثقلوا كفته واحتفلوا به اكثر من المعنى.

وقسم السكاكى الفصاحة الى قسمين، قسم يرجع الى اللفظ وقسم الى المعنى[١٠٩]. فالفصاحة عنده يتجاذبها اللفظ كما يتجاذبها المعنى، وليست مقصورة على أحدهما.

واما الشيخ عبدالقاهر فهو يرى ان الفصاحة راجعة الى المعنى لا اللفظ

١٠٧ــ المثل السائر، ١/٦٥ــ٦٧.

١٠٨ــ المثل السائر ١/٦٧.

١٠٩ــ مفتاح العلوم، ١٩٦ــ١٩٧.

وحده، وان اللفظ فيها تبع للمعنى، لأن الالفاظ لاتتفاضل من حيث هي الفاظ مجرّدة ولا من حيث هي كلم مفردة، والتفاضل في الألفاظ المفردة من حيث هي الفاظ لايتجاوز من ان تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، او ان تكون حروف هذه اخف، وامتزاجها احسن، ومما يكدّ اللسان ابعد . وهذا شيء تافه وضئيل عند تفضيل كلام على آخر ولدى وصف بيان بالفصاحة والبراعة[١١٠].

وهذا الخلاف في أمر الفصاحة يرجع الى خلاف آخر معروف او يلتحق به، وهو معركة نظرية اللفظ والمعنى التي يشبو نارها علماء الأدب وارباب النقد . فمنهم من قام بتفضيل اللفظ على المعنى وجعله غايته و ُوكْدَه وقال : اللفظ اغلى من المعنى ثمنا، وأعظم قيمة واعز مطلبا . فان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق»[١١١].

والمعتبر عندهم في تفاضل الكلام، العمل على جودة الالفاظ، وحسن السبك وصحة التأليف . . فهؤلاء يجعلون في مقدمتهم الجاحظ ويحتجون بقوله المشهور : «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ و سهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[١١٢].

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ ولايبالي حيث وقع من هُجْنة اللفظ وقبحه وخشونته[١١٣] ، ولايحتفل بامر اللفظ إلاّ قليلا، ولايعطيه

١١٠ـ دلائل الاعجاز، ٣٨ .

١١١ـ العمدة، ١/١٢٤، ١٢٧ .

١١٢ـ الحيوان ٣/٤١، مطبعة الحميدية، مصر ١٣٢٣ .

١١٣ـ العمدة ١/١٢٦ .

من المزية إلاّ ما فضل عن المعنى، ويقول : ما في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلاّ بمعناه .

فالمعتبر عند انصار هذه النظرية اصابة المعنى والعمل على تضمين الكلام حكمة او ادبا اوتشبيها غريبا ومعنى نادرا[١١٤]. والباحثون يضعون الشيخ عبدالقاهر في مقدمة انصار المعنى اويعدونه من زمرتهم، ويجعلون جملا من كلامه على ذكر منهم . كقوله : «ان الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما اوصاف راجعة الى المعاني والى ما يدل عليه بالألفاظ، دون الألفاظ انفسها»[١١٥] و «ان الالفاظ لاتتفاضل من حيث هي الفاظ . . . الخ»[١١٦] «وليت شعري، هل كانت الالفاظ الاّ من اجل المعاني ؟ وهل هي الاّ خدم لها، ومصرفة على حكمها ؟»[١١٧] ويستدلون بها على أن الشيخ هو زعيمهم او داخل في حزبهم .

ثم هذا الصراع لم يقف لدى بعض الباحثين عند هذا الحدّ والاكتفاء بزعامة الجاحظ والشيخ، بل خطا خطوة اخرى وانتهى الى معركة عنصري العربية والفارسية، فهذا الدكتور شوقي ضيف يرى ان الاعاجم قدتشيعوا للمعنى، والعرب قداتجهوا الى اللفظ وعظموا شأنه واضفوا عليه هالات[١١٨].

ومن أمعن النظر في كلام الشيخ في دلائل الاعجاز، وتتبع آراءه في الفصاحة والبلاغة والاعجاز، رأى أنه لم يخالف الجاحظ ، كما راه انه لم يوافق انصار اللفظ ولا انصار المعنى .

١١٤– راجع دلائل الاعجاز، ١٩٤ .

١١٥– المصدر السابق، ٢٠٠ .

١١٦– المصدر السابق، ٣٨ .

١١٧– المصدر السابق، ٣٢٠ .

١١٨– في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف، ١٦١ بالنقل من مصطلحات بلاغية، ١٤، لانني لم احصل عليه .

اما انه لايؤيد انصار المعنى فلأنه يشدد النكير على من يقصر مزية الكلام وفضله على المعنى ولا يعبأ بأمر اللفظ، فيقول : «واعلم ان الداء الدّوىّ والذى اعيى امره فى هذا الباب غلط مَن قدّم الشعر بمعناه، و اقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية ـ ان هو اعطى ـ إلاّ ما فضل عن المعنى .

يقول : ما فى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلاّ بمعناه ؟

فانت تراه لايقدم شعراً حتى يكون قد اودع حكمة أو أدبا، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر»[١١٩]. فالشيخ كما تراه يشكو من هؤلاء الذين يحكمون بتقديم كلام على آخر بملاحظة اشتماله على حكمة أو أدب اونكتة، ولايحتفلون بشأن الألفاظ إلاّ فى القليل النادر، ويعدّ ذلك الحكم داء لايبرأ ومرضا لايشفى .

ثم حفزه الدافع الدينى الى ان يبالغ فى انكار مذهب انصار المعنى : ويقول : «. . . ان الخطأ فيه عظيم، وانه يفضى بصاحبه الى ان ينكر الاعجاز، ويبطل التحدى من حيث لايشعر . و ذلك انه ان كان العمل على ما يذهبون اليه : من ان لايجب فضل ومزية إلاّ من جانب المعنى، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا واستخرج معنى غريباً اوشبيهاً نادراً . فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس فى الفصاحة والبلاغة، وفى شأن النظم والتأليف، وبطل ان يجب بالنظم فضل وان تدخله المزية وان تتفاوت فيه المنازل .

وإذا بطل ذلك فقد بطل ان يكون فى الكلام معجز وصار الأمر الى ما يقوله اليهود، ومن قال بمثل مقالهم فى هذا الباب، و دخل فى مثل تلك الجهالات . و نعوذ بالله من العمى بعد الإبصار»[١٢٠].

١١٩ـ دلائل الاعجاز ١٩٤ .
١٢٠ـ المرجع السابق، ١٩٨ .

فإذا رأى الشيخ ان هذا المذهب ينتهى إلى إبطال التحدى ونفى الاعجاز فى الكلام حيث لا يشعر، وان غاية الأمر فيه تلتقى مع ما يقوله اليهود، فلم يبق شك انه لا يوافق انصار هذا المذهب ولا يؤيدهم .

اما عدم تأييده انصار اللفظ فلأنه يعتقد ان المزية المطلوبة عند تفاضل كلام على آخر ما كان مبنيا على الفكر والتأمل، حتى انه لا يكفى للكلام أو النظم فى اكتساب المزية ان يجرى على الصواب ويسلم من العيب إذا لم يصحبهما فكر ورؤية[١٢١]. ولما كانت الألفاظ من حيث هى الفاظ لا تكون مناط الفكر والتعمق إلاّ ان يراد تأليف النغم والجمال الظاهرى لها، وهما ظاهرتان لا تستحقان حظّاً وفيراً من الفصاحة والبلاغة والاعجاز، ظهر ان الفضيلة والمزية للكلام لا ترجعان إليهما، وان الفصاحة والبلاغة لا تنشدان عندهما .

قال الشيخ : «ان هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة . وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالرّوية فينبغى ان ينظر فى الفكر بماذا يلبس، أبالمعانى ام بالألفاظ ؟

فأى شىء وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعانى والألفاظ ، فهو الذى تحدث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك»[١٢٢].

وقال أيضا : «ثم انا نعلم ان المزية المطلوبة فى هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة، ومحال ان يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر ويستعان عليها بالرّوية، اللهم إلاّ ان تريد تأليف النغم . وليس ذلك مما نحن فيه بسبيل»[١٢٣].

١٢١ـ المرجع السابق، ٧٧ .
١٢٢ـ دلائل الاعجاز، ٤٢ .
١٢٣ـ المرجع السابق، ٣٠٢ .

ولقد صرح بأن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى الفاظ مجردة، ولا من حيث هى كلم مفردة، وانما يثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها او ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ[١٢٤].

فإذا لم تكن الألفاظ عند الشيخ مما يلبس به فكر و روية، ولم تقع موقعا تتعلق بها فضيلة رئيسية، ظهر انه لايوافق انصارها ولايؤيدهم .

اما انه لم يخالف الجاحظ، فلأنه حينما يشدّد الانكار على الذين يحتفلون بأمر المعنى فقط، يستمد من كلام الجاحظ ويستدل به فيقول : «وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك (الانكار على انصار المعنى) كل مبلغ ويتشدّد غاية التشدد . وقد انتهى فى ذلك الى ان جعل العلم بالمعانى مشتركا وسوى فيه بين الخاصة والعامة، فقال : ... والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والقروى والبدوى، وانما الشأن فى اقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، و كثرة الماء، وجودة السبك . وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[١٢٥].

فالشيخ كما رأيت ينكر على كلا الفريقين، ويذكر كلام الجاحظ تأييدا له، كانه يرى ايضا ان المعانى مطروحة فى الطريق وان الكلام صياغة وضرب من التصوير .

فهو يرى ان الفصاحة والبلاغة والبراعة فى الكلام شيء يرجع الى النظم والتأليف والصياغة، ويعنى منها تنظيم الفكر وتنسيق المعنى فى النفس وملاحظة الكيفيات والخصوصيات التى تتجلى فيما نسميه بالمعانى الأول، وهى ما يفهم من ظاهر اللفظ وتصل إليه بغير واسطة .

١٢٤ــ دلائل الاعجاز، ٣٨ .

١٢٥ــ المرجع السابق، ١٩٧ــ١٩٨ .

فإذا تم لك النظم والتأليف في المعاني اتبعتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها، وانك اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا في ترتيب الالفاظ، لأنها خدم للمعاني وتابعة لها، وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليه في النطق[١٢٦].

فترتيب الفكر كما يقتضيه العقل، وترسيم المعاني واضحة جلية، و تلاقيها مقبولة ومطبوعة هي ما يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله، ويعود مزية الكلام وفضيلته اليه . فهذه المعاني ليست مما يُطرح في الطريق ويعرفه العجمي والعربي، والقروي والبدوي .

ولقد أحسن «بندتّوكروتشيه» * من علماء الجمال الايطاليين حين قال: فليس صحيحا ما نسمعه ممن يزعمون ان لديهم افكارا كثيرة هامة ولكنهم لا يصلون الى التعبير عنها، ففي الحقيقة لو كانت لديهم هذه الافكار لصاغوها في كلمات جميلة عذبة في المسامع، فدلوا بذلك عليها . فاذا بدت الافكار مستعصية هزيلة حين يريدون التعبير عنها، فذلك لأنها واهنة هزيلة في وضوحها في أذهانهم .

وليست الأشياء والصور من الوضوح في ذهن العامة مثل ما هي من الوضوح في ذهن الفنان . وليس من الحق ان يقال : ان كلّ الناس يستطيعون ان يتخيّلوا الصور التي رسمها «رفائيل» اوالمعاني التي تحدث عنها «دانته» . فان الفنان يرسم بذهنه كما يصوّر الشاعر بفكره، و ادراكهما عميق شامل لا يتاح لكثير من الناس[١٢٧].

فالشيخ يعتقد ان المراد بقولهم : الالفاظ زينة للمعاني وحلية عليها، اوالمعاني كالجواري والألفاظ كالمعارض لها وكالوشي المحبّر، ليس هو

١٢٦ـ دلائل الاعجاز، ٤٤ .

١٢٧ـ النقد الأدبي الحديث، ٢٨٨ .

* Bendettocroce

اللفظ المنطوق ولكن معنى اللفظ الذى دللت به على المعنى الثانى . فمثلا فى «جبان الكلب» و «مهزول الفصيل» ان المعانى الاول المفهومة من انفس الألفاظ هى الوشى والمعارض وان المعانى الثانية التى تكنى عنها بالمعانى الأول هى التى كست تلك المعارض وتحلت بها[١٢٨].

لكن الشيخ يسمى المعانى الاول بـ «المعنى» والمعانى الثوانى بـ «معنى المعنى» فيقصد من «المعنى» المفهوم من ظاهر اللفظ وما يوصل إليه بغير واسطة، ومن «معنى المعنى» ما يفهم من معنى اللفظ ويحصل عليه بسببه[١٢٩].

فمثلا ان «المعنى» فى قوله تعالى : «وكانا يأكلان الطعام»[١٣٠] ما يفهم من منطوق الآية، وهو ان المسيح عليه السلام وامّه يتناولان الطعام . و «معنى المعنى» ما يتوصل اليه من مفهوم منطوق الآية، اعنى مايتبع الاغتذاء بالطعام . «فمعنى المعنى» هو الغرض الذى يؤدى بعينه بصور مختلفة، وامّا «المعنى» فهو الصورة التى تجعل معرضا وحلية لمعنى المعنى ويخرج فيها . و «المعنى» لايؤدى بعينه فى عبارات متفاوتة على الوجه الذى يكون عليه فى التعبير الأول، حتى تعقل ما عقلته هناك، و حتى يكون الحال فى النفس حال الصور المتشابهة فى العين كالأساور والأشناف، وهذا فى غاية الإحالة[١٣١].

ويرى الشيخ ان منشأ أوهام الناس فى حديث اللفظ وظنّهم ان له من حيث هو لفظ حسنا ومزية ونبلا وشرفا، هو انهم رأوا النقاد والعلماء يفردون اللفظ عن المعنى ويجعلون له حسنا على حدة، و رأوهم قد قسموا

١٢٨ـ دلائل الاعجاز، ٢٠٤ .

١٢٩ـ دلائل الاعجاز، ٢٠٣ .

١٣٠ـ مائدة، ٧٥ .

١٣١ـ دلائل، ٢٠١-٢٠٢ .

الشعر فقالوا : ان منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه . فلم يفصلوا بين المعنى الذى هو الغرض وبين الصورة التى يُخرج فيها، فنسبوا ما كان من الحسن والمزية فى صورة المعنى الى اللفظ[١٣٢].

وأحيانا ينسب بعض المحاسن والكيفيّات المخصوصة التى توجب تغيير النظم كالتقديم والتأخير والتأكيد وغيرها الى اللفظ مع انها راجعة الى المعنى، و ذلك لأنها خصائص و زيادات ليست من اصل المعنى فلم يطلقوا اسم المعانى عليها تمييزاً لاصل المعنى مما هو زائد عليه. «فتوصلوا الى الدلالة عليها بأن وصفوا اللفظ فى ذلك بأوصاف يعلم أنها لاتكون أوصافا له من حيث لفظ . كنحو وصفهم له بأنه لفظ شريف، وانه قد زان المعنى، وأن له ديباجةً وان عليه طلاوة، وان المعنى منه فى مثل الوشى، وانه عليه كالحلى، الى اشباه ذلك مما يعلم ضرورة انه لايعنى بمثله الصوت والحرف»[١٣٣].

فاذا عرفت ذلك فأعلم :

١ـ انه حيثما يدل كلام الشيخ على ان الفصاحة والبلاغة والبراعة و ما شاكل ذلك، من صفات الألفاظ أو المعانى فهو يريد بهما المعانى الأول و ما ترتبه النفس ويجعل له الذهن رسما وتنسيقا، ثم يتبعه اللفظ فى ذلك الترتيب . وحيث ينفى ان تكون من صفاتهما، او ينكر على الذين يحتفلون بامر المعنى ويلتقى مع الجاحظ فى ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، يريد بالالفاظ الالفاظ المنطوقة و بالمعانى الاغراضْ والمعانى الثوانى[١٣٤].

١٣٢ـ دلائل الاعجاز، ٢٠١ـ٢٠٢ .
١٣٣ـ المصدر نفسه، ٢٠٥ .
١٣٤ـ راجع المطول، ٢٨ .

٢ـ ليس كلام الشيخ فى الألفاظ المفردة ومعانيها ولكن فى النظم والتأليف، لأنهما محور الفضيلة والمزية فى الكلام ومرجع الاعجاز لا الألفاظ ومعانيها. والا" يلزم ان يحدث فى مذاقة حروف اللغة وأصدائها، وفى معنى «الحمد» و «الربّ» و «العالمين» و «الملك» مثلا اوصاف و مزايا لم تكن موجودة قبل نزول القرآن و ذلك محال[١٣٥].

٣ـ ان الشيخ لا يأبى ان تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل النطق داخلا فى الفصاحة وان تكون لها اثر فى الاعجاز، ولكنه ينكر ان تكون عمدة واصلا فى تفاضل الكلام وامر الاعجاز[١٣٦].

لعل «تشارلتن»* قد الهم من كلام الشيخ فى هذا المقام حيث يقول: «نعم ان لبعض الألفاظ فى المسامع نغما اشجى من بعضها الاخر، وبعض الألفاظ أسلس في يد الشاعر من بعضها، واكثر اتساقا وانسياقا فى الكلام الموزون. لكن هذه العوامل كلها متصلة بجمال الألفاظ الظاهرى الخارجى وهو جمالٌ تافه ضئيل إذا قيس بالجمال الباطنى الحقيقى، جمال المعنى والشعور الذى توحى به اللفظة عند كاتبها وسامعها.

جمال اللفظ ان يؤدى ما أريد له ان يؤديه أداء كاملا مليئاً بالقوة والحياة»[١٣٧].

معنى البلاغة

البلاغة لغة :

قد عرفت فيما سبق معنى «الفصاحة» لغة واصطلاحاً، واما البلاغة

١٣٥ـ دلائل الاعجاز، ٢٩٥ـ٢٩٦، ٢٠٢، ٣٢٤، ٣٠١، ٢٩٥ .

١٣٦ـ المصدر نفسه، ٤٧، ٤٠١ .

١٣٧ـ فنون الأدب، ١٧ .

* H. B. Charltin

فان اصلها فى وضع اللغة الوصول والانتهاء. جاء فى اللسان : بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى . . . وبلغت المكان بلوغا : وصلت إليــه ، و كذلك إذا شارفت عليه . ومنه قوله تعالى : فإذا بلغن أجلهن : أى قاربنه.

البلاغة اصطلاحاً :

لقدورد من أمراء البيان وفرسان مضمار الأدب، ومن الأقوام والشعوب المختلفة، أقوال كثيرة وعبارات متعددة فى تحديد البلاغة وبيان المراد بها.

قال على (عليه السلام) : البلاغة الإفصاح عن حكمة مستغلقة وإبانــة علم مشكل .

وقال الحسن بن على ــ رضى الله عنهما ــ البلاغة ايضاح الملتبسات، و كشف عورات الجهالات بأحسن ما يمكن من العبارات .

قيل للخليل بن أحمد : ما البلاغة ؟ فقال : ما قرب طرفاه، وبعد منتهاه. وقيل لبعض البلغاء :من البليغ ؟ قال: الذى إذا قال أسرع، وإذا أسرع أبدع وإذا أبدع حرّك كلّ نفس بما أودع[١٣٨].

سئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة . فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها مايكون فى الاحتجاج ومنها ما يكــون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل .

فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى[١٣٩].

١٣٨ــ نهاية الأدب، ٧/٦ــ٨، راجع الصناعتين، ٤٩ــ٥٠ .

١٣٩ــ البيان والتبيــين ١/١١٥ــ١١٦، وفــى الصناعتين، ص١٤ والاشارة الى المعنى ابلغ، والايجاز هو البلاغة .

قال العتابى : كل من أفهمك حاجته من غير اعـادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ[١٤٠].

وسأل المأمون الحسن بن سهل عن البلاغة فقال : ما فهمته العامـة و رضيته الخاصة .

وقال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير، يشتمل على معنى خطير[١٤١].

وسئل حكيم عن البليغ، فقال: من إذا أخذ شبراً كفاه وإن أخذ طوماراً أملاه . وقيل فى تفسير البلاغة : الايجاز من غير عجز، والاطناب من غير خطل[١٤٢].

و ذكر الجاحظ انه قال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه و دوناه ـ: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك[١٤٣].

فسّر الشيخ فى دلائل الاعجاز هذا القول بانه ليس المراد مـن اللفظ اللفظ المنطوق به لأن القارىء أو السامع إما عالم بوضع اللفظ للمعنـى أو جاهل، فإذا كان عالما بمعانى الألفاظ لا يكون هناك تفاوت فى فهم المعنى كما إذا كان جاهلاً بها لا يحصل أى نوع من العلم على السواء . بل المراد به هو المعنى الأول الذى يجعل دليلا على المعنى الثانى، فمن شرط البلاغة أن يكون ذلك المعنى متمكنا فى دلالته و واضحا فيهـا ولا يحتاج الـى كلفة و تأوّل[١٤٤].

١٤٠ـ المصدر نفسه ١/١١٣ .

١٤١ـ الصناعتين، ٣٧ .

١٤٢ـ محاضرات الأدباء ١/٥٨ .

١٤٣ـ البيان والتبيين ١/١١٥ .

١٤٤ـ دلائل الاعجاز، ٢٠٦ـ٢٠٧ .

وقال ابوحيان : سألت أبا سليمان عن البلاغة : ما هى ؟ ... فقال : هى الصدق فى المعانى مع ائتلاف الأسماء والافعال والحروف، وإصابة اللغة وتحرى الملاحة المشاكلة برفض الإستكراه ومجانبة التعسف[١٤٥].

قيل للفارسى : ماالبلاغة ؟ قال : معرفة الفصل والوصل .

وقيل لليونانى : ماالبلاغة ؟ فقال : تصحيح الاقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومى : ماالبلاغة ؟ فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة .

وقيل للهندى : ماالبلاغة : فقال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة[١٤٦].

وقال بزرجمهر ان فضائل الكلام خمس ان نقصت منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها، وهى: ان يكون الكلام صدقا، وان يوقع موقع الانتفاع به، وان يتكلم به فى حينه، وان يحسن تأليفه، وان يستعمل منه مقدار الحاجة[١٤٧].

وقال العربى : البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وايجاز فى صواب، وقصد الى الحجة، وحسن الاستعارة[١٤٨].

فهذه الأقوال وان كان بعضها اشمل من بعض، لكن اكثرها يرتكز على ناحية من النواحى التى تعنى بها البلاغة . اما على ناحية الافصاح والابانة، أو ناحية الابداع والتأثير، أو ناحية طول الكلام وقصره، أو ناحية

١٤٥ــ المقابسات، ٢٩٣ .

١٤٦ــ الموازنة ١/٤٠٤ .

١٤٧ــ البيان والتبيين ١/٨٨ .

١٤٨ــ الصناعتين، ٤٧ .

الاتصال والانفصال، أو ناحية تصحيح الاقسام ... ، أوغيرها . ولا يخفى ما فى بعض هذه الاقوال من ملامح الشخصيّة الفردية أوالقومية، فمثلا نرى اليونانى الذى ترعرع فى أحضان المنطق والفلسفة، يفسر البلاغة بتصحيح الاقسام واختيار الكلام .

فاذا تركنا امراء البيان وفرسان الأدب نرى علماء الفن فسروها بما يلى:

قال الآمدى (٣٧٠ هـ) : البلاغة انما هى اصابة المعنى وادراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة، سليمة من التكلف، لا تبلغ الهذَر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية ...

فإن اتفق مع هذا ـ معنى لطيف، أو حكمة غريبة، أو أدب حسن فذاك زائد فى بهاء الكلام، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه[149].

وقال أبوهلال العسكرى (٣٩٥ هـ) : البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[150].

فكأن «لاسِل آبركَرمْبى» * حينما يشترط على الأديب فى ايصال تجاربه، ان يبعث فى نفس القارىء صورة ماثلة لما فى نفسه، وان يحرّك بواسطة الألفاظ خيال قرائه ويسيطر عليه بحيث تصبح تجاربهم بقدر الامكان تقليدا صحيحا لتجاربه[151]، يريد ان يقول ان الأدب لا ينفك عن البلاغة بالمعنى الذى يعنيه العسكرى منها .

وأمّا البلاغة عند الشيخ عبدالقاهر (٤٧٤ هـ) فهى ترادف الفصاحة و

١٤٩ـ الموازنة ١/ ٤٠٠ـ٤٠١ .

١٥٠ـ الصناعتين ١٠ .

١٥١ـ قواعد النقد الأدبى، ٣٤ .

* Lascelles Abercrombte

يعنى منها ما يعنى من الفصاحة . قال فى ردّ من ادعى انه لامعنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظى، وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى فى النطق حروف تثقل على اللسان : «إنا ان قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك، و جعلناه المراد بها لزمنا ان نخرج الفصاحة من حيّز البلاغة ومن ان تكون نظيرة لها»[١٥٢].

فهو لا يذكر للفصاحة والبلاغة تعريفاً فنيّاً ولكن يستنبط من كلامه ما هو المراد بهما .

لقد انتقى الدكتور احمد بدوى والدكتور احمد مطلوب قول الشيخ فى الفصاحة والبلاغة : «مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا، واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد، وراموا ان يعلموهم ما فى نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»[١٥٣] ونقلاه[١٥٤] حجة على تحديد الفصاحة والبلاغة عنده . ولا يخفى ان كلّ ما يدلّ عليه هذه العبارة هو ان الفضيلة والمزية فى الكلام ترجعان الى الفصاحة والبلاغة وأما ما هو كنههما فلا يعلم من هذا القول .

ولكن وجدت فى دلائل الاعجاز كلاما اوضح وأبين فى تحديد الفصاحة والبلاغة مما نقله هذان الأستاذان، و ذلك قوله : «وإذا عادت المعارضة الى جهة المعنى، وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخير اللفظ، حصل من ذلك أن الفصاحة والبلاغة وتخير اللفظ عبارة عن خصائص و وجوه تكون معانى الكلام عليها، وعن زيادات تحدث فى

١٥٢ـ دلائل الاعجاز، ٤٧ .

١٥٣ـ المصدر نفسه، ٣٥ .

١٥٤ـ علم البيان، ٩ . مصطلحات بلاغية، ٤٦ .

أصول المعانى . كالذى أريتك فيما بين «زيد كالأسد» و «كأن زيداً الأسد» وان لا نصيب للألفاظ من حيث هى الفاظ فيها بوجه من الوجوه»[١٥٥].

فالبلاغة عند الشيخ العناية بتلك الخصائص والوجوه والزيادات و توفيتها حقها، وهى التى ترجع اليها مزية الكلام وتأثيره فى المعنى . ففى الحقيقة ليست البلاغة عنده غير مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وأحياناً يشير الشيخ الى ما ذكره غيره فى حدود البلاغة : من وضوح الدلالة، وصواب الاشارة، وتصحيح الاقسام، وحسن الترتيب والنظام، والابداع فى طريقة التشبيه والتمثيل، والاجمال ثم التفصيل و وضع الفصل، والوصل موضعهما، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[١٥٦].

وقال السكاكى (٦٢٦هـ) : «البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[١٥٧].

و ذكر ابن الأثير (٦٣٧ هـ) أشياء ثلثة واعتبرها الاصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر . وهى :

١ـ اختيار الألفاظ المفردة كما تتخير اللآلىء المتفرقة قبل النظم .

٢ـ نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها كما يقترن كل لؤلؤة فى العقد باختها المشاكلة لها، لئلا يجىء الكلام قَلِقاً نافراً عن مواضعه .

٣ـ وضع الكلام فى موضع يستحقه، كما يوضع العقد المنظوم على الرأس إذا كان اكليلا، وفى العنق إذا كان قلادة .

ثم قال : «فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد

١٥٥ـ دلائل الاعجاز، ٢٠٠ .

١٥٦ـ المصدر نفسه، ٤٧ .

١٥٧ـ مفتاح العلوم، ١٩٦ .

بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة»[١٥٨]. فالبلاغة عند ابن اثير شاملة للالفاظ والمعانى وجامعة لاوصافهما .

وقال النويرى (٧٣٢ هـ) : «فاما البلاغة فهى ان يبلغ الرّجل بعبارته كنه ما فى نفسه . ولا يسمى البليغ بليغا إلاّ إذا جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل، وهو المسمى إيجازاً»[١٥٩].

فالمفهوم من صدر هذا الكلام هو أن البلاغة تعبير الأديب عن كنه ما فى نفسه، أعم من أن يكون موجزاً أم لا . ولكن عَجزه يدل على شىء آخر، وهو أن البلاغة عبارة عن جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل الذى يسمى فى الاصطلاح الإيجاز . والبلاغة على التفسير الأول شىء فى متناول الأديب نفسه، لأنه وحده يمكنه ان يدعى انه استطاع التعبير عن كنه ما فى نفسه لا غيره، إذ لا يعلم كنه ما فى نفس الأديب إلاّ شخصه .

ولما استقرت البلاغة كواحد من العلوم على يد السكاكى، واتضحت معالمها جاء القزوينى (٧٣٩ هـ) وقسم البلاغة إلى قسمين : بلاغة الكلام و بلاغة المتكلم .

وقال عن الأول : «وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» وعن الثانى : «وفى المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ»[١٦٠]. و يعنى من الحال الأمر الذى يتطلب من المتكلم ان يأتى بكلامه على كيفية مخصوصة، ومن المقتضى تلك الكيفيّة . فمثلا ان الانكار حال تقتضى تأييد الحكم وتأكيده، والتأكيد هو مقتضاها . فلا أظن أنّ الأستاذ امين-

---

١٥٨- المثل السائر، ١٤٢/١ .

١٥٩- نهاية الارب، ٧/٤ .

١٦٠- الايضاح مع شروح التلخيص ١٢٢/١، ١٤٢ .

الخولى اصاب الحق حيث فسّر المقتضى والاعتبار المناسب بانكار السامع وموافقته مثلا[١٦١].

ولما كانت بلاغة الكلام عبارة عن مطابقته لمقتضى الحال، فالمتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض، فيجب عليه ان يراعى حاله ويفرض له ما يناسب طبعه، ويتكلم معه على قدر يلائم عقله، لأن لكل مقال مقاماً، ولكل كلام موضعاً.

فمن وضع الألفاظ موضعها ان لا يعبر فى مقام المدح بالألفاظ المستعملة للذم، ولا فى مقام الذم بالالفاظ المعروفة للمدح، ولا فى مقام الجدّ بما هو يناسب الهزل. وان لا يستعمل فى الشعر والنثر الأدبى الفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التى تختص بها أهل المهن والعلوم[١٦٢].

قيل لبشّار: بينما تقول شعراً تُثير به النَقْع وتخلع به القلوب، مثل قولك:

إذا ما غَضِبنا غضبة مُضَرّية   هتكنا حجابَ الشمس او تُمطر الدما
إذا ما أعَرْنا سيّداً من قبيلة   ذُرى منبرٍ صلّى علينا وسلّما

تأتى بالشىء الهجين المتفاوت وتقول:

رُبابَة ربّةُ البيتِ   تصبّ الخل فى الزّيت
لها عشر دجاجات   و ديكٌ حسَن الصوت

فقال: لكلٍ وجهٌ وموضع، فالقول الأول جدّ، والثانى قلته فى ربابة جاريتى، وأنا لا آكل البيض من السوق، و ربابة هذه لها عشر دجاجات

١٦١– مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ٤/١٣٨–١٣٩.
١٦٢– سر الفصاحة، ١٨٩، ١٥٩.

و ديك فهى تجمع لى البيض وتحفظه عندها، فهذا القول عندها أحسن من قول امرىء القيس :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

عندك[١٦٣].

قال بشر بن المعتمر : «والمعنى ليس يشرف بان يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة» .

وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال»[١٦٤].

فإصابة المعنى و وقوعه فى موضعه من البلاغة، وخلافها قبيح يخلّ بها، ولهذا عيب على ابى نواس قوله فى صفة الأسد :

كأنما عينُه إذا نظَرتْ   بارزةَ الجفن ، عينُ مخنوق

لأنه وصف عين الأسد بالجحوظ وهى توصف بالغؤور . قال الراجز : «كأنما ينظر من خرق حجر» .

وعلى ابى تمام قوله :

رقيقُ حواشي الحلم لو أن حلمه   بكفيك ، ما ماريتَ فى انه بُرْدُ

لأنه لايوصف الحلم بالرّقة بل بالرزانة والرجحان[١٦٥].

إعلم إنك إذا تأملت ما قيل فى تحديد البلاغة وتفسيرها رأيت ان قول ابن المقفع أجمع وأشمل من غيره، حتى ممّا ذكره القزوينى الذى لوحظ فيه ناحية الفن والعلم بوضوح . لأننا إذا وقفنا عند تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال والمسائل التى انتهت اليها أبحاثهم فى علمى المعانى

١٦٣ــ الأغانى ١٥٦/٣ .

١٦٤ــ البيان والتبيين ١٣٦/١ .

١٦٥ــ الصناعتين ١١٨ــ١١٩ .

والبيان، وجدنا أنهم يعنون من الكلام ما يرادف الجملة التى هى جزء من اجزاء البيان وعنصر من عناصر التعبير . كأن المطابقة تنحصر فيها، والبلاغة تختص بها، فدرسوا الجملة وعناصرها خبرا وانشاء، فصلا و وصلا، تعريفا وتنكيرا، ذكرا وحذفا فى علم المعانى، والتشبيه والمجاز والكناية والتعريض فى علم البيان .

فهذه الدراسة التى لاتتجاوز الجملة والصورة قاصرة فى مجال البلاغة، لانها لاتنحصر فيهما، إذ البيان أو التعبير ليس كله الجملة والصورة . فهناك غيرهما الحرف والكلمة والعبارة والفنون الأدبية شعراً أو نثراً، كالخطابة والرسالة والوصف والجدل وغيرها، والأسلوب. فالمطابقة لمقتضى الحال كما تعتبر فى الجملة تعتبر فيها جميعا، فلا تتم البلاغة والبراعة فى بيان إلا إذا لوحظت تلك المطابقة فى جميع عناصره وأجزائه . لقد سبق أن الكلمة تحمل معها اضافة على معناها اللغوى إيحاءات كثيرة، فإذا صدرت من البليغ والعارف بمواضعها واستعملت على هدى من العقل والبراعة وقعت فى موقع لايسد مسدها غيرها، حتى انها تكون أبلغ كلمة وأحسن لفظة بذلك المقام .

قال ابن رشد : «وإنما صارت الألفاظ والاصوات تفعل فى هاتين الصناعتين ـ الخطابة والشعر ـ هذا الفعل من أجل أنها تخيّل فى المعنى رفعة أو خسّة، وبالجملة أمراً زائداً على مفهوم اللفظ، مثل غرابة اللفظ فانّها تخيل غرابة المعنى، وكذلك فخامته تخيّل فخامة المعنى. والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى»[١٦٦].

فلا أوافق مايقال من ان المطابقة لمقتضى الحال لاتتأتى فى الكلمة ،

١٦٦ـ تلخيص الخطابة ٢٥٣ .

وأن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة[١٦٧]، الا ترى ان لفظة «ضيزى» فى قوله تعالى : «ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذاً قسمة ضيزى» أبلغ كلمة من حيث مطابقتها لحال المخاطبين الذين يدعون على الله شيئاً نكراً وغريباً.

أمّا البلاغة عند ابن المقفع فهى أبسط آفاقا وأوسع اجواء، لشمولها موارد متعددة من التعبير، واعتبارها فى عناصر كثيرة من البيان، حتى انها تحطم قوالب اللفظ وتلتقى مع قوالب أخرى كالسكوت والاستماع والاشارة، فربما تجد فيها معنىً وغرضا لاتجدها فى الكلام والألفاظ . لما مات الاسكندر وقف عليه بعض اليونانيين فقال : قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه، وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ، وقال ابو العتاهية :

وكانَتْ فى حياتك لى عظاتٌ   و أنت اليومَ أوعظُ حيّا

وأحسن وأبلغ من هذا الكلام كله قوله تعالى[١٦٨]: «وإنْ من شىءٍ إلاّ يُسبِحُ بحمده، ولكن لاتفقهونَ تسبيحَهم»[١٦٩].

فلابن المقفع الفضل فى هذا المجال، وله السبق فى هذا المضمار .

ولبلغاء الغرب فى البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب فى اجمال المعنى وبعد الاشارة . قال لاهارب[١٧٠]: «البلاغة هى التعبير الصحيح عن عاطفة حق» .

١٦٧ــ المثل السائر، ٧٠ .

١٦٨ــ بنى اسرائيل، ٤٤ .

١٦٩ــ الصناعتين، ١٥ .

١٧٠ــ لاهارب Lahrpe ناقد فرنسى اشتهر بدروسه الأدبية التى القاها فى الليسية وجمعها فى مجلدين بعنوان (ليسية) ولد سنة ١٧٢٩ و توفى سنة ١٨٠٣ .

وقال سورين[١٧١]: «هى الفكرة الصائبة، ثم الكلمة المناسبة» .

وقال لابروبير[١٧٢]: «هى نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس» .

وتخيّلها[١٧٣] سنيك إلهاً مجهولاً فى صدر الإنسان .

ويستخلص مما قيل فى تحديد البلاغة وتفسيرها ان البلاغة ملكة يؤثر بها صاحبها فى عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام، أو غيرهما كما اشار إليه ابن المقفع .

فالتأثير فى العقول عمل الموهبة المعلّمة المفسرة، والتأثير فى القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة وترجع الى هاتين الموهبتين عملية الإقناع و تحريك النفوس وبعث الهمم وتنشيط الطباع[١٧٤]. وليس كل كاتب أو أديب يملك هاتين الموهبتين، الموهبة نور يقذفه الله فى قلب من يشاء . قال جورج ديهاميل : «وأنا استطيع ان أعدد الكتاب الذين يملكون أن يجعلونى أشعر بالجوع . فلقد يتحدث بعضهم عن كلّ أنواع الطعام والولائم، ولقد يصفون الصيد واللحوم و ...ولكنهم لا يملكون إلاّ فى النادر موهبة تحريك أعصاب معدتى واثارة غددها، وعلى العكس من ذلك ديكنز Dickens فهو مدهش فى هذه المسألة ... لست أدرى ماذا يعمل لكى يسيل لعابى فهو ليس بحاجة الى أىّ احتيال . انه يملك الموهبة»[١٧٥].

١٧١ــ سورين Sourin شاعر درامى ولدومات فى باريس سنة ١٧٨١ .

١٧٢ــ لابروبير Jean de, la Bruyere كاتب اخلاقى فرنسى ولد فى باريس سنة ١٦٤٥ وتوفى بفرساى سنة ١٦٩٦ .

١٧٣ــ سنيك Senekue احد علماء البيان فى رومة و والد سنيك ــ الفيلسوف، ولد فى قرطبة سنة ٦١ قبل الميلاد وتوفى سنة ٣٠ بعده .

١٧٤ــ دفاع عن البلاغة، ٣٣ــ٣٤ .

١٧٥ــ دفاع عن الأدب ١٨٢ .

وهذه الموهبة ترتكز على ركنين قويين لا ثالث لهما، الاول : الطبع الموهوب الذى يشمل ملكات النفس الأربع، وهى الذهن الثاقب، والخيال الخصب، العاطفة القوية، والأذن الموسيقية . ويلزم وجود هذه الملكات فى البليغ، ولا حيلة فى ايجادها لغير الخالق .

الثانى : العلم المكتسب وادمان قراءة روائع عباقرة الفن والبيان و مطالعة نتائج قرائحهم واذواقهم، وتقليب آثارهم الرفيعة وآدابهم البليغة . فآلة البلاغة فى الحقيقة الطبع الموهوب والعلم المكتسب[١٧٦]، فلا الطبع يغنى من العلم ولا العلم يغنى من الطبع .

والحاصل ان البلاغة هى التأثير فى العقول والقلوب، وايقاظ الشعور والاحساس، واخراج الطبع من السأم والفتور، والبلوغ الى قرارة النفوس، والاستيلاء على مقاومة هوى السامع و رأيه، ونقله عن حالته وامتلاك قلبه، او ان شئت فقل : البلاغة ما يحمل معه هذه الصفات . روى أن بشارا كان شاهدا حينما انشد ابو العتاهية هذه الأبيات فى مدح المهدى :

أتَتْه الخلافةُ منقادةً ... إليه تُجرِّرُ أذيالَها
فلم تك تصلحُ إلا له ... ولم يَكُ يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره ... لزُلزِلت الأرضُ زِلزالَها
ولو لم تطِعه نياتُ القلوب ... لما قَبِلَ اللهُ اعمالها

فلما سمعها قال : انظروا الى امير المؤمنين هل طار عن اعواده[١٧٧]؟

فالبلاغة تعنى بالقلوب كما تعنى بالعقول، وتغذّى الشعور والإرادة

١٧٦ـ دفاع عن البلاغة ٤٤ .

١٧٧ـ المثل السائر ١/١٧٧ .

كما تغذي الفكر، وتخاطب خالي الذهن كما تخاطب المسبوق بالإصرار أو الميل او العزم، وتتوجّه الى فاتر الطبع غير ناشط لحديث وغير مرتاح الى رأي، كما تتوجه الى من لاينكر كون الأمر حقا ولكن يستثقله، ولايشك في فضيلته ولكن يسترذ له، ولايتردد في كونه عدلا ولكن يخيّل إليه انه يعارض نفعه ويصادم هواه . فهي في كل من هذه المجالات تلبس ثوبا يناسبها، وتتلون بلون يلائمها، وتتأتى على شكل يرافقها . إذ الحالات النفسية التي تعرض للمخاطب أوالسامع مختلفة، والمقاومة في هواه و رأيه أيضا متفاوتة فأحيانا تكون فاعلة كالمخالفة والإنكار، واعتساف الحكم، وخطل الرأي الثابت باستمرار العادة، وفساد الوهم القائم على قوة القرينة . وحينئذ يلزم ان تتعاون قوى العقل على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان .

وقد تكون المقاومة منفعلة كالجهل اوالشك او خلو الذهن ، ففي هذه الصورة لايحتاج المتكلم في قهرها الى الوسائل البلاغية القوية .

وقد تكون المقاومة ضعيفة او معدومة من جهة العقل، وقوية من جهة النفس، فجهد البلاغة هنا يجب ان يوجّه الى ناحية النفس بالتأثير، لاالعقل بالإقناع والاثبات .

وإذا كان السامع اوالمخاطب سائما غير مرتاح، يجب على صاحب البلاغة ان يوشي الحقيقة بخياله، ويحيي الاسلوب بروحه حتى يدفع عنه السأم ويحرّك فيه النشاط . وفي هذه الحال يظهر فضل البلاغة على الفلسفة.

والأحوال المعروضة أوالمفروضة للمخاطب اوالسامع ما هي إلاّ انفعالات العواطف في النفس، أو اتجاهات الخواطر في الذهن، وليست

مقتضياتها إلاّ الصور التى يهتدى إليها البليغ بطبعه و ذوقه فيؤثر فى تلك العواطف والخواطر كيفما يشاء[١٧٨].

فالصور التى يهتدى إليها البليغ، وصياغة الكلام على حسب مايقتضيه المقام، وتنسيق الافكار وترتيبها فى قالب يليق بحال المخاطب اوالسامع، شيء يحتاج الى مراعاة أمور عدّة، وملاحظة أسباب مختلفة من مثل حالات النفس، والفنون الأدبية، والجملة، والصورة، وقواعد النحو وغيرها. فالنظم البليغ والكلام البارع، ماكان مبنيّا على مراعاة هذه الامور، ومتكئا على العناية بهذه الاسباب. فليس الكلام البليغ مولود مراعاة النحو فقط، و لافضله ونقصه مقصوران عليه، إذ لكل من تلك الاسباب دخل فى فضل التأليف اوالنظم.

ولكن الشيخ يعتقد انالنظم نتيجة ملاحظة قواعد علم النحو وان المزية راجعة الى رعاية هذه القواعد. فقال: «واعلم ان ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه و اصوله ... فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ... الاّ وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه و وضع فى حقه، أوعومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له»[١٧٩].

نعم إن كثيرا من نواحى النظم كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والتكرار، والإضمار والاظهار، والفصل والوصل، و وجوه الخبر والشرط والجزاء والحال، وتمييز الأدوات بعضها من بعض

١٧٨– دفاع عن البلاغة ٣٥–٣٧.

١٧٩– دلائل الاعجاز، ٦٤–٦٥.

يرجع الى النحو، ولكن هناك نواحى أخرى كتوشية الحقائق بالخيال، والنبض بالقوة والحيوة، والملاءمة بين اللفظ والموضوع، وموسيقى الكلمات وتموجات الاصوات . فهذه النواحى لاتتصل بالنحو كما ان الصواب او الخطأ فيها لايرجع إليه، وإنّها يتولاها الموهبة والطبع والذوق .

ويمكن أن يقال إن عبدالقاهر لايفهم من «النحو» علم الإعراب بل يريد منه العلم بالوصف الموجب للاعراب، ولهذا يتحول «النحو» عنده علما بلاغيّا يستحق الإهتمام والمجد عندطلب المزايا فى النظم . وايضا انه لايريد «ان يبدد كل جمال فى سبيل هذا «النظم» المبنى على مقتضيات علم النحو، كالجمال اللغوى، والجمال المعنوى، والجمال التصويرى المبنى على الاستعارة والتشبيه، انما يريد منك مع اقراره بهذا الجمال الرّاجع الى عدة نواح فى البلاغة، ان تراعى معه النظم وان تجعل الفضل له فى النهاية، لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية»[١٨٠].

موضوع البلاغة :

إذا راجعت كتب القدماء فى البلاغة رأيت ان مباحثهم تدور حول الجملة والصورة الادبية، حتى انهم لما انتهوا إلى ان البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال لم يخطوا خطوة الى الامام . فحاموا حول ما حام عليه أسلافهم، و درسوا الجملة وما يعرض لها فى علم المعانى، والصورة و ما يتنوع منها فى علم البيان، كأن موضوع البلاغة ينحصر فيهما، ومباحثها لاتتجاوز عنهما .

١٨٠– بلاغة ارسطو، ٣٦١–٣٦٢ .

ولقد عرفت عند رأى ابن المقفع فى البلاغة ان آفاقها واسعة، وان مسائلها تتناول قوالب مختلفة من التعبير والبيان، وتجرى فى طبيعة الجنس الأدبى كما تجرى فى أجزائها. فموضوع البلاغة لا يختص بالجملة والصورة، لأنهما جزء من أجزاء الجنس الأدبى، الذى لا يكتمل الحكم عليه ــ كما قال ارسطو ــ إلاّ بالنظر إلى طبيعة الجنس الأدبى والموقف عامة[181]. فإذا ندرس فى عملنا هذا، ثلاثة أشياء :

١ــ الجملة .

٢ــ الصورة .

٣ــ الأسلوب .

ونخص كلا منها بباب يخصه . فلا ندعى هنا اننا نأتى بما هو كامل، لأن الكمال ليس إلاّ لله وحده، بل نقول: ان ما لا يُدرك كله لا يُترك كله.

فائدة علم البلاغة :

لهذا العلم فوائد جليلة، منها معرفة دقائق العربية والحصول على أسرارها . ومنها كشف القناع عن وجوه نكت كثيرة فى اعجاز القرآن . و منها تمييز الجيد من الردىء والصواب من الخطأ، من البيان . ومنها تذوق روائع الأدب وتعرّف مدى نجاح الأديب وتوفيقه . ومنها الإهتداء إلى مخاطبة الاشخاص بما يليق بحالهم . ومنها التعبير عن المراد بحيث يبلغ قرارة نفس السامع والمخاطب .

قال الأستاذ أحمد الشائب : «ان علم البلاغة نافع للأديب والناقد

١٨١ــ النقد الأدبى الحديث، ٢٥٢ .

والمؤرخ، ولكل كاتب أو متكلم أو خطيب أو مدرس . فانه ينير السبيل امام هؤلاء جميعا ويعينهم على ان تكون آثارهم اللغوية مفيدة مؤثرة، ممتعة تغذي العقول والشعور والأذواق»[١٨٢].

١٨٢ـ الاسلوب، ١٧ .

الباب الاول في الجملة

الفصل الأوّل : منزلة الجملة من الدلالة والبيان

إعلم إن الإنسان لا يعلم حاجة أخيه، ولا يهتدي الى ضمير صاحبه، ولا يعرف ما في قلبه، ولا يدرك حبه وبغضه، علمه وجهله، صدقه وكذبه، قبوله وانكاره، إلا من طريق الامارات والبيان. فالمعاني القائمة في صدور الناس، والمفاهيم المتصورة في اذهانهم، والمطالب الموجودة في نفوسهم، والأفكار المتعلقة بخواطرهم، تبقى مستورة خفية، بعيدة مجهولة، ومحجوبة مكنونة لا تُعرف ولا تُدرك. وانما تكشف القناع عن وجوه تلك المعاني القرائن والدلالات، وانما يحيى تلك المفاهيم ذكرهم لها واخبارهم عنها[1].

لم تُعرَف سرائر القلوب، ولم يتم التفاهم بين الناس ولم يتعارفوا، ولم يبلغوا ذروة العلوم والمعارف ولم يتمكّنوا تبادل الافكار والتجارب إلاّ من طريق الدلالة والبيان. فكلما كانت الدلالة أوضح كانت المعاني اظهر، والبلوغ الى قرارة النفوس أيسر.

الدلالة والبيان :

الدلالة هي كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر،

١ـ البيان والتبيين ١/٥ .

والشيءالأول يسمى الدّال أوالدليل، والثاني المدلول .

تنقسم الدلالة عندالجاحظ الى خمسة أقسام :

الأول ــ دلالةاللفظ، وهي ما تعتمد على مقطــع مــن الصوت، و تَستخدم للإبانة عن المفاهيم اللفظ َ الذي يمتاز به الإنسان من غيره .

الثاني ــ دلالةالاشارة ، فتكون باليد والرأس والعيــن والحاجب والمنكب، كما تكون بالسيف والثوب إذا تباعدالشخصان .

و رافع السيف والسوط قد يتهدّد بهما، فيكون رفعهما زاجــرا و مانعا كما يكون وعيدا وتحذيرا .

ويجدالشخص في الإشارة بالطرف والحاجب وغيرذلك من الجوارح، معونة كبيرة في أمور يسترها على بعض الناس اويُخفيها من جلسائه .

قال الشاعر في دلالةالإشارة :

اشارَتْ بطرف العين خيفةَ أهلها ... إشارةَ مــذعُورٍ ولــم تتكلّم
فأيقنتُ انّ الطرف قد قال مرحبا ... واهــلا وسهلاً بــالحبيب المتيّم

وقال الآخر :

العينُ تبدي الذي في نفس صاحبها ... مــن المحبـّة او بغضٍ إذا كانــا
والعينُ تنطق والأفــواهُ صامتة ... حتّى ترى مِنْ ضمير القلب تِبيانا

الثالث ــ دلالةالخط، فكفاك في فضيلته قوله تعالى: «إقرأ و ربّك الاكرَمُ الذي علّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يعلم»[٢]. وقوله عزّ مــن قائل : «ن، والقلم وما يسطرون»[٣].

ومما يدل على الاهتمام بشأن الخط ما قالوا في وصف القلم :

١ــ القلم أحداللسانين .

٢ــ العلق، ٤، ٥، ٦ .

٢ــ القلم أبقى اثراً واللسان اكثر هذَرا .

٣ــ اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن مثله للقائم الرّاهن .

الرابع ــ دلالة العقد، وهو الحساب دون اللفظ والخط . والدليل على فضيلته قوله عزوجّل: «الرّحمن، علّم القرآن، خلق الانسان، علّمه البيان، الشمس والقمر بحسبان»[٤]، وقوله تعالى : «هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق»[٥] .

والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عزوجّل معنى الحساب فى الآخرة.

الخامس ــ دلالة النِصبة ، والمراد بها الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد . و ذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض، وفى كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، و زائد وناقص . فالدلالة فى الموات الجامد كالدلالة فى الحيوان الناطق، ولذلك قيل : «سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا» .

وقال خطيب بجانب الاسكندر وهو ميت : «الاسكندر كان امس انطقَ منه اليوم، وهو اليوم اوعظَ منه امس»[٦].

وامّا البيان ــ فهو ما يُدَلّ به على المعنى، ويعبر به عن المراد، و

٣ــ القلم، ١ .

٤ــ الرحمن، ١ــ٥ .

٥ــ يونس، ٦ .

٦ــ البيان والتبيين ١/٧٦ــ٨٤ .

يتوسل إليه فى معرفةالحقائق . فبـاى ّ شىء يتمكن الانسان علـى فهم المقاصد وافهامها ، فهو البيان كائنا ماكان نوعه وجنسه . «لأن مدار الامر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، انما هو الفهم والإفهام»[٧].

فإذا كان البيان هو ما يُدل ّ به على المعنى، فهو يتفق مـع الدليل و يصدق على ما يصدق عليه الدليل،فتجرى فيه الأقسام التى تجرى فى الدلالة كائنا ما كان عددها . فنرى ان ّ البيان عند الرّمانى اربعة اقسام : كلام، و حال، وإشارة، وعلامة[٨]. كأن اقسام الدلالة عنده لاتتجاوز هذه الأربعة .

والذى يهتم به البليغ من أصناف الدلالات وأقسام البيان، ويعتمـد عليه الأديب فى فنونه، ويرتكز عليه الخطيب فى ترغيبه وترهيبه، هو مـا يرجع الى اللفظ ويمُت ّ إليه . إذ به يكمل البيان وينتهى الى حد الاعجاز ، وفيه يصح الإتيان بالسحر الحلال .

فمِن° آحاد البيان اللفظى ومايرجع الى دلالة الالفاظ «الجملة» او ان شئت فقل : الجملة هى من صميم البيان اللفظى والعمدة فيـه، لأن البيـان كما يكون بالجملة يكون باسم اوصفة، لكن دلالتهمـا متناهيـة بخلاف دلالة الجملة المعتمدة على التأليف فليس لها نهاية .

الجملة وعناصرها :

الجملة، هى عبارة تشتمل على نسبة تامة بين طرفين يسميان مسندا و مسنداً إليه . كقوله (ص) : خيرُ الناس أنفعُهم للناس . وقولـه ايضـا : لايقضين ّ احدُكم وهو غضبان. «فخير الناس» فى المثال الاول و «احدكم»

٧- المصدر نفسه ١/٧٦ .

٨- النكت فى إعجاز القرآن، ١٠٦ .

في الثاني مسند اليه، و «انفعهم» في الأول و «لا يقضين» في الثاني مسند .
وتتكوّن الجملة من عناصر ثلاثة :
١ـ الإسناد[٩]، وهو النسبة التامة بين الطرفين .
٢ـ المسند إليه، ويسمى المنسوب إليه .
٣ـ المسند، فيسمى المنسوب ايضا .

موارد المسند إليه :

يأتي المسند إليه على الصور التالية :
١ـ صورة الفاعل، مثل قوله تعالى : «وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى»[١٠]. وقوله ايضا : «أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم»[١١] ؟
وقال جرير :

فهيهات هيهات العقيق ومن به   وهيهات خلّ بالعقيق نواصله

٢ـ صورة نائب الفاعل، كقول النبي (ص) : «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . ونحو ما مخلّد بالدّنيا ديّار .
٣ـ صورة المبتدأ[١٢]، كقوله تعالى : «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها»[١٣].

٩ـ فالإسناد كما يجري في الخبر يجري في الانشاء ، فاذا انتهى الى الحكم بثبوت شئ لشئ اونفيه عنه، سمي الكلام المشتمل عليه خبرا وفي غير ذلك انشاء ، فالخبر يلازم الحكم والايقاع اوالنفي والانتزاع، واما الانشاء فهو خال منها. فالخبر تصديق والانشاء تصور.(راجع المطول، مبحث الاسناد الخبري، وآخر مبحث الانشاء ، وعروس الافراح في الاسناد الخبري) .

١٠ـ القصص، ٢٠ .

١١ـ مريم، ١٩ .

١٢ـ فالمبتدأ اعم من ان يكون مبتدأ في الاصل والحال، او مبتدأ ←

وقوله ايضا : «إنالله خبير بما تعملون»[١٤].

مواردالمسند :

يقع المسند علىالصورالآتية :

١ــ صورةالخبر، اعم من ان يكون خبراً فيالاصل والحال، للمبتدأ او لغيره، كقوله عزوجّل : «جزاؤهم عند ربّهم جنات عدن»[١٥] . و قوله ايضا : «كنتم قوما بورا»[١٦]. او خبراً فيالاصل فقط، كقوله تعالــى : «و لاتحسبنّ الذين قتلوا فى سبيلالله أمواتا بل أحياء عندربّهم يرزقون»[١٧].

٢ــ صورةالرافع للفاعل او نائبه، وهذا الرّافع قد يكون فعــلا ، كقوله تعالى : «وينصركالله نصراً عزيزاً»[١٨] و قولــه : «قتلالإنسان مــا اكفره»[١٩].

وقد يكون صفة مبتدأة كما مرّ فى : «أراغب» و «ما مخلّد» وقد يكون مصدرا ومفعولا مطلقا، نحو سعياً وراءالخير . كما قد يكون اسم الفعل، نحو : هيهاتالحرّ ان يدوم علىالذّل .

وتعرض للجملة باعتبار كلّ من تلكالعناصر احــوال واعتبارات ،

→
فىالاصل فقط .

١٣ــ الشورى، ٣٩ .

١٤ــ مائدة ، ٧ .

١٥ــ البينه، ٨ .

١٦ــ الفتح، ١٢ .

١٧ــ آلعمران، ١٦٩ .

١٨ــ الفتح، ٣ .

١٩ــ عبس، ١٧ .

فيلزم على صاحب البلاغة الاهتمام بشأنها، والاعتناء بامرها، وتطبيق الكلام على مقتضاها .

واما باعتبار الجملة كلها، لاسيما إذا انتظمت مع اخرى، فتعرض لها مناسبات اخرى تستحق الالتفات إليها والعناية بها أيضا[٢٠]

الفصل الثانى : الجملة الخبرية

تنقسم الجملة من حيث انه يقصد بها حكاية شيء فى الخارج ام لا ، الى قسمين : خبريّة وانشائية .

فالخبرية، ما كان لنسبته خارج قصدت حكايته، كقولك : اثارت الرّيح الغبار . فاثارة الرّيح للغبار اوعدمها شيء موجود فى الخارج، سواء تلفظت بذلك الكلام أم لا . فإذا اخبرت به فلاتريد انشاء مدلوله فى الخارج، بل تقصد منها حكاية ذلك الواقع، وافادة المخاطب ما جرى فى نفس الأمر .

فائدة الخبر :

يلقى الخبر فى الأصل لافادة المخاطب اوالسامع شيئا لم يعلمه من قبل، فهذه الفائدة ان كانت راجعة الى منطوق الجملة وصلبها تسمى «فائدة الخبر» كما اذا اخبرت شخصا بخبر لم يكن عالما به، كأن تقول له : غزوة البدر وقعت فى اليوم السابع عشر من شهر رمضان .

٢٠- راجع مفتاح العلوم، ٨٠ .

وان كانت الفائدة راجعة الـى وراء منطوق الجملة ومتنهـا، تسمى «لازم فائدة الخبر» كأن اخبرت شخصا بخبر كان معلوما له، وقصدت به افادة المخاطب انك عالم بذلك الخبر ايضا .

وقد تخرج الجملة الخبرية عن اصلها فلايقصد بها الإخبار والاعلام، فترد لأغراض اخرى سوى افادة الحكم او لازمـه، تعرف بالذوق من السياق والقرائن . منها :

١ـ اظهار التحسر، كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمـران : «ربّ إنّي وضعتها أنثى»[٢١]. فانها كانت ترجو ان تلد ذكرا، ولكن خاب رجاؤها وتقديرها .

٢ـ اظهار الضعف والخشوع، كقوله عزوجّل حكاية عـن زكريـا عليه السلام : «ربّ، إنّي وهن العظْمُ مِنى»[٢٢].

٣ـ التذكير بتفاوت المراتب، كقوله تعالـى : «لايستوى القاعدون من المؤمنين»[٢٣] فهذه الآية تذكرة بتفاوت عظيم بين مرتبة القاعد والمجاهد، حتى يتأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته[٢٤].

٤ـ الاستعطاف والاسترحام، كقول الشاعر :

الهـى عبدك العاصـى أتـاكـا مقـراً بـالذنوب وقـد دعاكـا

٥ـ اظهار الفرح بمقبل والشماتة بمدبر، كقوله تعالى : «جـاء الحق و زهق الباطل»[٢٥].

٢١ـ آل عمران، ٣٦ .

٢٢ـ مريم، ٤ .

٢٣ـ النساء، ٩٥ .

٢٤ـ المطول، ٤٣ .

٢٥ـ بنى اسرائيل، ٨١ .

٦ـ التحذير، نحو «أبغض الحلال الى الله الطلاق» .

٧ـ التوبيخ، كقولك للعاثر : «الشمس طالعة»[٢٦].

فالجمل الخبرية في الأمثلة المذكورة مستعملة في معناها، لكن لا للاعلام والاخبار الذي هو الاصل فيها، بل لأغراض أخرى غيره . فالظاهر إن هذا الاستعمال لا يعد من الحقيقة، بل من الكناية او المجاز المرسل[٢٧] : لأنه جاء على خلاف الاصل الذي قرّره عرف البلغاء .

تقسيم الجملة الخبرية باعتبار حال المخاطب :

تنقسم الجملة الخبرية التي يقصد بها الاعلام والاخبار، من حيث موقف المخاطب أمام الغرض منها إلى أربعة اقسام .

١ـ ابتدائية، وهي ما كان المخاطب خالي الذهن من الحكم والتردد فيه، ففي هذه الحالة لا يحتاج الكلام الى التأكيد . كقول النبي (ص) : القناعة مال لا ينفدُ .

فالخبر إذا واجه الذهن الخالي والقلب الفارغ فكثيرا ما يتمكن فيهما ويتلقى بالقبول . فما أحسن قول الشاعر :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

٢ـ طلبية، وهي ما كان المخاطب متردداً في الحكم وطالباً له ، فيشتاق الى معرفته والوقوف عليه . فيحسن في هذه الصورة تقوية الكلام بمؤكد من أدوات التأكيد، مثل إنّ وغيرها . نحو : «إنّ غنى نفسك

٢٦ـ راجع جواهر البلاغة، ٥٥ .

٢٧ـ راجع چلبي على المطول، ٣٥ .

في اليأس»[٢٨].

قال الشيخ في دلائل الاعجاز : «فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه البتة، ولايكون قد عقد في نفسه ان الذي تزعم انه كائن غير كائن ، وان الذي تزعم انه لم يكن، كائن، فانت لاتحتاج هناك إلى «إنّ» وانما تحتاج إليها إذا كان له ظن في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما تثبت، او اثبات ما تنفي . ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بامر يبعد مثله في الظن، وبشيء قد جرت عادة الناس بخلافه»[٢٩].

٣ـ انكارية، وهي ما يقصد المخاطب خلافه وينكر الحكم الذي تضمنه الخبر ويقاومه بالرّد . فيجب تقوية الكلام بالتأكيد، ويتفاوت التأكيد قلة وكثرة بحسب الانكار شدّة وضعفا .

فكلما ازداد في الانكار زيد في التأكيد، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى (عليه الصلاة والسلام) لما كذبوا في المرّة الأولى: «إنّا إليكم مرسلون»[٣٠] مؤكدا «بإن» والجملة الاسمية . وفي المرّة الثانية : «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[٣١] مؤكدا بالقسم وان، واللاّم، والجملة الاسمية، لمبالغة المخاطبين في الانكار[٣٢].

٢٨ـ هذا مصراع من قول ابي نواس :

عليك باليأس من الناس إنّ غنى نفسك في اليأس

٢٩ـ دلائل الاعجاز، ٢٥٠ .

٣٠ـ ياسين، ١٤ .

٣١ـ ياسين، ١٦ .

٣٢ـ التلخيص مع المطول، ٤٧ـ٤٨ .

والأصل في التقسيم الى هذه الاقسام جواب ابى العباس[٣٣] للكندى[٣٤] المتفلسف لما ركب اليه وقال له : انى أجد فى كلام العرب حشوا حيث يقولون عبدالله قائم، وإن عبدالله قائم، وان عبدالله لقائم . فالمعنى فيها واحد والعبارات متكررة . فقال ابو العباس: بل المعنى ايضا متكرر، لان الأول اخبار، والثانى جواب سؤال سائل، والثالث جواب عن انكار منكر[٣٥].

٤ـ تنشيطية ، وهى ماكان المخاطب عارفا بمضمون الخبر، ولكن يستثقله، وعالما بغرضه وافادته ولكن اكتنفه الفتور والسآمة فلايجد فى نفسه ميلا و رغبة الى مضمون الخبر وتسليما له . فيجب على صاحب البلاغة فى هذه الصورة توشية حقيقة الخبر بالخيال والاستمداد من الصور البيانية، وبعث الحياة والقوة فيه، والاهتمام بما يؤثر فى النفس اكثر من العقل . كأن تقول لمن يعرف منزلة الصلاة فى التشريع الاسلامى ولكن يستثقلها : «الصلاة معراج المؤمن» .

فهذا القسم مما لم نجده فى الكتب البلاغية، ولكن أضفناه من عندنا متكئاً على الذوق والاستنباط .

اعلم أن تطبيق الكلام على تلك الأحوال التى اكتنفت المخاطب فى الحقيقه ونفس الامر، يسمى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر، «وانّه فى علم البيان يسمى بالتصريح»[٣٦].

٣٣ـ هو اما ثعلب اوالمبرد، وكانا معاصرين .

٣٤ـ هو يعقوب بن اسحاق الكندى المترجم من نسل الأشعث بن قيس رضى الله عنه . وكان عظيم المنزلة عند المأمون وابنه احمد، وله نحو مائتى تأليف ما بين كتاب و رسالة فى جميع العلوم .

٣٥ـ راجع دلائل الاعجاز و ذيله، ٢٤٢ .

٣٦ـ مفتاح العلوم، ٨٢ .

وقد يلقى الكلام الى مخاطب لم تلاحظ حاله فى الواقع، بل طبق الكلام على احوال إدعائية له، فيسمى ذلك التطبيق الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر، «وانه فى علم البيان يسمى بالكناية»[٣٧].

واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يأتى على وجوه :

١ـ تنزيل العالم بالخبر منزلة الجاهل، اوالسائل، اوالمنكر، وايراد الكلام مجردا عن التأكيد اومؤكدا، استحسانا أو وجوبا . كأن تقول لمن تعرف وجوب الصلاة ولكن لايجرى على علمه : الصلاةُ واجبةٌ، او إن الصلاة واجبة، أو إن الصّلاة لواجبة .

٢ـ تنزيل خالى الذهن منزلة السائل المتردد، وتأكيد الحكم بمؤكد استحسانا كقوله تعالى : «وما ابرّىء نفسى إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء»[٣٨] وقوله ايضا : «وصلِّ عليهم إنّ صلاتَكَ سَكنٌ لهم»[٣٩] او تنزيله منزلة المنكر إذا لاح عليه شىء من امارات الانكار، وتاكيد الحكم بمؤكد او مؤكدات وجوبا . و ذلك مثل قول حجَل بن نَضْلَةَ القيسى :

جاء شقيقٌ عارضاً رمحه إنّ بنى عمك فيهم رِماحُ

فشقيق لاينكر وجود الرّمح فى بنى عمه، الاّ ان مجيئه واضعا رمحه على العرض مما يُوهِم انه ينكر وجود السلاح فيهم .

٣ـ تنزيل المتردّد منزلة خالى الذهن، اوالمنكر، وايراد الكلام مجردا من التأكيد اومؤكَداً وجوبا . كقولك للسائل عن الوحدة الاسلامية

٣٧ـ المصدر نفسه، ٨٣ . راجع لتوجيه هذه الكناية «المطول مع حاشية السيد، ٥٢ .

٣٨ـ يوسف، ٥٣ .

٣٩ـ التوبة، ١٠٣ .

المنشودة : الوحدة الاسلامية قريبة، او إن الوحدة لقريبة .

٤ــ تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن، اوالمتردد، وايراد الكلام مجرّداً من التأكيد او مؤكدا استحسانا، إذا كان امام المنكر شواهد و دلائل إنْ تأملها ارتدع عن انكاره . كقولك لمنكر الاسلام : «الاسلام حق» من غير تأكيد، تنبيها على ان الحكم واضح لا يستحق الانكار، وانه يوجد أمام المخاطب قرائن و دلائل كثيرة على صحة الحكم، فيكفيه أدنى تأمل ودقة[٤٠].

تقسيم الجملة باعتبار الدوام والحدوث :

تنقسم الجملة من حيث إفادة الدّوام والحدوث الى قسمين : اسميّة وفعليّة .

فالاسميّة، هي تركيب المتبدأ والخبر، نحو : آفةُ العلمِ النسيان . فهذا النوع من الجملة يُفيد الثبوت بأصل الوضع، والدّوام بحسب القرائن والمقام .

والفعليّة، هي تركيب الفعل مع فاعله او مع نائبه، نحو : يعيشُ البخيلُ عيشةَ الفقراء، ويُحاسَبُ في الآخرة حسابَ الأغنياء[٤١].

فهي تفيد التجدّد والحدوث على أخصر وجه، لتضمنها الفعل الدّال على الزّمان بصيغته، فلا تحتاج الى اضافة قيد مثل كلمة امس، اوالآن، او غدا .

ليس فنّ من فنون الأدب، اوصنف من صنوف البيان يختص بالجملة

٤٠ــ راجع المطول مع حاشية السيّد، ٤٩ــ٥٠ .

٤١ــ مقتبس من كلام علي (عليه السلام) .

الاسمية اوالفعلية . بل انهما تتعاقبان وتتواردان فى انواع البيان واقسام الأدب، غير ان الاسمية اكثر ملائمة للمدح والذم، ولوصف الأشياء الجامدة والحقائق الثابتة، كما ان الفعلية تناسب حكاية المعارك و وصف الحروب والقتال، وبيان المغامرات والبطولات .

فالجملة الفعلية تمتلىء بالقوة والحيوية، وتزخر بالحركة والجدة، فتدعو الى التغير والتطور، كما تنادى بالحدوث والتحوّل .

الفصل الثالث

فى الجملة الإنشائية ، وفيه مباحث

المبحث الأوّل ـ فى تعريف الانشائية وتقسيمها :

الإنشائية ، ما لم يكن لنسبته خارج قُصِدت حكايته، نحو : كونوا أحرارا فى دنياكم . فانك لا تريد بهذا الكلام حكاية ما وقع فى الخارج وماحدث فى نفس الامر، بل المراد إحداث مدلوله، وهو طلب التعامل والتعايش بالحرّية .

فان قُصِدت بالكلام حكاية ما فى الواقع والخارج، اعنى طلب التعايش بالحرّية القائم بالنفس، صار الكلام خبرا مجازا . ومعناه حينئذ : انا طالب تعاملكم بالحرّية فى الدنيا[٤٢].

٤٢ـ راجع حاشية الدسوقى على المختصر ١٦٦/١ و ٢٣٥/٢ .

تقسيم الجملة الإنشائية :

تنقسم الجملة الإنشائية إلى قسمين : طلبية وغير طلبية . فالثانى ما كان خاليا من الاستدعاء والطلب، و ذلك مثل جملة القسم، وجملة ربّ (انشاء التقليل) وجملة كم الخبرية (انشاء التكثير) وجملة افعال المقاربة الرجائية، وجملة افعال المدح والذم، وجملة صيغ التعجب، وجملة صيغ العقود .

فهذه الجمل لا تستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ولا تتطلب شيئا غير موجود عند التلفظ بها . فهى دائما خالية من الاستدعاء والطلب و ما يرجع اليها .

ولما كانت المباحث البيانية المتعلقه بها قليلة، وايضا ان اكثرها اخبار نقلت الى الإنشاء ، لم يهتم بها البلاغيون ولم يدرسوها[٤٣].

والاول ــ وهو الطلبية ــ ما استدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، أعم من ان يكون غير حاصل اصلا اوغير حاصل فى اعتقاد المتكلم، ضرورة امتناع تحصيل الحاصل . فاذا وردت الجملة الطلبية و كان المطلوب بها حاصلا، أخرج ذلك الطلب على خلاف مقتضى الظاهر .

والمعروف ان الطلبية تتنوّع الى خمسة انواع: الاستفهام، والامر، والنهى، والنداء والتمنى[٤٤]. لأن المطلوب اما ممكن الحصول اولا، والثانى التمنى .

٤٣ــ المطول، ٢٢٤ .

٤٤ــ أما العرض والتخضيض، فهما مولّدان من الاستفهام و راجعان اليه .

والاول ، ان استدعى حصوله في ذهن الطالب، فهو الاستفهام . وان استدعى حصوله في الخارج، فان كان انتفاء فعل، فهو النهى . وان كان ثبوته، فان كان باحدى حروف النداء فهو النداء، والا فهو الامر[٤٥].

لم يتفق القوم على هذه الانواع، فمنهم من زاد قسما آخر وهو الترجى، ومنهم من ترك «التمنى» بناء على ان العاقل لا يطلب ما يعلم استحالته، و «النداء» بناء على ان طلب الاقبال خارج عن مفهوم النداء الذى هو صوت يهتف به الانسان وان كان يلزمه[٤٦].

المبحث الثاني ـ الاستفهام :

الاستفهام، هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن بادوات مخصوصة، اعنى : أ، هل، ما، من، اىّ، كم، كيف، أين، انى، متى وايّان .

وطلب حصول صورة الشيء يعم التصور والتصديق، لان المطلوب بتلك الادوات ان كان صورة وقوع نسبة بين امرين اولا وقوعها فهو تصديق، وان كان صورة الموضوع او المحمول او النسبة فهو تصور .

انقسام أدوات الاستفهام :

تنقسم ادوات الاستفهام باعتبار المطلوب بها الى ثلاثة أقسام :

١ـ ما يطلب به التصور والتصديق، وهو الهمزة .

٢ـ ما يطلب به التصديق فقط، وهو «هل» .

٣ـ ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية أدوات السؤال .

٤٥ـ المطول، ٢٢٤ـ٢٢٧ .

٤٦ـ چلبى على المطول، ١٧٩ وحاشية الدسوقى ٢/٢٣٨ .

« أ »

تختص الهمزة بين ادوات الاستفهام باستعمالها لطلب التصور والتصديق. فهي تارة تستعمل لطلب التصديق بوقوع نسبة تامة بين الشيئين، اذا كان اصل الحكم مجهولا عند المتكلم . كقولك في الجملة الإسمية : أشعبنا سعيد ؟ وفي الجملة الفعلية : أفاز شعبنا ؟

فالمطلوب بالهمزة في هذين المثالين حصول انقياد الذهن واذعانه بوقوع سعادة الشعب وفوزه، اولا وقوعهما .

وتارة تستعمل لطلب التصور وادراك غير النسبة ، كقولك في طلب المسند اليه على وجه التعيين . أعلي خطب اليوم ام سعيد ؟ اذا كنت عالما بوقوع النسبة والقاء خطابة في جانب شخص ما، ولكنك جهلت المسند اليه على وجه التعيين . وفي طلب تصور المسند على وجه التعيين : اعلى في الصف ام في المكتب ؟ اذا كنت عالما بوقوع النسبة وحصول علي في واحد من المحلين لا على التعيين، فتطلب بهذا القول تعيّن المسند .

فان قلت : ان مقتضى كون الهمزة في الامثلة المذكورة لطلب التصور وان المتكلم عالم بوقوع النسبة، تاخّر التصور عن التصديق، مع انه قد تقرر في موضعه ان التصديق مسبوق بالتصور .

قلنا : ان المطلوب بالهمزة التصور على وجه التعيين لا على سبيل الاجمال[٤٧]، وهذا متاخر عن التصديق على سبيل الاجمال . وسبق التصور على التصديق انما يكون اذا جريا على وتيرة واحدة من الاجمال والتفصيل. فالتصديق بوقوع خطابة لعلي او سعيد لا على التعيين مسبوق بتصور شخص ما، كما ان التصديق بوقوع خطابة لاحدهما معيّنا مسبوق بتصور المسند اليه على التعيين .

٤٧– راجع حاشية السيّد، ٢٢٨ .

فهناك تصور ان وتصديقان مختلفان فى التعيّن وعدمه، والاجمال والخصوصية . فالتصور والتصديق على وجه الاجمال فى المثال المذكور حاصلان قبل السؤال، فلا يتوجه اليهما السؤال والا ّ يلزم تحصيل الحاصل. واما التصور والتصديق على وجه التعيين فلايتحققان الا ّ بعد السؤال .

فان قلت اذا كان التصور والتصديق على وجه التعيين يتحققان بعد السؤال، فما وجه الاقتصار اذا على كون الهمزة لطلب التصور ؟

قلت ان تصور المسند اليه اوالمسند على وجه التعيين هو المقصود للسائل، بقرينة أم المتصلة، وأما التصديق الخاص فهو حاصل غير مقصود[٤٨].

والفرق بين الاستفهام بالهمزة عن التصور والتصديق، من وجهين :

لفظى، وهو ان الاستفهام عن التصور يصلح لأن يقع بعده «ام المتصله» واما الاستفهام عن التصديق فلا يصلح الا «لام المنقطعة»[٤٩].

ومعنوى، وهو ان التردد والشك فى الاستفهام عن التصور يرجعان الى تعيين احد طرفى الجملة، وفى الاستفهام عن التصديق يرجعان الى النسبة بينهما من حيث الثبوت اوالنفى[٥٠].

احكام الهمزة :

تختص الهمزة باحكام، منها :

٤٨ــ حاشية الدسوقى، ٢/٢٤٩ .

٤٩ــ ومن الفرق بين المتصلة والمنقطعة، ان المتصلة تكون دائما مصاحبة للاستفهام، اما لفظا ومعنى نحو ازيد قائم ام عمرو؟ او لفظا فقط، نحو : سواء علىّ أزرتنى ام هجرتنى . فالاستفهام فيه لفظى فقط .

واما المنقطعة فانها يصح ان لايقع بعدها الاستفهام لالفظا ولامعنى .

←

١ــ جواز دخولها على الجملتين : الاسمية والفعلية، ولكن دخولها على الجملة الفعلية أكثر .

٢ــ مجيئها ــ كما سبق ــ لطلب التصور والتصديق .

٣ــ ايلاء المسؤول عنه لها في طلب التصور أوالتصديق، كقولك في السؤال عن الفاعل أوالمسند إليه : أأنتَ قلتَ ؟ وفي السؤال عن المفعول : أربَّك نسيت ؟ وفي السؤال عن المسند : أتركتَ واجبكَ في حق أبنائِك؟ إذا كنت عالما بوقوع النسبة، ولكن جهلت المسند على سبيل التعيين .

اما اذا جهلت أصل النسبة وأردت ان تسأل عنها، فتأتي بهذه الجملة ايضا في السؤال .

فإن قلت : ان ايلاء المسؤول عنه للهمزة في طلب تصور المسند او المسند إليه أو شيء من متعلقات الفعل ظاهر، إذ لكل منها لفظ يدل عليه و يمكن ايلاؤه للهمزة .

واما اذا كان المطلوب بها التصديق، فأمر ايلاء المسؤول عنه للهمزة غير ظاهر، لانه ليس للنسبة لفظ واحد يخصها حتى يمكن ان يلي الهمزة .

واجيب بانه لما كان الغرض من السؤال بالهمزة عن التصديق، السؤال عن حال النسبة وهي جزء من مدلول الفعل، فناسب ان يجيء الفعل الهمزة في هذه الصورة ايضا كما يقع بعدها في صورة السؤال عن المسند[٥١] .

ولكن اقول : ان اللفظ الدال على النسبة اوالتصديق، هو مجموع المسند والمسند اليه، فلانسلم ان امر الايلاء عند السؤال عن النسبة غير

←

(راجع عروس الافراح ٢٤٧/٢) .

٥٠ــ حاشية الدسوقي، ٢٤٨/٢ .

٥١ــ راجع حاشية الدسوقي ٢٥٣/٢ .

ظاهر، لانه كما يتحقق امر الايلاء في طلب التصور بايلاء لفظ المسند او المسند اليه للهمزة، يتحقق في طلب التصديق بايلاء مجموع مايدل عليهما للهمزة . ولا فرق في ذلك بين ان يتقدم المسند او المسند اليه، اذ المراد بالايلاء للهمزة في السؤال عن التصديق، ان لايقع بعد الهمزه شيء آخر غير المسند او المسند اليه من قبيل متعلقات الفعل .

٤ــ جواز دخولها على المثبت والمنفي، كقوله تعالى: «أأنت قُلْتَ للنّاسِ[٥٢]...؟» و «ألَمْ أعهَدْ أليكُمْ؟»[٥٣].

٥ــ جواز حذفها، سواء تقدمت على ام كقول عمر بن ابي ربيعة :

بدالي َمنهامِعْصَمٌ حين جمَّرتْ وكفٌ خضيبٌ زيِّنَتْ ببنان
فوالله ِما أدري وان كنتُ دارياً بسبعٍ رمين الجمر ام بثمان

فأراد أبسبعٍ رَمينَ ام بثمان ؟

او لم تتقدمها، كقول الكُميت :

طربتُ وماشوقاالى البيض أطربُ ولا لعبا منّي، و ذوالشيب يلعب؟

اراد : أذوالشيب يلعب ؟

٦ــ تمام التصدير، وذلك لأنها لاتذكر بعد «ام» للاضراب كما يذكر بعدها غيرها .

ولأنها تقدم على العاطف إذا كان واواً، اوفاءً، او ثم . نحو : أولم ينظروا ؟ أفلم يسيروا ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم ؟

واما بقية أدوات السؤال فتتأخر عن حروف العطف[٥٤].

٥٢ــ المائدة، ١١٦ .

٥٣ــ يس، ٦٠ .

٥٤ــ راجع مغني اللبيب، ٥ــ٦ .

«هل»

تمتاز «هل» بين أدوات السؤال بأنها لطلب التصديق فقط، نحو : هل قدم المسافر ؟ في الجملة الفعلية، وهل سيبويه مدفون بشيراز ؟ في الجملة الاسمية .

فـ «هل» في هذين المثالين تفيد أن اصل الحكم فيهما غير محقق الثبوت عند المتكلم، فيشك في ثبوت القدوم للمسافر وكذا في دفن سيبويه بشيراز، فيستفهم بها ليحصل التصديق عنده .

ولأن اصل «هل» لطلب التصديق وافادة ان اصل الحكم مجهول عند المتكلم، وجب ان لا تكون الجملة التي سئل عنها بـ «هل» بحيث تدل على ان العلم بثبوت اصل الحكم حاصل . ويتفرع من هذا الاصل امران : احدهما ، امتناع مثل هل فاز باللذة الجسور ؟ ام الجبان ؟ لان «هل» تفيد ان اصل الحكم مجهول، ولكن «ام» المتصلة التي وقع بعدها المفرد ، تدل على ان المطلوب بالاستفهام تعيين احد الامرين مع العلم بثبوت اصل الحكم، فكيف يمكن الجمع بينهما .

والثاني، قُبْح مثل : هل الكتابَ قرأتَ ؟ لان تقديم المفعول يدل على ان اصل الحكم محقق الثبوت عند المتكلم وان المطلوب تعيين المفعول، مع ان «هل» تتطلب حصول التصديق باصل الحكم، «فيكون» هل «طلبا لحصول الحاصل وهو محال»[٥٥].

فإن قلت : لماذا حكم بقبح مثل : هل الكتاب قرأت، لا بالامتناع ؟ قلنا: لانه يجوز ان يكون الكتاب مفعولا لفعل مقدّر يفسره الفعل الظاهر[٥٦].

٥٥ـ المطول، ٢٢٨ .

٥٦ـ راجع المطول، ٢٢٨ .

أقسام هل :

تنقسم هل الى قسمين : بسيطة ومركبة .

فالبسيطة، ما يطلب به وجودالشيء اولا وجوده، بمعنى انه «يطلب به ان يتعرّف بهذا المطلب حال الشيء فيالوجودالمطلق، اوالعدم المطلق»[٥٧]. كقولك : هل جزيرةالعميان موجودة ؟ وهل الخلأ موجود ؟

فالمطلوب فى هذين المثالين وجود جزيرةالعميان اولاوجودها، و وجودالخلأ اولاوجودها، فليس وراء وجودالموضوع شيء آخر . فالمعتبر بهذا المطلب ليس إلاّ شيئا واحدا فيالحقيقة، ولهذا سمي بسيطة. ففيها يسأل عن التصديق بوقوع النسبة بين موضوع ما، ومحمول هو عين الوجود لذلك الموضوع[٥٨].

والمركبة، ما يطلب به وجود شيء لشيء آخر، اولاوجوده . بمعنى انه «يطلب به ان يتعرف هل الشيء موجود على حال ما، او ليس»[٥٩] كقولك : هل الحرب منتهية فى لبنان ؟ فالمسؤول عنه بهل فى هذه الجملة وجود انتهاءالحرب، والمعتبر فى هذا السؤال وراءالوجود شيئان : الإنتهاء والحرب .

فاذا لم يعتبر فيالبسيطة والمركبةالوجود، يبقى فىالاولى شيء واحد وفيالثانية شيئان، واما اذا اعتبرالوجود ففيالاولى شيئان وفي الثانية ثلاثة أشياء . وعلى كلّ حالالاولى اقلّ واخصر[٦٠] من الثانية .

٥٧ــ النجاة، ٦٤ .

٥٨ مواهب، ٢/١ــ٢٧٢ .

٥٩ــ النّجاة، ٦٧ .

٦٠ــ راجع مواهبالفتاح ٢/ ٢٧٣ .

ويقال ايضا فى الفرق بين البسيطة والمركبة : ان الاولى يطلب بها وجود نفس الموضوع والثانية يطلب بها وجود المحمول، وان الوجود فى الاولى مقصود لذاته لانه محمول، وفى الثانية ليس مقصوداً لذاته، بل هو رابطة بين الموضوع والمحمول[٦١].

أحكام هل :

تختص «هل بأحكام» منها :

١ـ اختصاصها بالتصديق كما سبق .

٢ـ اختصاصها بالايجاب فى الجملة الفعلية والاسمية، لانها بمعنى قد . فلايقال : هل لايُنشِدُ الشعبُ ضالّتهم ؟ كما لايقال : قد لاينشد الشعب ضالتهم .

٣ـ تخصيصها المضارع بالاستقبال كالسين وسوف، ولهذا لايصح: هل تترك القتالَ والعدّو فى دارك ؟

٤ـ انها لاتدخل على الشرط، ولا على إنّ، ولا على اسم بعده فعل فى الاختيار، بخلاف الهمزة . فالهمزة تدخل عليها، بدليل انه جاء فى القرآن الكريم :

الف ـ أفإن مِتَّ فهم الخالدون[٦٢] ؟

ب ـ أإنّك لأنْتَ يوسُف[٦٣] ؟

ج ـ أبشراً منّا واحداً نَتَّبِعُه[٦٤] ؟

٦١ـ راجع عبدالحكيم، ٣٣٥، وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٢ .

٦٢ـ الانبياء، ٣٤ .

٦٣ـ يوسف، ٩٠ .

٦٤ـ القمر، ٢٤ .

٥ـ انها تقع بعد العاطف، وبعد «أم» كقوله تعالى : فهل يهلك إلاّ القوم الفاسقون[٦٥] ؟ وقوله ايضا : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور[٦٦] .

٦ـ مزيد اختصاصها ـ بين أدوات الاستفهام ـ بالفعل[٦٧]، فلا تُخْرَج على خلاف هذا الاصل في الكلام البليغ إلا لنكتة، فهى فى قوله تعالى : فهل أنتم شاكرون[٦٨] ؟ أدعى لطلب الشكر من قولنا : فهل تشكرون ؟ «لان ابراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدلّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله . وكذا من قولنا : أأنتم شاكرون ؟ وان كانت صيغته للثبوت، لان هل أدعى للفعل من الهمزة، فتركه معها ادل على كمال العناية بحصوله . ولهذا لا يحسن : هل زيد منطلق ؟ الا من البليغ»[٦٩].

٦٥ـ الاحقاف، ٣٥ .

٦٦ـ الرّعد، ١٦ .

٦٧ـ جاء في الكتاب : «وحروف الاستفهام كذلك بنيت للفعل إلاّ انهم قد توسعوا فيها فابتدؤا بعدها الاسماء ، والاصل غير ذلك . الا ترى انهم يقولون : هل زيد منطلق، وهل زيد فى الدار، وكيف زيد أخذ ؟

فان قلت : كيف زيدا رأيت ؟ وهل زيد يذهب ؟ قبح ولم يجز الا في الشعر ، لانه لما اجتمع الفعل والاسم حملوه على الاصل ...

واعلم ان حروف الاستفهام كلها يقبح ان يعبّر بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم، لو قلت هل زيد قام ؟ واين زيد ضربته ؟ لم يجز الاّ فى الشعر . فاذا جاء فى الشعر نصبته الا الالف فانه يجوز فيها الرفع والنصب» (الكتاب ١/٥٢) .

٦٨ـ الانبياء، ٨٠ .

٦٩ـ الإيضاح ٢/٧ـ٢٦٨ .

٧ـ أنها عند ما يستفهم بها لا يترجح فى نفس السائل اثبات ولا نفى، بخلاف الهمزة فانها لا يستفهم بها حتى يهجِس فى النفس ما يستفهم عنـــه ، كذا ذكر بعضهم[٧٠].

٨ـ انها تأتى بمعنى النفى ولذلك تقع بعدها «إلاّ» كقوله تعالـــى : هل جزاءُ الإحسانِ إلاّ الاحسان[٧١]. وتزاد بعدها الباء، كقول الفرزدق :

ألا هل أخو عيشٍ لذيذ بدائم ؟

ويصح العطف في قول امرئ القيس :

وإنّ شفائـــى عبـــرة" مُهْراقَـة" وهل عند رسمٍ دارسٍ مِن معوَّلِ

واما الهمزة، فإنها تأتى للإنكار على من ادّعى وقـــوع الشيء ، لا للنفى . فيلزم من الإنكار النفى، فإيرادها للنفى بطريق الإستلزام[٧٢].

٩ـ انها تاتى بمعنى «قد» مجردا عن الاستفهام، فتفيد معنى التقريب اوالتحقيق اوالتوقع مثل «قد»، وفسروا بذلك قوله تعالى : هـــل أتـــى على الإنسانِ حين" مِنَ الدّهر[٧٣].

وقال بعض : إن هل فى الاصل بمعنى «قـــد» وليس مـــن ادوات الاستفهام، وكان فى الأصل «أهل» فمعنى الاستفهام جاء من الهمزة المذكورة

٧٠ـ راجع عروس الافراح ٢٧١/٢ .

٧١ـ الرحمن، ٦٠ .

٧٢ـ الانكار على ثلاثه اوجه: الاول، انكار على من ادعى وقوع الشئ، ويلزم من هذا النفى . الثانى ، انكار على مـــن اوقع الشئ، وهـــذان الوجهان يختصان بالهمزة .

الثالث، انكار لوقوع الشئ، وهذا هو معنى النفى الذى تنفرد به هـــل عن الهمزة . (مغنى اللبيب، ٤٦٠ .

٧٣ـ الدهر، ١ .

معه، ولكن لما كثر وقوع «هل» فىالاستفهام تركوا الهمزة فاقيم هـل مقامها[٧٤].

ماعدا الهمزة وهل :

لقد سبق انالادوات التى تختص بطلبالتصورفقط، هـى ماعـدا الهمزة وهل . فهذهالادوات وان كانت مشتركة فى افادةالتصور، الا انها مختلفة من حيث انالمتصور فى كلّ منها غيره فىالاخر . وندرس فيمـا يلى تفصيل ذلك، فنقول :

منها : «مـا»

وهى تنقسم الى قسمين : شارحة وحقيقيّة[٧٥].فالشارحه، مـا يطلب به شرح مفهوماللفظ وبيانالمراد منه . فان كانالمطلوب بها بيان ما دلّ عليهاللفظ، والمعنى الذى وضع له، كانالجدير بالجواب ايراد لفظ اشهر. و ذلك كأن تسمع لفظ «الخَبَب» ولكن لاتعرف معناه وما هوالمراد به ، فتسأل عن معناه وتقول : ماالخَبَبُ ؟ فيجاب بأنه ضرب مـنالعَدْوِ . وهذا البيان منصميمالمباحثاللغويّة، ومآله الىالتصديق دونالتصور[٧٦]. وتسمى «ما» فى هذهالصورة، «مااللفظية» .

٧٤ـ راجـع مغنىاللبيب، ١٨٠ـ١٨١ والتلخيص مـع شروحـه، و حاشيةالدسوقى ٢/٢٦٠ .

٧٥ـ قالالحكيمالسبزوارى :

«فما» هـوالشارح والحقيقـى　　و ذو اشتباكٍ مـع هل انيـقِ

٧٦ـ راجع حاشيةالسيد علىالمطول، ٢٣٢ .

وان کان المطلوب بها «ماهیّة مفهوم الاسم المستعمل»[٧٧] وتفصیل ما دلّ علیه الاسمُ اجمالا، کان الجواب حدّا بحسب الاسم او رسما بحسب الاسم . و ذلك كقولك فی جواب ما الانسان؟ -قبل العلم بوجوده-: حیوانٌ ناطق، او حیّ مستقیم القامة عریض الاظفار . وتسمی «ما» فی هذه الحالة، «ما الاسمیة»[٧٨]. فعلم مما سبق ان «ما الشارحة» لیست مختصة بطلب الحد الاسمی، وان کان الشایع ذلك[٧٩].

والحقیقیة، ما یطلب به ذات الشیء، وحقیقته التی هو بها هو[٨٠]. و ذلك، كقولك : ما الانسان فی وجوده ؟ ای ما حقیقته الموجودة .

ترتیب «ما» و «هل» عند السؤال :

اعلم ان «ما» و «هل» تأتیان عند السؤال علی صلة وثیقة، و علی نظام مرتبطة . «فالشارحة» تأتی مقدّمة علی «هل البسیطة»، ضرورة أنه لا یُطلَب وجود شیء لم یُعرف بصورة مّا، ولم یُفهم لا بالاجمال ولا بالتفصیل. وتأتی هل البسیطة فی الترتیب مقدمة علی «ما الحقیقة» اذ الوجود مقدم علی الماهیة وما لا وجود له لا ماهیة له . و «هل المرکبة» متأخرة عن الجمیع ، لان ثبوت شیء لشیء فرع لثبوت المثبت له[٨١].

ویقال فی هذا الترتیب: ان «هل» تقع بین مائین، و «ما» تقع بین هلین .

٧٧- الإشارات، ١/٤٤٠ .

٧٨- راجع تعلیقة مهدی الآشتیانی علی شرح المنظومه ١/٢٠٣ .

٧٩- راجع عبدالحکیم، ٣٥٥ .

٨٠- الإشارات، ١/٥٤ . والمطول، ٢٣٢ .

٨١- راجع شرح المنظومة، ٣١ .

ولا يخفى ان تقدم «ماالشارحة» ـ اذا اريد بها بيان مادلّ عليه اللفظ و ُوضِعَت له الكلمة ـ على هل البسيطة ظاهر، «لان من لا يعرف مفهوم اللفظ استحال منه ان يطلب وجود ذلك المفهوم»[٨٢]. واما تقدّمها على البسيطة اذا كان المطلوب بها شرح الاسم، وتفصيل ما دل عليه اللفظ اجمالا، فمحل توقف . اذ لا يلزم من عدم معرفة الشيء بالتفصيل استحالة طلب وجوده، لان المعرفة الاجمالية كافية فى هذا المقام .

لكن كلام الشيخ فى النجاة والإشارات والشفاء[٨٣] صريح فى تقدم ما مطلقا، على هل البسيطة . ويمكن أن يُستدلّ على تقديم ما الشارحة الاسمية على هل البسيطة فى اصطلاح المنطقيين، بان المرتاض بصناعة المنطق لا يسأل عن وجود الشيء الاّ بعد المعرفة به تفصيلا . أو أن المراد من التقديم، التقديم على سبيل الأولوية لا الوجوب والقطع، كما اشار إليه السيد فى حواشى المطول[٨٤].

ومنها : «من»

والمطلوب بها، هو الامر العارض لذى العلم ومايفيد تشخصه وتعينه، علَما كان الأمر العارض او وصفا . و ذلك نحو : مَنْ حفر بئرَ زمزمٍ ؟ فيجاب امّا بالعَلَم، مثل أن يقال : عبدُ المطلب . «فان العَلَم يفيد إحضار ما وضع له بعينه، وهو عارض له بمعنى انه خارج عن ماهيته، او شبيه بالعارض القائم»[٨٥].

٨٢ـ مختصر المطول ٢/٢٧٦ .

٨٣ـ النجاة، ٦٨ . والإشارات، ١/٥٤٠ . الشفاء ٢/٢٦٢ـ٢٦١ .

٨٤ـ حاشية السيد، ٢٣٢ .

٨٥ـ عبدالحكيم، ٣٥٦ .

او يجاب بغير العَلَم مما يفيد التشخص، كأن يقال في الجواب : مَنْ تولّى امرَ النبي (ص) بعدَ أنْ مات أبوه .

ولك ان تقول : اذا كانت «من» من الأدوات التي تختص بطلب التصور، فكيف يمكن ان يؤتى في جوابه بالتصديق ؟ و ذلك كقوله تعالى على لسان الحواريين : «نحنُ أنصارُ الله» في جواب عيسى (عليه السلام) لما سأل : «من أنصاري إلى اللهِ ؟»[٨٦].

فيُجاب بأن «من» وان كانت سؤالا عن التصور، لكن السائل بها تارة يجزم بحصول المبهم فيسأل عن تعيينه، وتارة لايجزم و ذلك كمن يرجو ناصرا يحتمل ان يوجد وان لا يوجد ويطلب تعيينه، فقوله : من أنصاري ؟ محمول على ذلك[٨٧].

أقول : ليس الإتيان بالجواب في صورة التصديق، دليلا على أنّ المطلوب «بمن» في الآية التصديق لا التصور . لأن تعيين المسند إليه المطلوب «بمن» كما يحصل بالاكتفاء في الجواب بكلمة «نحن» وامثالها، من غير ضمّ ضميمة اخرى، يحصل ايضا بجملة «نحن أنصارُ الله» . غير ان المعروف في الجواب هو الصورة الاولى، وان البلاغة هي الاكتفاء على قدر الحاجة، فلا يُخْرَج الجواب عنها إلاّ لنكتة كما نرى في قول الحواريين . فانهم لم يكتفوا بكلمة «نحن» وان كانت مُجزية هاهنا، بل أضافوا عبارة «أنصارُ الله» عليها، افتخاراً بهذا العنوان وتأكيدا عليه و اهتماما بشانه، فلهذا زادوا عليها : «آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون»[٨٨].

٨٦- آل عمران، ٥٢ .

٨٧- راجع عروس الافراح ٢٧٩/٢ .

٨٨- آل عمران، ٥٢ .

احكام «من» :

تمتاز «من» بين أدوات الاستفهام بأحكام :

الأول ــ انها تختص بذى العلم فلاتستعمل لغيره إلاّ إذا نُزّل منزلته.

الثانى ــ لزوم مطابقة جوابها لما فى الواقع من غير زيادة ولا نقص ، كما ان الجواب الصحيح بالحدّ يلزم ان يكون جامعا ومانعا . فمثلا إذا كان من حفَر بئر زمزمٍ واحداً، يلزم ان يُكتفى فى الجواب بواحد، و اذا كان طائفة من الناس، يجب ان يُذكر جميعُهم، فلايصح حينئذ الاكتفاء ببعض منهم[٨٩].

الثالث ــ ان جوابها مفرد لامركب، بمعنى انه اذا قيل فى جواب من حفَر بئر زمزم : «عبدالمطلب» لايُقدّر له المبتدأ كما لايقدر فى حيوان ناطق حدا للانسان . روى ذلك صاحب عروس الافراح عن والده[٩٠].

اقول : ان هذا الحكم لايختص «بمن» بل يجرى عادة فى جميع ادوات الاستفهام التى يُطلَب بها التصور لا التصديق .

الرابع ــ انها صالحة بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع .

الخامس ــ أنها تعد من أسّ المطالب، مثل هل وما .

رأى السكاكى فى «ما» و «من» :

قال السكاكى[٩١]: يسأل بـ «ما» عن الجنس من ذوى العلم وغيرهم.

٨٩ــ راجع عروس الافراح ٢/٢٨٠ .

٩٠ــ المصدر نفسه ٢/٢٨٠ .

٩١ــ مفتاح العلوم، ١٤٩ .

فتقول : ما عندك ؟ أي أيّ أجناس الأشياء عندك ؟ فيجاب بانسان اوفرس اوكتاب اوطعام، وكذلك تقول : ماالكلمة ؟ فيجاب بلفظ مفرد موضوع . فالمراد بالجنس عندالسكاكى هو الماهيةالكلية، متفقةالأفراد او مختلفة ، مجملة اومفصلة .

والفرق بين «ما» فى رأىالسكاكى وبينه فيما تقدم ـ وان كان يُطلب بها فى كلتا الصورتين شرحُ الاسم وشرحُ الماهية ـ هوانها تختص عندالسكاكى بالأمر الكلى، وأمّا على ما تقدم فيسأل بها شرح الاسم كليا او جزئيا[٩٢].

وايضا ان «ما» يسأل بها عندالسكاكى عن الوصف كما يسأل بها عن غيره، فتقول : مازيد ؟ وجوابه كريم . فتجرى «ما» فى هذه الصورة مجرى «ايّ» فى السؤال عن الصفات المميّزة . وهذا، اخراج من السكاكى لـ «ما» عن حقيقتها، «فان المنطقيين قالوا لا يسأل عن الصفات المميزة بـ «ما» بل يسأل عنها بـ «ايّ» وانما يسأل بـ «ما» عن مفهوم اللفظ وعن حقيقة الشيء[٩٣].

وأما «من» عندالسكاكى، فيسأل بها عن الجنس من ذوى العلم فقط، تقول : من جبريل ؟ بمعنى أبشر" هو أم ملك" ام جنّى ؟ و ذكر فى قوله تعالى حكايةً عن فرعون: «فمن ربّكما ياموسى؟»[٩٤] ان المراد من السؤال من مالِكُكما ومدبّر أمركما ؟ أملك هو ؟ ام جنّى ؟ ام بشر؟[٩٥].

٩٢ـ عبدالحكيم، ٣٥٦ـ٣٥٧ .

٩٣ـ عروس الافراح ٢/٢٨٣ .

٩٤ـ طه، ٤٩ .

٩٥ـ مفتاح العلوم، ١٤٩، ١٥٠ .

و ردّ بان الحق فى جواب من جبريل ؟ ان يقال : ملك يأتى بالوحى من الله الى الرسل، او ما يُشبه ذلك مما يفيد التشخص والتعين. وبان جواب موسى لفرعون ب «ربّنا الّذى أعطى كلّ شىءٍ خلقَه ثم هدى»[٩٦] يدل على ان المطلوب «بمن» هو الامر الذى يعرض لذى العلم ويفيد تشخصه و تعينه .

وايضا مما لا يؤيد رأى السكاكى، أن «من» تستعمل لما يعقل والجنسُ الكلى ليس بعاقل، لانه حقيقة كلية، فلا يسأل عنه بمن . ولهذا قال النحاة . انه حيث اريد الجنس يُؤتى فى السؤال ب «ما»[٩٧].

ومنها : «أىّ»

والمطلوب بها ما يُميّز أحدَ المتشاركين أوالمتشاركات فى أمر عامّ، هو مضمون ما أضيفت إليه . يعنى أنه إذا كان هناك شيئان يتصفان بصفة ويشتركان فيها ويُعرفان بها عند المتكلم، ولكن ثبت لاحدهما حكم لا على التعيين، فللمتكلم أن يسأل ب «أى» فى هذه الصورة عما يُميِّز صاحب الحكم ويشخصه . و ذلك كقوله تعالى حكاية عن المشركين فى سؤالهم : «اى الفريقين خيرٌ مقاما»* ؟ فالمؤمنون والكافرون هما الشيئان اللّذان اشتركا فى الفريقيّة التى هى مضمون المضاف اليه فى الآية، والحكم الذى علم ثبوته لاحدهما لا على التعيين هو الخيرية، فسئل باىّ عما يعيّن صاحب الحكم مِنْ غيره، فيجاب بانتم أو أصحاب

٩٦– طه، ٥٠ .

٩٧– عروس الافراح ٢/٢٨٢ .

* مريم، ٧٣ .

محمد[٩٨] (ص) .

تقسيم أيّ :

تنقسم «ايّ» الى قسمين : جوهرية وعرضية . فالاول ما يُطلب به مميّز" هو من ذاتيات صاحب الحكم، والثانى ما يطلب به عوارض الشىء . فيرجع الجوهرية الى ماالحقيقة، والعرضيّة الى هل المركبة[٩٩].

أحكام أيّ :

تختص «أيّ» باحكام، منها :

١ــ انها لاتضاف الى مفرد معرفة، لأن المضاف اليه لها، امر مشترك بين متعدد فلابد أن يكون اما نكرة، اومعرفة متعددة .

٢ــ انها اذا اضيفت الى مثنى او جمع معرفة افرد ضميرها، كقولك: أيّ المقاتِلين جُرِحَ ؟ واذا اضيفت الى نكرة طوبق، نحو: أيّ والدين لايرغبانِ فى سعادة ولدِهما ؟[١٠٠]

ذكر سيبويه ان «أيّ» و «من» اذا استفهم بهما عن النكرة ، تطابقان مع المستفهَم افراداً وتثنيةً وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً . فلو قال شخص : رأيتُ رجلاً، قلتَ : أيّا ؟ كما تقول : من ؟

٩٨ــ مختصر المطول ٢٨٥/٢ .

٩٩ــ راجع شرح المنظومة، ٣٢ . جاء فى النجاة (٦٨) : «واما مطلب الـ «اى» فهو داخل بالقوة فى الهل المقيد ، وانما يطلب التمييز اما بالصفات الذاتية، واما بالخواص» .

١٠٠ــ راجع الفية ابن مالك وشرحه للسيوطى، ١٢٧ .

واذا قال : رجلين، قلتَ : أيّين ؟ كما تقول : منين ؟ . واذا قال : رجالا، قلت : أيينَ ؟ كما تقول : منينِ ؟

واذا قال : امرأةً، قلت : أيّةً ؟ كما تقول : منَه ؟ وفى المثنى والجمع يقال: أيتانِ وايّاتٍ، ومنتانْ ومناتْ، بسكون الاخر فى مَن[١٠١].

٣ـ انها تأتى للسؤال عن الزمان والمكان والحال والعدد والعاقل وغير العاقل والجنس والفصل والنوع وغيرها، فتعرف هذه المعانى ممّا اضيفت اليه[١٠٢].

ومنها : «كم»

فيسأل بها عن العدد المعيّن، كقوله تعالى : قال قائِلٌ منهم : كم لَبِثْتُم ؟ قالوا لَبِثنا يوماً او بعضَ يوم[١٠٣].

قال سيبويه : «اذا قال لك رجل : كم لَكَ ؟ فقد سألك عن عدد، لأن «كم» انما هى مسئلة عن عدد هاهنا. فعلى المجيب ان يقول: عشرون، او ماشاء ممّا هو أسماء لعدّة .

فاذا قال لك : كم لك درهماً ؟ او كم درهماً لك ؟ ففسر ما يسأل عنه، قلت :عشرون درهما . فعملت «كم» فى الدرهم عمل العشرين فى الدرهم، ولك مبنيّة على «كم»[١٠٤].

١٠١ـ راجع الكتاب، ١ ٤٠١ .

١٠٢ـ راجع النحو الوافى ٣/١٠٦ وعلم المعانى، ٥٢ .

١٠٣ـ الكهف، ١٩ .

١٠٤ـ الكتاب ١/٢٩١ .

الفرق بين كم الاستفهامية والخبرية :

تمتاز الاستفهامية من الخبرية بوجوه :

الاول ــ أنّ الاستفهامية تدل على عدد مبهم عند المتكلم، ولكنه معيّن عند المخاطب فى ظن المتكلم . وامّا الخبرية، فتدل على عدد مبهم عند المخاطب ربّما يعرفه المتكلم .

الثانى ــ أنّ الكلام مع الاستفهام لا يحتمل الصدق والكذب، بخلافه مع الخبرية .

الثالث ــ أنّ المتكلم فى الاستفهامية يستدعى جوابا من المخاطب ، واما فى الخبرية فلا يستدعيه، لأنه مُخْبِر لا مُسْتَخبِر[١٠٥].

ومنها : «كيف»

فيسأل بها عن الحال او الصفة التى يقع عليها الشىء، كالصحة والمرض والجلوس والقيام وغيرها، فيقال : كيف علىّ ؟ اىّ : أصحيح او مريض؟ وكيف جاء سعيد ؟ اى : أراكبا او ماشيا ؟

قيل : مِن حَق كيف أن يُسأل بها عن الصفات الغريزية لا الخارجية، فلهذا لا يقال : كيف على ؟ بمعنى : أقائم أم قاعد[١٠٦]؟

ومنها : «أين»

فيسأل بها عن المكان، فيقال : اين تسافر أيّام عطلة النيروز ؟ ,

١٠٥ــ حاشية الدسوقى ٢٨٨/٢ .

١٠٦ــ راجع عروس الأفراح ٢٨٧/٢ .

ومنها : «أنى»

يسأل بها تارة عن الحال فتفيد معنى «كيف» و ذلك، نحو قوله تعالى : «أنّى يُحيي هذه الله بعدَ موتِها»[١٠٧]؟

والفرق بينها وبين كيف فى هذه الصورة، انها تأتى دائما مع الفعل ماضيا او مضارعا، ولم يسمع : أنّى زيد ؟ بمعنى : كيف هو[١٠٨].

وتارة يُسأل بها عن المكان وتفيد معنى مِنْ أين، و ذلك كما جاء فى القرآن الكريم : أنّى لكِ هذا[١٠٩]؟ اى : مِنْ أيْن .

يقال فى الفرق بينهما : ان «أينَ» للسؤال عن المكان الذى حلّ فيه الشيء، وانّ «مِنْ أيْنَ» للسؤال عن المكان الذى برز منه الشيء[١١٠].

اعلم ان المستفاد من كلام القوم عند استعمال «انّى» فى المعنين المذكورين، انها تحتمل ان تكون حقيقة فى الاستعمالين كالمشترك، وان تكون حقيقة فى أحدهما ومجازا فى الآخر .

أقول : الظاهر هو الاحتمال الأول، و ذلك لانها لم تستعمل فى غير الاستفهام ولم تفارق معنى السؤال، وايضا انه لم ينقل عن احد انها وضعت لواحد من المعنيين على سبيل التعيين، حتى يكون استعمالها فى المعنى الآخر مجازا .

وقيل انها تستعمل ايضا بمعنى «متى» كقولك : «أنّى يفيض النيل[١١١]؟

١٠٧ـ البقرة، ٢٥٩ .

١٠٨ـ راجع المطول، ٢٣٤ .

١٠٩ـ آل عمران، ٣٧ .

١١٠ـ راجع عروس الافراح ٢/٢٨٩ .

١١١ـ علم المعانى، ٥١ .

ومنها : «متى»

يسأل بها عن الزمان، ماضيا كان او مضارعا .

وعنها : «أيّان»

يسأل بها عن الزمان المستقبل ، وتستعمل كثيرا فى مواضع التفخيم ، و ذلك نحو قوله تعالى : ايّانَ يومُ الدّين[١١٢]؟ و ذكر الرضى انها تفيد التفخيم دائما[١١٣].

اخراج أدوات السؤال إلى معانى غير استفهامية

اعلم ان ما سبق من المعانى لأدوات السؤال، هى المعانى الأصلية التى إذا استعملت تلك الأدوات فيها، كانت حقيقة، فأدوات الاستفهام من هذه الناحية ليست من صميم المباحث البلاغية .

ولكن كثيرا ما تُخْرج تلك الأدوات الى معانى أخرى، لنُكَت بلاغية وايحاء فوائد لا تؤديها المعانى الأصلية ، و بهذا الاعتبار يلتقى مبحث الاستفهام مع المباحث البلاغية ويؤول إليها .

وتلك المعانى البلاغية شائعة الاستعمال ، حتى ان الاستعمال الغالب لأساليب الاستفهام فى القرآن يرجع اليها . وهى تتأثر باختلاف القائل والمخاطب والاحوال المحيطة بهما ، وتستفاد من الأدوات الاستفهامية

١١٢- الذاريات، ١٢ .

١١٣- شرح الكافية ١١٦/٢ .

بمعونة سياق الكلام والقرائن على سبيل المجاز اوالاستعارة اوغيرهما[١١٤].

صرّح العلامة التفتازانى بأن استعمال أدوات الاستفهام فى تلك المعانى مجاز، ولكن لم يقم احد بتعيين نوعه[١١٥]. وعلّق السيد على قوله هذا، وعلل اهمال القوم بصعوبة تبيين علاقة هذا المجاز. ثم قال: «ونحن نذكر فى هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز»[١١٦] وتلخيص كلام السيد فى هذا المقام هو أنّ المجاز ينتهى الى المرسل، وأنّ اكثر العلاقات يرجع الى الاستلزام[١١٧].

وامّا عبدالحكيم، فهو يرى ان ارادة تلك المعانى البلاغية من أدوات الاستفهام، تصلح لان تكون مجازا اوكناية او غيرهما. فقال: «لكن التحقيق انه قد يراد منها تلك المعانى بطريق المجاز، وقد يراد بطريق الكناية، وقد يراد بطريق أنها مستتبعات الكلام»[١١٨].

ثم ان المعانى البلاغية لكلمات السؤال كثيرة، «ولا ينحصر ... شىء منها فى أداة دون أداة، بل الحاكم فى ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغى ان تقتصر فى ذلك على معنى سمعته، اومثال وجدته من غير ان تتخطّاه[١١٩].

١١٤ــ راجع أساليب الاستفهام فى القرآن، ١٩٢، ٢٤٦، ٢٤٨ــ٢٥٠.
وجدير بالذكر ان اسلوب الاستفهام الحقيقى فى القرآن لايتجاوز (١٩) موردا، مع ان مجموع الاستفهام القرآنى يبلغ (١٢٦٠) موردا.

١١٥ــ المطول، ٢٣٥.

١١٦ــ حاشية السيد، ٢٣٥.

١١٧ــ المصدر نفسه، ٢٣٥.

١١٨ــ عبدالحكيم، ٣٥٩.

١١٩ــ مطول، ٢٣٩.

لقد ذكر السيوطي[١٢٠] في «الاتقان» من تلك المعاني اثنين وثلاثين كما يلي :

١ــ الانكار، والمعنى فيه على النفي، وما بعده منفي . و لذلك تصحبه «إلاّ» ويعطف عليه المنفي كقوله تعالى : «فهَلْ يُهْلَكُ إلاّ القومُ الفاسقون»[١٢١] ؟ و «فمنْ يهدي مَنْ اضلَّ اللهُ ؟ ومـا لهـُمْ مِنْ ناصرين»[١٢٢] .

وكثيرا ما يصحبه التكذيب، وهو في الماضي بمعنى لم يكن، وفي المستقبل بمعنى لا يكون . نحو : أفأصفاكم ربُّكم بالبنين[١٢٣]؟ وأنُلْزِمكموها وأنتُمْ لها كارهون[١٢٤]؟.

٢ــ التوبيخ، والمعنى على ان ما بعده واقع ولكن جدير بان يُنْفى. والفرق بينه وبين الانكار، ان النفي هنا غير قصدي والاثبات قصدي ، والانكار على العكس .

ثم التوبيخ كما يقع على فعل جديرٍ بالترك نحو : أتعبدون ما تنحِتون[١٢٥]؟ يقع على ترك فعل كان ينبغي ان يقع ، كقوله : ألم تكن

١٢٠ــ الاتقان، ٢/٨٢ــ٨٣ .

١٢١ــ الاحقاف، ٣٥ .

١٢٢ــ الرّوم، ٢٩ . وكقول محمود الورّاق :

اذا كتم الصّديق اخاهُ سرّاً   فما فضلُ الصّديق على العدوّ

(المحاضرات ١/١٢٨)

١٢٣ــ بني اسرائيل، ٤٠ .

١٢٤ــ هود، ٢٨ .

١٢٥ــ الصافات، ٩٥ .

أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجِروا فيها[١٢٦]؟.

٣ــ التقرير، وهو حمل المخاطب على الاقرار والاعتراف بامر قد استقر عنده . كقوله تعالى : «ألم نشرَح لك صدرَك؟»[١٢٧] و قوله : «أكذّبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ؟»[١٢٨]

و روى عن سيبويه منع التقرير فى «هل» ، ولكن قال بعض منهم الزمخشرى بورودها له، فانّه يرى ان «هل» فى قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان ...» للتقرير[١٢٩].

٤ــ التعجب، نحو : «كيف تكفرون وانتم تتْلى عليكم آياتُ اللهِ وفيكم رسولُه ؟»[١٣٠] و «مالى لا أرى الهدهد ؟»[١٣١].

قال عبدالحكيم : «عدم الرؤية قد يكون لحال فى جانب الرائى ، و

١٢٦ــ النساء ، ٩٧ .

١٢٧ــ الانشراح، ١ .

١٢٨ــ النمل، ٨٤ .

١٢٩ــ الكشاف، ١/١٤٨ .

ــ قال صاحب (تأويل ... ٤١٠) : «هل تكون للاستفهام، ويدخلها من معنى التقرير والتوبيخ ما يدخل الالف التى يستفهم بها، كقوله تعالى : هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء ؟ وهذا استفهام فيه تقرير وتوبيخ . و كذلك قوله تعالى : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟» .

ومن مجئ «هل» للتقرير قول النبى (ص) : و هل يكبّ الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلاّ حصائد ألسنتهم؟ فيما قال لمعاذ : أمسك عليك هذا ــ واشار الى لسانه ــ فقال معاذ : اونحن مؤاخذون بما نتكلم ؟ فقال : ثكلتك امّك يا معاذ ! وهَلْ ... (المثل السائر ١/٤٠٣) :

١٣٠ــ آل عمران، ١٠١ .

١٣١ــ النمل، ٢٠ .

قد يكون لحال في جانب المرئي . فقوله : «مالـي لا أرى الهدهد ؟» ان كان استفهاما عن حال في جانب الرائي يوجب عدم الرؤية، فـالاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته، إذ لا معنى للاستفهام عن حال نفسه فهو مجـاز عن التعجب .

وان كان استفهاما عن حال في جانب المرئي يـوجب عـدم الرؤية كالساتر فيجوز ان يكون الاستفهام على حقيقته .

فان قصِد منه التعجب، ويكون ارادة المعنى الحقيقي لمجرد التصوير والانتقال ، كان كناية .

وان قصِد منه المعنى الحقيقي مع التعجب، كان التعجب من مستتبعات الكلام»[١٣٢].

٥ـ العتاب، كقوله تعالى : ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشَع قلوبُهم لذكر الله[١٣٣] ؟

ومن ألطَفه ما عاتب الله به خير خلقه بقوله : عفا اللهُ عنك لم أذنتَ لهم[١٣٤] ؟

٦ـ التذكير، كقوله تعالى : الم اعهد اليكم يا بني آدم، ان لاتعبدوا الشيطان[١٣٥] ؟

وقوله : ألم اقل لكم إني أعلمُ غيبَ السموات والارض[١٣٦] ؟

١٣٢ـ عبدالحكيم، ٣٥٩ .

١٣٣ـ الحديد، ١٦ .

١٣٤ـ التوبة، ٤٣ .

١٣٥ـ يس، ٦٠ .

١٣٦ـ البقرة، ٣٣ .

٧ـ الافتخار ، نحو : أليس لى ملكُ مصر[١٣٧] ؟
٨ـ التفخيم، نحو : ما لهذاالكتاب لايُغادِرُ صغيرةً ولاكبيرة[١٣٨]؟
٩ـ التهويل والتخويف، نحو : الحاقةُ ماالحاقة[١٣٩] ؟
١٠ـ عكسه وهوالتسهيل والتخفيف نحو: وماذا عليهم لو آمنوا[١٤٠]؟
١١ـ التهديد والوعيد، نحو : ألم نُهلِكِ الأولين[١٤١] ؟
١٢ـ التكثير، نحو : وكم من قرية اهلكناها[١٤٢] ؟
١٣ـ التسوية، نحو : سواءٌ عليهم أأنذرتَهم ام لم تنذرهم[١٤٣] ؟
١٤ـ الأمر، نحو : فهل أنتم منتهون[١٤٤] ؟ اى انتهوا .
١٥ـ التنبيه، نحو : ألم تـر أنالله َ أنزل من السماء مـاء فتصبح الارض مخضّرةً[١٤٥] ؟
١٦ـ الترغيب، نحو : هل أدلّكم على تجارةٍ تُنجيكم[١٤٦] ؟
١٧ـ النهى، نحو : أتخشونهم ؟ فالله أحقّ أن تخشوه[١٤٧] . فالمعنى،

١٣٧ـ الزخرف، ٥١ .
١٣٨ـ الكهف، ٤٩ .
١٣٩ـ الحاقه، ١ .
١٤٠ـ النساء ،
١٤١ـ المرسلات، ١٦ .
١٤٢ـ الاعراف، ٤ .
١٤٣ـ البقرة، ٦ .
١٤٤ـ المائدة، ٩١ .
١٤٥ـ الحج، ٦٣ .
١٤٦ـ الصف، ١٠ .
١٤٧ـ التوبة، ١٣ .

لا تخشوهم .

وقوله ايضا : يا أيّها الانسانُ ماغرّك بربِك الكريمِ[١٤٨]؟ اى لا تغتر.

١٨ــ الدعاء، وهو كالنهى الا" أنه من الأدنى الى الاعلى، نحو : أتُهْلِكُنا بما فعَل السفهاء[١٤٩] ؟ اى لا تهلكنا .

١٩ــ الإسترشاد، نحو : أتجعلُ فيها من يُفسِد فيها[١٥٠] ؟

٢٠ــ التمنى، نحو : فهل لنا مِنْ شفعاء[١٥١] ؟

٢١ــ الإستبطاء ، نحو : متى نصرُ الله[١٥٢] ؟

٢٢ــ العرض، نحو : ألا تُحبّون أن يغفر اللهُ لكم[١٥٣] ؟

٢٣ــ التحضيض، نحو : ألا تُقاتلون قوماً نكثوا أيمانَهم[١٥٤] ؟

٢٤ــ التجاهل، نحو : أأنزل عليه الذكرُ مِنْ بيننا[١٥٥] ؟

٢٥ــ التعظيم، نحو : مَنْ ذا الذى يشفَع عنده ...[١٥٦] ؟

٢٦ــ التحقير، نحو : «أهذا الذى يذكُر آلهتَكم؟»[١٥٧] و «أهذا الذى بعثَه اللهُ رسولا؟»[١٥٨]

١٤٨ــ الإنفطار، ٦ .

١٤٩ــ الاعراف، ١٥٥ .

١٥٠ــ البقرة، ٣٠ .

١٥١ــ الأعراف، ٥٣ .

١٥٢ــ البقرة، ٢١٤ .

١٥٣ــ النور، ٢٢ .

١٥٤ــ التوبة، ١٣ .

١٥٥ــ ص، ٨ .

١٥٦ــ البقرة، ٢٥٥ .

١٥٧ــ الأنبياء، ٣٦ .

١٥٨ــ الفرقان، ٤١ .

٢٧ـ الاكتفاء ، نحو : أليس في جهنمَ مثوىً للمتكبرين[١٥٩] ؟
٢٨ـ الاستبعاد ، نحو : أنّى لهم الذكرى[١٦٠] ؟
٢٩ـ الايناس، نحو : وما تلك بيمينك يا موسى[١٦١] ؟
٣٠ـ التهكم والاستهزاء ، نحو : أصلاتُك تأمُرك[١٦٢] ؟
٣١ـ التأكيد، لما سبق من معنى أداة الاستفهام، نحو : أفمَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب ؟ أفأنتَ تُنقِذ مَنْ في النار[١٦٣] ؟

«فمن» اسم الشرط وجملة «فأنت ...» جوابه، و دخلت عليه الهمزة لتأكيد معنى الانكار .

٣٢ـ الاخبار، نحو : افي قلوبهم مرض[١٦٤] ؟

فهذه المعاني والأغراض البلاغية لأدوات الاستفهام ليست متباعدة و متنافرة معا، بحيث لا يلتقي بعضها مع بعض، ولا يجتمع واحد منها مع الآخر . الا ترى انه يمكن ارجاعُ التوبيخ الى الانكار كما فعل الخطيب القزويني حيث يقول : «والانكار اما للتوبيخ اى ما كان ينبغي» وإرجاعُ الامر والتحضيض الى الترغيب، والافتخار والتذكير في الأمثلة السابقة ، الى التقرير .

وهذا الارتباط الوثيق بين الاغراض لم يكن مجهولا على السيوطي ،

١٥٩ـ الزُمَر، ٦٠ .
١٦٠ـ الدخان، ١٣ .
١٦١ـ طه، ١٧ .
١٦٢ـ هود، ٨٧ .
١٦٣ـ الزمر، ١٩ .
١٦٤ـ النور، ٥٠ .

لان نفسه أشار الى تداخل التوبيخ مع الانكار، والتنبيه مع الامر، والدعاء مع النهى .

ويمكن ايضا جمع بعضها مع بعض كما نقل السيوطى[١٦٥] عن الزمخشرى فى «أتامرون الناس بالبرّ وتنسَون أنفسَكم ؟» : ان الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم .

ثم يرد على السيوطى ان التسوية ليست من المعانى البلاغية للاستفهام، وان الهمزة بعد كلمة «سواء» لاتدل على معنى الاستفهام لاحقيقه ولامجازا، وانما الكلام معها خبر لاانشاء[١٦٦] .

ويرد أن المثال فى «الخامس والعشرون» لايطابق الممثل له، إذ جملة «من ذاالذى» لاتدل على تعظيم المسؤول عنه، بل الجملة تفيد تعظيم الخالق وهو ليس مسؤولا عنه، فالمثال يناسب الانكار اوالنفى .

ظواهر بعض المعانى البلاغية

اعلم ان لبعض من هذه الاغراض ظواهر وميزات جديرة بالذكر ، فنشير اليها بالاختصار :

١ــ الانكار يقع مع الهمزة أكثر من بقية أدوات السؤال .

٢ــ ان الانكار اكثر الاغراض البلاغية للاستفهام .

٣ــ لايجرى التعجب فى الذات، بل يجرى فى الافعال بكثرة و فى النسب بقلة .

١٦٥ــ الاتقان ٢/٨٢ .

١٦٦ــ راجع اساليب الاستفهام، ٢٥٨ .

٤ـ الانكار للنفى، يأتى مع «هل» بكثرة، ويليه «ما» و «من» فى كثرة الدلالة على الانكار المنفى .

٥ـ انالهمزة وهل، تستعملان للدلالة على معنى الامر أكثر من بقية أدوات الاستفهام .

٦ـ التحقير والتعظيم يتعلقان بالاسماء فى الاكثر، ويأتيان مع «من» و «ما» فى الغالب .

٧ـ التعجب، والانكار للنفى والتكذيب، والاستبطاء ، والاستبعاد، وكذلك التهويل والتخويف، قد يصحبها ما ينبىء عن المعانى البلاغية . كما نرى فى هذه الآيات :

الف ـ «قالت يا ويلتا أألِدُ وأنا عجوز" وهذا بعلى شيخا ؟ إنّ هذ لشىء عجيب»[١٦٧]، فجملة «إن هذا ...» تنبىء عن التعجب الذى تضمنه الاستفهام .

ب ـ «أفمَنْ كان مؤمنا كمَنْ كان فاسقاً ؟ لا يستوون»[١٦٨] . فقوله : «لا يستوون» يدل على نفى المشابهة بين المؤمن والفاسق .

ج ـ «أفأصفيكم ربّكم بالبنين واتّخذَ من الملائكة اناثا؟ انكم لتقولون قولا عظيما»[١٦٩] فجملة «انكم لتقولون ...» تدل على ما يستفاد من الاستفهام، وهو التكذيب .

د ـ «ويقولون متى هذا الوعد إنْ كنتم صادقين ؟ قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون»[١٧٠] فعبارة بعض الذى ... تنبىء

١٦٧ـ هود، ٨٢ .

١٦٨ـ السجدة، ١٨ .

١٦٩ـ المؤمن، ٤٠ .

١٧٠ـ النمل، ٧١

عما تضمنه الاستفهام هاهنا[١٧١].

هـ ـ «الحاقة ماالحاقة ؟ وما أدراك ماالحاقة» . فقوله : «وما ادراك ...» ينبىء عما تضمنه الاستفهام من التهويل والتعظيم، حيث يدل على ان المستفهم عنه بلغ من العظمة درجة لايدرك كنهه ولايعرف معرفة تامة .

بلاغة أساليب الاستفهام

اعلم ان لاساليب الاستفهام فى قوة التعبير والحيوية، وبيان ما يكتنف الانسان من الاحوال والعواطف والغرائز، وافادة معنى كثير بلفظ قليل، والافصاح عن المراد بأحسن صورة، و دعوة المخاطب الى الصواب بالطف وجه، مزايا ليست باجمعها فى غيرها، فمنها :

١ ـ ان اسلوب الاستفهام ليس اسلوب سرد ممّل يقص به المتكلم ، بل المتكلم يحفظ صلته مع المخاطبين ويُشركهم فى بيان المراد والوصول الى الصواب . فالمتكلم والمخاطب فيه يبدلان موضعهما، فيصبح المتكلم مخاطبا والمخاطب متكلما . فكل منهما يحس الإلتزام امام هذا الاسلوب .

٢ ـ ان الحالات النفسية والعواطف والغرائز للانسان كثيرة لايحصرها لفظ ولاينفدها عدّ، ولعل انسب وأشمل اسلوب لها هو اسلوب الاستفهام، و ذلك لان اساليب الاستفهام ايضا لايضيّقها مفهوم، ولايعصى عليها مجهول .

---

١٧١ ـ راجع اساليب الاستفهام فى القرآن، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٢ .

٣ـ ان المتكلم يستطيع ان يعبر باسلوب الاستفهام عما يريده بالاختصار .

فمثلا اذا أردنا ان نهّدد سارقا وندعوه الى الصلاح وترك العمل ، نستفيد من الاستفهام ونقول له : ألم تقطَع أيدى السارقين ؟ وهذا أوجز مِنْ لاتسرق وأقبِل على الصلاح، والاّ تُقطَع أيديك كما تقطع أيدى بقية السارقين .

٤ـ أن المتكلم يُفْصح عما يعتقده على أحسن صورة، لانه يعرض مراده على صورة المجهول، ويجعل نفسه فى الظاهر مترددا فيه، ومستفهما وطالبا الصواب . فلايعبر عن مراده جازما، لئلا يخيل انه يريد ان يلقى فكرة، فتنكر ولا يصغى اليها ابتداء .

وايضا ان المتكلم يجعل المخاطب مشاركا له فيه ويدعوه الى التأمل والاجابة، فيسد عليه طريق الانكار ابتداء .

٥ـ ان المتكلم يعرضَ مراده فى بعض اساليبه معرضَ المعلوم الذىَ يكفيه ادنى ملاحظة، ويجعل المخاطب فيه اعلم به فى الظاهر، قال الدسوقى فى بلاغة «اين تذهبون ؟» عند افادة التنبيه على الضلال :

«واعلم ان استعمال أداة الاستفهام فى التنبيه المذكور ... يتضمن معنىً لطيفا، وهو الاشارة الى ان كون ذلك الامر ضلالا امر واضح يكفى فى العلم به مجرد الالتفات، وايهام ان المخاطب اعلم بتلك الطريق من المتكلم من حيث اتيانه له بالاستفهام الذى من شأنه انه انما يوجه لمن هو اعلم بالمستفهم عنه»[١٧٢] .

١٧٢ـ دسوقى ٢/٢٩٣ .

المبحث الثالث الامر

عرفوا الامر بتعبيرات مختلفة، منها :

١ـ اقتضاء فعل غير كف مدلول عليه بغير كف[١٧٣].

٢ـ طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء[١٧٤].

٣ـ طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الالزام[١٧٥].

والاستعلاء أعم من أن يكون الآمر عاليا في الحقيقة، كقول الأب لابنه: اجلس مكانك . أو السيد لخادمه : اذهب الى السوق فاشتر كذا وكذا .

اولم يكن عاليا، بل يظهر نفسه بمظهر من له علو المرتبة، كأن يطلب الابن من ابيه والخادم من سيده شيئا على سبيل الاستعلاء والالزام .

ثم الامر لطلب الماهية، لا لتكرار ولا مرة وان كانت ضرورية، اذ لا تتحق الماهية باقل منها، وليس حقه الفور خلافا لقوم في جميع ذلك[١٧٦].

صيغ الامر :

الألفاظ الدالة عليه أصالة، والصيغ الموضوعة له حقيقة، أربع :

الاول ـ فعل الامر، كقوله تعالى : «يا يحيى خذ الكتاب»[١٧٧].

١٧٣ـ جمع الجوامع ٢١٢/١ .

١٧٤ـ المختصر ٣٠٨/٢ـ٣٠٩ .

١٧٥ـ جواهر البلاغة، ٧٧ .

١٧٦ـ راجع جمع الجوامع ٢٢٠/١ .

١٧٧ـ مريم، ١٢ .

الثانى ــ المضارع المجزوم بلام الامر، كقوله : «لينفق ذو سَعة من سعته»[١٧٨].

الثالث ــ اسم الفعل بمعنى الامر، نحو : «عليكم انفسَكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم»[١٧٩].

الرابع ــ المصدر النائب عن فعل الامر نحو: سعياً فى سبيل الخير[١٨٠].

واختلفوا فيما تدل عليه تلك الصيغ بالوضع والحقيقة، «والاظهر ــ انها ــ موضوعة لطلب الفعل استعلاء»[١٨١] لانه المتبادر الى الفهم عند السماع. ثم الامر كسائر اقسام الانشاء لا يعد من صميم المباحث البلاغية الا باعتبار لطائف واغراض تتحقق بعدول الامر من حقيقته الاصلية اليها، وتحصل باخراج صيغه عليها، فيلتقى مبحث الامر حينئذ مع المجاز أو الكناية.

وهذه الاغراض كثيرة والحاكم فيها هو الذوق، وتستفاد بمعونة السياق والقرائن. لعل صاحب عروس الافراح و «جمع الجوامع» اكثر من حشدوا تلك الاغراض[١٨٢]، فنذكرها ههنا ثم ننقدها.

الاغراض البلاغية المستفادة من صيغ الأمر :

كثيرا ما تخرج صيغ الأمر عن حقيقتها، وتستعمل للأغراض الآتية :

١٧٨ــ الطلاق، ٧.

١٧٩ــ المائدة، ١٠٨.

١٨٠ــ راجع جواهر البلاغة، ٧٨.

١٨١ــ تلخيص المفتاح ٢/٣١١.

١٨٢ــ راجع عروس الافراح ٢/٣١٢ــ٣٢٢ وجمع الجوامع ١/٢١٥ــ٢١٧.

١ــ الاباحة، نحو : كلوا من الطيبات[183].

٢ــ التهديد، نحو : اعملوا ما شئتم[184].

٣ــ التعجيز، نحو : فأتوا بسورة من مثله[185].

٤ــ التسخير، بمعنى التذليل والامتهان، اوالتحويل من حال الى حال نحو : كونوا قردة خاسئين[186].

٥ــ الاهانة، نحو : ذق انك انت العزيز الكريم[187].

٦ــ التسوية، نحو : فاصبروا او لاتصبروا[188].

٧ــ التمني، كقول امرءالقيس :

الا ايها الليل الطويلُ ألا انجلــى   بصبح وما الإصباحُ منك بأمْثَـلِ

٨ــ الدعاء، نحو : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق[189].

٩ــ الالتماس، وهو الطلب ممن يساويك رتبة، حقيقة اوادعاء، نحو: افعل كذا .

١٠ــ الندب، نحو : فكاتبوهم ان علمتم فيهم حقا[190].

١٨٣ــ المؤمنون، ٥١ .

١٨٤ــ فصّلت، ٤٠ .

١٨٥ــ البقرة، ٢٣ .

١٨٦ــ البقرة، ٦٥ .

١٨٧ــ الدخان، ٤٩ .

١٨٨ــ بنى اسرائيل، ٥٠ .

١٨٩ــ الاعراف، ٨٨ .

١٩٠ــ النور، ٣٣ .

١١ــ الارشاد، نحو : واستشهدوا شهيدين من رجالكم[١٩١].

١٢ــ الانذار، نحو : قل تمتعوا فان مصيركم الى النار[١٩٢].

١٣ــ الامتنان، نحو : كلوا مما رزقكم الله[١٩٣].

١٤ــ الاكرام، نحو: ادخلوها بسلام آمنين[١٩٤]. فالسلام والامن قرينة على كون الصيغة للاكرام .

١٥ــ الاحتقار، نحو : القوا ما انتم ملقون[١٩٥]. فان ما يلقيه السحرة و ان كان عظيما لكنه محتقر بالنسبة الى معجزة موسى .

١٦ــ التكوين، وهو الايجاد عن العدم بسرعة، نحو: كن فيكون[١٩٦].

١٧ــ الخبر، نحو : اذا لم تستح فاصنع ماشئت .

١٨ــ الانعام، بمعنى تذكير النعمة نحو: كلوا من طيبات مارزقناكم[١٩٧].

١٩ــ التفويض، نحو : فاقض ما انت قاض[١٩٨].

٢٠ــ التعجب، نحو : انظر كيف ضربوا لك الامثال[١٩٩].

٢١ــ التكذيب، نحو : قل فاتوا بالتوراة فاتلوها[٢٠٠].

١٩١ــ البقرة، ٢٨٢ .

١٩٢ــ ابراهيم، ٣٠ .

١٩٣ــ الانعام، ١٤١ .

١٩٤ــ الحجر، ٤٦ .

١٩٥ــ يونس، ٨٠ .

١٩٦ــ البقرة، ١١٧ .

١٩٧ــ البقرة، ٥٧ .

١٩٨ــ طه، ٧٢ .

١٩٩ــ بنى اسرائيل، ٤٨ .

٢٠٠ــ آل عمران، ٩٣ .

وايضا، نحو : قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرّم هذا[٢٠١].

٢٢ــ المشورة، نحو : فانظر ما ذا ترى[٢٠٢].

٢٣ــ الاعتبار، نحو : انظروا الى ثمره اذا أثمر[٢٠٣].

٢٤ــ الامتثال، كقولك لآخر عند العطش : اسقني ماء .

٢٥ــ الاذن، كقولك لمن طرق الباب : ادخل .

فهذه الاغراض المستفادة من صيغ الامر، اذا لم تقم قرينة على منع ارادة المعنى الحقيقي تعتبر معاني كنائية، او تعد من مستتبعات الكلام .

واذا قامت قرينة، تعتبر معاني مجازية، وترجع العلاقة بينها و بين المعنى الاصلي للامر، الى المشابهة وشبه التضاد، او الملازمة، او العموم والخصوص، او الإطلاق والتقييد . ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع الى حاشية البناني[٢٠٤] على شرح جمع الجوامع، وحاشية عبد[٢٠٥] الحكيم على المطول، وشروح[٢٠٦] التلخيص مع حاشية الدسوقي .

نقد الاغراض المذكورة للامر :

اعلم ان ما سبق من معاني الامر، هو ما ذكره القوم في هذا المجال . وهو قابل للمناقشة من وجوه :

الاول ــ ان منها ــ كما عرفت ــ اغراضا تتشابه وتتقارب معا بحيث

٢٠١ــ الانعام، ١٥٠ .

٢٠٢ــ الصافات، ١٠٢ .

٢٠٣ــ الانعام، ٩٩ .

٢٠٤ــ ٢/٢١٥ .

٢٠٥ــ ٣٦٥ .

٢٠٦ــ ٢/٣١٣ــ٣٢٠ .

لاترى الفصل بينها سهلاولاتحديد كل منها ظاهرا، فلو رجعت الى اصل واحد لكان اولى . و ذلك لما فيه من الاختصار مع التخلص من التمحل والتكلف في الاعتبارات المختلفة لبيان الفرق و الفصل بينها .

فمن تلك الاغراض المتشابهة الانذار والتهديد، فيمكن ان يرجعا الى اصل كلّى وهو التخويف مطلقا .

قيل في الفرق بينهما : ان الانذار لايستعمل الا بمصاحبة الوعيد، كما مر في قوله تعالى : قل تمتعوا فان ...

واما التهديد فيستعمل مع الوعيد نحو دم على عصيانك فالعصا امامك، وبدونه كقوله تعالى : اعملوا ما شئتم .

ومنها ــ الامتنان والانعام، فيجوز رجوعهما الى اصل واحد كبيان التفضل ونحوه .

وقيل في الفرق بينهما : ان الامتنان يختص بأعلى ما يحتاج إليه الإنسان، بخلاف الإنعام[٢٠٧].

ومنها ــ الندب والارشاد، فهما يرجعان إلى اصل كلّى وهو الدلالة على الخير او المصلحة .

قالوا في الفرق بينهما : ان المصلحة في الندب اخروية و في الارشاد دنيوية[٢٠٨].

ومنها ــ التسخير ـ بمعنى التذليل والامتهان ـ والاهانة والاحتقار، فيمكن ارجاعهما الى اصل عام مثل الاستخفاف وقلة المبالاة مطلقا .

يقال فيما يمتاز به كلّ منها : انه يؤتى مع الإهانة لفظ يدل على الخير والكرامة، ولكن يراد منه ضد ذلك .

٢٠٧ــ راجع حاشية البنانى ١/٢١٧ .

٢٠٨ــ راجع البنانى ١/٢١٥ .

وان التسخير يحصل الفعل المامور به معه، بخلاف الاهانة .

وان الاحتقار كما يمكن بالقول والفعل وتركهما، يمكن بالاعتقاد ايضا[٢٠٩].

ومنها ـ الاذن والاباحة، فيجوز ان يرجعا الى اصل واحد وهو رفع الحظر .

وقيل في الفرق بينهما : ان الاول مسبوق بالسؤال والانتظار، بخلاف الثاني .

الثاني ـ من وجوه المناقشة، ان المستعمل للتسوية في المثال المذكور هو المجموع المركب من صيغة الامر و «او» فلايصدق ان صيغة الامر تاتي للتسوية .

وكذا معنى التمني في بيت امرىء القيس، فانه مستفاد من صيغة الامر مع «ألا»[٢١٠].

والتسوية تفارق الاباحة بان المخاطب فيها كأنّه توهم أن احد الطرفين من الفعل وتركه انفع له وارجح بالنسبة اليه، فرفع ذلك التوهم وسوّى بينهما[٢١١].

المبحث الرابع النهي

وهو طلب الكف عن الفعل استعلاء .

---

٢٠٩ ـ راجع البناني ٢١٦/١، والدسوقي ٣١٨/٢ .

٢١٠ ـ راجع حاشية البناني ٢١٦/١ .

٢١١ ـ راجع المطول ٢٤١ .

وقالوا فى تعريفه ايضا : هو اقتضاء كف عن فعل لابقول كف[٢١٢].

وله صيغة واحدة وهى المضارع المجزوم بلاء النهى، نحو: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[٢١٣].

والنهى على عكس الامر حقه الفور والدوام جزما، لانه لدفع المفسدة، فعلى هذا لو قيل لاحد : «لاتشرب الخمر» فشرب بعد النهى مدة ثم تركها، اوتركها مدة ثم عاد اليها، لم يعد ممتثلا فى كلتا الصورتين[٢١٤].

تستعمل صيغة النهى فى معان غير طلب الكف، مجازا أو كناية أو غيرهما .

فمنها ــ الكراهيّة، كقوله تعالى : ولاتمش فى الارض مرحا[٢١٥]. و كقوله ايضا : ولاتيمّموا الخبيث منه تنفقون* .

ومنها ــ الدعاء ، كقوله تعالى : ربنا لاتزغ قلوبنا[٢١٦].

ومنها ــ الارشاد، نحو: لاتسألوا عن أشياء ان تُبْدَ لكم تسؤكم[٢١٧].

ومنها ــ التسوية، نحو : أولاتصبروا[٢١٨]. ويرد عليه ان التسوية ليست مستفادة من صيغة النهى وحدها، بل من المجموع المركب منها ومن كلمة «او» .

ومنها ــ الاحتقار والتقليل، نحو : لاتمدنّ عينيك الى ما متعنا به

٢١٢ــ جمع الجوامع ١/٢٢٦ .

٢١٣ــ آل عمران، ١٨٨ .

٢١٤ــ راجع الدسوقى ٢/٣٢٥، وعبدالحكيم ، ٣٦٦ .

٢١٥ــ بنى اسرائيل، ٣٧ .

* البقره، ٢٦٧ .

٢١٦ــ البقرة، ٢٦٨ .

٢١٧ــ المائدة، ١٠١ .

٢١٨ــ الطور، ١٦ .

أزواجا منهم[219]. اى فهو قليل حقير بخلاف ما عندالله .

ومنها ــ بيان العاقبة، نحو : ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله اموا تا بل احياء[220]. اى ان عاقبة الجهاد فى سبيل الله الحياة لا الموت .

ثم يرد على هذا المعنى ايضا انه مستفاد من مجموع صيغة النهى و كلمة «بل»، لا من النهى فقط .

ومنها ــ اليأس، نحو : لاتعتذروا اليوم[221].

ومنها ــ الاهانة، نحو : اخسئوا فيها لاتكلمون[222].

ومنها ــ التهديد، كقولك لمن يعصيك : لاتطع امرى .

ومنها ــ الالتماس، كقولك لمن يساويك فى الرتبة بدون الاستعلاء : لاتتركنى ايها الصديق .

ومنها ــ التمنى، نحو : لاترحل أيها الشباب .

وترجع العلاقة بين هذه الاغراض والمعنى الموضوع له الى ما سبق فى الأمر .

المبحث الخامس النداء

النداء هو طلب اقبال المدعّو بحرف نائب مناب «ادعو» سواء كان

٢١٩ــ الحجر، ٨٨ .

٢٢٠ــ آل عمران، ١٦٩ .

٢٢١ــ التحريم، ٧ .

٢٢٢ــ راجع جمع الجوامع ١/٢٢٦ــ٢٢٧، والاتقان ٢/٨٤ــ٨٥ .

ذلك الحرف ملفوظا نحو : يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض[٢٢٣]. او مقدرا نحو : يوسف أعرض عن هذا[٢٢٤].

النداء يفارق اقسام الطلب المذكورة بانه لايدل على طلب الاقبال مباشرة، لأن مفاد الحرف ومدلوله هو «ادعو» واما الاقبال فهو مطلوب باللزوم، لان الانسان انما يدعى للاقبال .

حروف النداء :

إن حروف النداء على ما ذكره سيبويه خمسة، حيث قال : «فاما الإسم غير المندوب فينبّه بخمسة أشياء: بيا، وأيا، وهيا، وأي وبالالف»[٢٢٥].

لقد جاء في كل من «أي» و «أ» لغة أخرى[٢٢٦] وهى «آى» و «آ» ولكن لم يذكرها سيبويه .

تمتاز «يا» بامور وهى :

الاول ــ انها تستعمل فى كل نوع من انواع المنادى : مندوبا او مستغاثا او غيرهما .

الثانى ــ انها تتعين وحدها لنداء اسم الله تعالى .

الثالث ــ تعينها وحدها ايضا للاستغاثة، نحو : يا َلله لِلمسلمين[٢٢٧] .

الرابع ــ جواز حذفها و ذكرها .

٢٢٣ــ راجع المواهب ١/٣٣٢ . ص، ٣٨ .

٢٢٤ــ يوسف، ٢٩ .

٢٢٥ــ الكتاب ١/٣٢٥ .

٢٢٦ــ راجع التصريح مع التوضيح ٢/١٦٣، و راجع مغنى اللبيب ١/٨ و ٤٠ .

٢٢٧ــ راجع التوضيح مع التصريح ٢/١٦٤ .

الخامس ــ انه لا يستعمل مع أيّها وايتها غيرها .

ان حروف النداء غير الهمزة لنداء البعيد او ما يشبهه، واما الهمزة فهى لنداء القريب .

قال صاحب الالفية :

وللمنادي النائى او كالنائى، يا ، وأى، وآ، كذا أيا، ثم هيا

هذا، هو الظاهر من كلام سيبويه حيث يقول : «إلا ان الاربعة غير الالف قد يستعملونها اذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخى عنهم، او للانسان المعرض عنهم الذى يرون انه لا يقبل عليهم الا باجتهاد ، او النائم المستثقل»[٢٢٨].

وقال بعضهم : ان أيا وهيا للبعيد، واى والهمزة للقريب، ويا حقيقة فى القريب والبعيد[٢٢٩].

لطائف واغراض بلاغية لصيغ النداء :

لقد ظهر مما سبق ان صيغ النداء موضوعة لطلب اقبال البعيد او القريب، بمعنى انه لوحظ فى معناها شيئان : طلب الاقبال والفاصلة المكانية، فيعرض لها باعتبار العدول من كلّ منهما لطائف واغراض بلاغية تجعل مسائل النداء من صميم المباحث البلاغية .

فالموضوعة لنداء البعيد قد تستعمل فى القريب مجازا على سبيل الاستعارة التبعية لنكت :

منها ــ الدلالة على بلادة المخاطب وغفلته وانه لا يتنبه الا باجتهاد وامتداد صوت، نحو : يا ايها الغبى، أين تذهب ؟

٢٢٨ــ الكتاب ٣٢٥/١ .

٢٢٩ــ راجع مطول ٢٤٤/١ .

وكقول ابى العتاهية يعنى نفسه :

أيا مَنْ يؤمّلُ طولَ الحياة وطولُ الحياةِ عليه خَطرْ
إذا ما كبرتَ و بانَ الشباب فلا خيرَ فى العيش بعد الكبرْ

ومنها ــ اظهار الحرص على اقبال المنادى، لان النفس اذا اشتاقت الى الشىء تحسب الزمان والمكان قبل الوصول اليه طويلا وبعيدا . نحو : يا موسى أقبِل» ٢٣٠.

ومنها ــ التنبيه على عظم شان المدعّو اليه، وكون الخطاب المتلو للنداء معتنىً به، نحو : يا ايها الرسول بلّغ ما أنزل إليك ٢٣١. يا أيها الناس اعبدوا ربكم ٢٣٢.

ومنها ــ قصد تعظيم شأن المدعّو نحو : يا ربّ .

ومنها ــ قصد انحطاطه كقول فرعون: وإنّى لأظنّك يا موسى مسحورا ٢٣٣.

والموضوعة للقريب، قد ترد لنداء البعيد مجازا تنبيها على انه حاضر فى قلب المتكلم ولا يغيب عنه فكانه ماثل أمام عينيه . كقول الشاعر :

أسُكّانَ نعمانِ الأراكِ تيقّنوا بأنكم فى ربع قلبى سُكّانُ

وقد تستعمل هذه الصيغ فى غير طلب الاقبال، على سبيل المجاز او الكناية او غيرهما كما هو التحقيق، و ذلك مثل :

١ــ الاغراء ، نحو قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلومُ . فانت تريد اغراءه على بث الشكوى واظهار التظلم، ولا تطلب اقباله لانه حاصل .

٢٣٠ــ القصص، ٣١ .

٢٣١ــ المائدة، ٧٠ .

٢٣٢ــ البقرة، ٢١ .

٢٣٣ــ بنى اسرائيل، ١٠١، راجع الدسوقى ٢/٣٣٤، والإتقان ٢/٨٥ .

٢ــ والاستغاثة، نحو يا لله للمؤمنين .

٣ــ والتعجب، نحو يا للماء .

وكقول الشاعر :

يا لكِ مِنْ قُبّرةٍ بمَعْمر خلا لكِ الجوّ، فبيضى واصفرى

٤ــ والتدلّه والتضجر والتحيّر، كما نرى فى نداء الاطلال والمنازل والمطايا، قال الشاعر :

أيا منازلَ سلمى أينَ سلماكِ ؟ مِنْ أجل هذا بكيناها بكيناكِ

٥ــ والتوجع والتحسر، كقوله :

فيا قبر معنٍ كيف واريتَ جوده وقد كان منه البرّ والبحر مُتْرعا

وكقوله :

يا عينُ بكىّ كلّ صباح جودى بأربعة على الجرّاح

٦ــ والاختصاص، هو فى الاصطلاح تخصيص اسم ظاهر أتى بعد ضمير المتكلم[٢٣٤] بيانا له، بحكم قد علق على ذلك الضمير . وهذا الاسم يمكن ان يكون «ايّها» مع صفته، نحو : انا أكرم الضيف ايّها الرجل . أو معرّفا بأل، نحو : نحن العرب أقرى الناس للضيف . او معرفا بالإضافة، نحو : نحن معاشر الانبياء لا نورث . او معرفا بالعلمية نحو : بنا تميما يُكشف الضباب .

والمراد هاهنا، تخصيص ذلك الاسم اذا جاء على صورة المنادى، بالحكم . مثل : نحن ذخائر الوطن ايّها الطلاب .

فالاصل فيه* تخصيص الطلاب بطلب الاقبال على المتكلم، ولكنه جرّد

٢٣٤ــ والمتكلم اعم من ان يكون وحده او مع الغير، فهذا الباب يجيئ فيهما . راجع عبدالحكيم، ص ٣٧٠ .

* اى فى هذا المنادى، واليه يرجع ضمير جرّد، اوالى الطلاب باعتبار المنادى .

من ذلك المعنى ونقل الى تخصيصه بما اسند الى ضمير «نحن» ، اذ ليس المراد بالطلاب شيئا غير ما يدل عليه ضمير المتكلم .

وفائدة الاختصاص اما التفاخر، نحو : أنا اكرم الضيف ايها الرجل .

او التصاغر، نحو : أنا المسكين ايها الرجل .

او مجرد بيان المقصود بذلك الضمير نحو : انا ادخل ايها الرجل .

٧ــ والندبة، نحو: يا محمداه ! ، كأنك تدعوه وتقول له : تعال، انا مشتاق اليك[٢٣٥]. فهذه المعانى كثيرة لا تنحصر فيما سبق بل يستخرج فى كل مقام ما يناسبه . فيحمل نحو قول الشاعر :

أيا منزلى سلمى، سلامى عليكما هل الأزمُنُ اللائى مَضَيْنَ رواجع؟

على التذكر .

و نحو قوله :

ايّها القلبُ قد قضيتَ مراما فإلامَ الولوعُ بالشهوات ؟

على الزجر[٢٣٦].

العلاقة بين هذه الاغراض والمعنى الاصلى

اعلم ، انّك اذا استعملت صيغ النداء فى المعانى المتقدمة و قامت قرينة على عدم ارادة المعنى الحقيقى، لم يبق الاّ تكون مجازا يعتمد على علاقة بين المعنيين . فهذه العلاقة اما مشابهة، او اطلاق وتقييد، او عموم و خصوص .

٢٣٥ــ راجع المطول ١/٢٤٥ــ٢٤٦ .

٢٣٦ــ راجع جواهر البلاغة، ١٠٦ .

فمثلا العلاقة بين النداء والتعجب او التحسر والتوجع مشابهة، اذ كل منها ينبغي الاقبال عليه والاهتمام به وامتلاء القلب بشأنه .

والعلاقة بينه والاختصاص اطلاق وتقييد، و ذلك لان اصل النداء للتخصيص بطلب الاقبال، ففي الاختصاص يجرّد من طلب الاقبال فيقيد بالتخصيص بما نسب لمدلول الضمير .

والعلاقة في الاستغاثة العموم والخصوص، لان صيغة النداء موضوعة لمطلق طلب الاقبال، والاستغاثة طلب الاقبال لخصوص الاغاثة[٢٣٧].

أساليب النداء

يجري النداء على هذه الاساليب في الاكثر :

١ـ يصحب الأمر والنهي، متقدما وهو الغالب، نحو : يا ايها الناس اعبدوا ربكم[٢٣٨]. يا عبادي فاتقون[٢٣٩].

ـ يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله[٢٤٠].

او متأخرا، نحو : وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون[٢٤١].

٢ـ يصحب الجملة الخبرية، متلوة بجملة الامر، نحو : يا ايها الناس ضرب مثل، فاستمعوا له[٢٤٢]. ونحو يا قوم هذه ناقة الله لكم... فذروها[٢٤٣].

٢٣٧ـ راجع شروح التلخيص مع حاشية الدسوقي ٢/٣٣٥ـ٣٣٧ .

٢٣٨ـ البقرة، ٢١ .

٢٣٩ـ الزمر، ١٦ .

٢٤٠ـ الحجرات، ١ .

٢٤١ـ النور، ٣١ .

٢٤٢ـ الحج، ٧٣ .

او غير متلوة بها، نحو : يا عبادى لاخوف عليكم اليوم[٢٤٤]. يا ايها الناس انتم الفقراء إلى الله[٢٤٥]. يا ابت هذا تأويل رؤياى[٢٤٦].

٣ـ تصحبه الجملة الاستفهامية، نحو : يا ابتِ لِمَ تعبد مالا يسمع و لا يبصر[٢٤٧].

ـ يا ايها النبى لم تحرّم ما احلّ الله[٢٤٨] ؟

ـ ويا قوم مالى أدعوكم[٢٤٩] ؟

ثم ان اسلوب «يا ايها» من حقه ان يستعمل فى أمور عظام وخطوب جسام، ومعان تستحق التيقظ والتنبه لها، والاقبالَ بالقلب والبصيرة عليها، و ذلك لان فيه بلاغة ليست فى غيره .

وهذه البلاغة جاءت من التأكيد والتنبيه فى «يـا» ومن التنبيه فـى «ها» ومن التّدرج من الابهام فى «أىّ» الى التوضيح .

وهذا الاسلوب هو اكثر اساليب النداء فى القرآن الكريم[٢٥٠].

←

٢٤٣ـ الاعراف، ٧٣ .

٢٤٤ـ الزخرف، ٦٨ .

٢٤٥ـ فاطر، ١٥ .

٢٤٦ـ يوسف، ٤ .

٢٤٧ـ مريم، ٤٢ .

٢٤٨ـ التحريم، ١ .

٢٤٩ـ المؤمن، ٤١ .

٢٥٠ـ راجع الإتقان ٢/٨٥ .

المبحث السادس التمني

التمني، هو طلب حصول شيء بشرط المحبة ونفي التوقع والطماعية في وقوعه، و ذلك النفي اما لكون حصول الشيء مستحيلا، نحو : ليت الشباب يعود . ليت الانسان يعرف ماذا يكسب غدا .

او لكونه ممكنا مقطوعا بعدم وقوعه، نحو : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون[٢٥١].

فخرج بقيد بشرط المحبة، سائر أنواع الطلب لأن المحبة ليست بشرط فيها . أما نفي التوقع والطماعية، فلاخراج الرجاء خاصة اذا كان المتمني ممكنا .

فالفرق بين الرجاء والتمني فيما اذا كان المتمني ممكنا، انه يشترط في التمني نفي التوقع والطماعية في حصول المطلوب بخلاف الرجاء .

اعلم انه اذا كان المطلوب ممكنا ولم ينتف التوقع والطماعية، يستعمل له لعل وعسى . «ان كان فيه توقع يستعمل فيه لعل، وان كان فيه طمع يستعمل فيه عسى . والفرق بين التوقع والطمع ان الاول ابلغ من الثاني ، ولهذا اخر الطماعية عن التوقع»[٢٥٢].

لقائل ان يقول : إنّ القوم لم يتفقوا على اشتمال الترجي على الطلب، بل قال بعض منهم : انه ليس بطلب بل هو ترقب الحصول[٢٥٣].

٢٥١– القصص، ٧٩ .

٢٥٢– چلبي، بدون رقم الصفحة .

٢٥٣– دسوقي ٢٣٩/٢ . هذا اشارة الى فرق آخر بين الرّجاء والتمني.

كلمات التمنى

اللفظ الموضوع للتمنى المتعلق بالنسبة التى بين المسند والمسند اليه، والذى يدل عليه اصالة هو «ليت» لا غير[٢٥٤].

لكن المستعمل له أربع كلمات :

١ــ ليت .

٢ــ هل .

٣ــ لو .

٤ــ لعلّ .

« ليت »

تستعمل «ليت» فى التمنى حقيقة لجريانه على الوضع والاصل، نحو : يا ليتنى كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً[٢٥٥].

« هل »

ــ «هى قد تستعمل فى التمنى تجوزا اذا امتنع حملها على معناها

٢٥٤ــ مفتاح العلوم، ١٤٧ .

٢٥٥ــ النساء، ٧٣ .

الأصلي أعني حقيقة الاستفهام، كقوله تعالى حكاية عن الكفّار : فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا[٢٥٦]. فهل هاهنا لا يصح حملها على حقيقة الاستفهام، لان الكفار يعلمون انه لاشفيع لهم والاستفهام يقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا او نفيا، «فحمل الكلام على الاستفهام يؤدى الى التناقض»[٢٥٧]. فتعين الحمل على معنى آخر غير ما وضع له لعلاقة، و ذلك المعنى عبارة عن التمنى، لانه لما حصل الجزم بانتفاء المستفهم عنه الذى هو مطلوب و محبوب لدى المتكلم، لم يبق الا طلب شيء لا يكون فيه توقع ولاطماعية في حصوله، و ذلك هو التمنى نفسه .

«فهل» مستعمل في التمنى إما «على سبيل الاستعارة التبعية بان شبه التمنى المطلق بمطلق استفهام بجامع مطلق الطلب في كل، فسرى التشبيه للجزئيات، فاستعيرت هل الموضوعة للاستفهام الجزئى للتمنى الجزئى ، و إمّا على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد في المطلق ثم استعماله في المقيد»[٢٥٨].

بلاغة «هل» في التمنى

«والنكتة في التمنى بهل والعدول عن ليت، هو ابراز المتمنى، لكمال العناية به في صورة الممكن الذى لاجزم بانتفائه»[٢٥٩].

٢٥٦ـ الأعراف، ٥٢ .

٢٥٧ـ دسوقى ٢/ ٢٤٠ .

٢٥٨ـ المصدر نفسه، ٢/ ٢٤٠ .

٢٥٩ـ مختصر مطول ٢/ ٢٤٠ .

« لــو »

هى قدتاتى للتمنى وتحمل عليه، اذاكانالمضارع الواقع بعــد الفاء فى جوابها منصوبا، نحو : ولو أنّ لنا كرّةً فنكونَ من المؤمنين[٢٦٠].

و ذلك لانه قد تقرر فى موضعه انالمضارع لاينتصب بعد الفاء إلاّ فى جواب النفى والامر والنهى والاستفهام والتمنى والعرض، ولم يضف احد على الاشياء الستة «لو» .

فاذا انتصب المضارع بعد الفاء فى جوابها، كان ذلك دليلا على انها ليست واردة على أصلها وهو الشرطية والتعليق، فتعين الحمل على معنــى آخر يجوز نصب المضارع بعد الفاء فى جوابه، على سبيل التجوز .

والأولى بالحمل عليــه بين الاشياء الستة التمنى، و ذلك لان «لــو» «فى الاصل تدخل على المحال والممنوع، والمحال يُتمنى كثيرا»[٢٦١].

بلاغة «لــو» فى التمنى

نقل الدسوقى عن شيخه العدوى، انالنكتة فى التمنى بلو والعــدول عن ليت، هى عزة المتمنى حيث أبرز فى صورة مــا لم يوجد لان «لــو»

٢٦٠– الشعراء، ٢ ١٠ .

٢٦١– دسوقى ٢/٢٤١ .

بحسب أصلها حرف امتناع لامتناع[٢٦٢].

ويمكن ان يقال : إن النكتة هو ان المتمنى ليس نفسه مطلوبا، بل المتمنى في الحقيقة ما يتفرع على مدخول «لو» اعنى جوابه .

والعلاقة بين المعنى الاصلى والمجازى، انه «كما يفرض «بلو» غير الواقع واقعا، كذلك يطلب بليت وقوع مالاطماعية فى وقوعه»[٢٦٣].

« لعل »

هى قد تفيد معنى التمنى، و ذلك كقول عباس بن الاحنف :

أسربَ القطا هل مَنْ يعيرجناحَه لعلى إلى مَنْ قد هويتُ أطير

ذكرنا ان الفرق بين لعل وليت، أن لاتوقع فى حصول مطلوب الثانى بخلاف الاول .

فالمرجو بلعل قديكون بعيدالحصول فيشبه التمنى فى عدم الحصول، فصار ترجيه كانه يتولد منه معنى التمنى فيعطى حكمه فى نصب المضارع بعده .

فعلى هذا ان لعل مستعمل فى معنى الترجى الموضوع له، وافادته التمنى ليست على سبيل المجاز بل هى من مستتبعات التراكيب، أما إفادة «هل» و «لو» معنى التمنى فهى بطريق المجاز كما سبق[٢٦٤].

٢٦٢ـ دسوقى ٢/ ٢٤١ .

٢٦٣ـ مطول، ٢٢٥ .

٢٦٤ـ راجع حاشية سيدعلى المطول، ٢٢٦، وحاشية عبدالحكيم، ٣٥٠ .

قد يقع الخبر موقع الانشاء لأغراض، منها :

١ـ التفاؤل وادخال السرور فى قلب المخاطب، نحو : وفقك الله للتقوى، اى اللهم وفقه للتقوى . فترك هذا الكلام الانشائى وعبر عنه، بالفعل الماضى الدال على تحقق الحصول للتفاؤل .

٢ـ اظهار الحرص فى وقوعه، نحو : رزقنى الله لقاءك ، اى اللهم ارزقنى لقاءه، فعبر عنه بلفظ الماضى لان الطالب إذا عظمت رغبته فى شىء كثر تصوره اياه، فربما يخيل اليه حاصلا فيورده بلفظ الماضى . فالتعبير بلفظ الماضى علامة الحرص والرغبة فى وقوع مدلول الانشاء .

فالتفاؤل واظهار الحرص يختصان بالتعبير بلفظ الماضى فقط، ولا يجريان فى غيره . «والدعاء بصيغة الماضى من البليغ يحتملهما»[٢٦٥].

٣ـ الاحتراز عن صورة الامر، كقولك لمن تعظمه وتبجّله ولا تحب ان تخاطبه بما هو فى الظاهر أمر : يستمع مولاى لحظة الى كلامى، اى استمع لحظة ...

٤ـ حمل المخاطب على تحصيل المطلوب، كقولك لمن لا يحب ان يخالفك ويكذّبك : تأتينى غدا، اى ايتنى غدا، فترك لفظ الانشاء وعبّر عنه بالخبر حملا للمخاطب على الاتيان بألطف وجه . اذ لو لم يأت لصار المتكلم كاذبا فى الظاهر .

٥ـ التنبيه على كون المطلوب قريب الوقوع لقوة الأسباب. كقولك للاساتذة بعد اعطاء الفرصة وتمهيد اسباب البحث والتحقيق : تترجمون و تألفون وتدرسون .

٦ـ القصد الى المبالغة فى الطلب حتى كأنّ المخاطب سارع فى الامتثال، نحو قوله سبحانه وتعالى : «وإذ أخذنا ميثاقكم، لا تسفكون

٢٦٥ـ تلخيص المفتاح ٣٣٩/٢ .

دماءكم»[٢٦٦]. لم يقل لاتسفكوا، قصدا للمبالغة في النهي، حتى كانهم نهوا فامتثلوا، ثم اخبر عنهم بالامتثال[٢٦٧].

٧ـ الدلالة على الكمال في بذل النوال، كقولك: تعطيني. بدل أعطني، قاصدا بذلك ان المخاطب بلغ في بذل النوال الى حد الكمال.

٨ـ الاشعار بالاستغناء عن السؤال، كقولك: «سعيتَ في حاجتي و رحمتَ ذلي وفقري وفاقتي»، مقام اسع وارحم.

٩ـ الاحتراز عما يكرهه المخاطب من عدم التقوى، نحو: «وفقك الله» بخلاف اللهم وفقه[٢٦٨].

فالخبر في هذه الصور مجاز اوكناية[٢٦٩]، و ذلك لان حصول الفعل في المستقبل لازم لطلب الفعل في الجملة، فذكر اللازم واريد الملزوم على ما هو المعروف في الكناية.

فعلى هذا ان الكناية لاتجرى في التفاؤل واظهار الرغبة، لان حصول الفعل في الماضي ليس لازما لطلب الفعل في الجملة، فتعين كونهما مجازا بعلاقة تشبيه غير الحاصل بالحاصل[٢٧٠].

وقد يُعكس فيقع الانشاء موقع الخبر للطائف منها:

١ـ اظهار العناية بالشيء والاهتمام بشأنه، كقوله تعالى: «قل امر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد»[٢٧١] لم يقل: واقامة

٢٦٦ـ البقرة، ٨٤.

٢٦٧ـ جواهر البلاغة، ١٠٩.

٢٦٨ـ شرح المفتاح للسعد مخطوط، بدون رقم الصفحة.

٢٦٩ـ المطول، ٢٤٦.

٢٧٠ـ راجع عبدالحكيم، ٣٧١.

٢٧١ـ الأعراف، ٢٨.

وجوهكم، اشعارا بالعناية بأمر الصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها فى الدين.

٢ــ التحاشي والاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق كقوله تعالى: قال إني اشهدالله، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه[٢٧٢]. لم يقل واشهدكم، تحاشيا وفرارا من مساواة شهادتهم بشهادةالله[٢٧٣].

٣ــ اظهار معنى الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الطلب، اظهارا الى درجة كأن المرضى مطلوب. قال كثيّر:

أسيئى بنا او أحسنى لاملومة.

فذكر لفظ الامر بالاساءة ثم عطف عليه بلفظ اوالامر بضدالاساءة، تنبيها بذلك على ان ليس المراد بالامر الايجاب المانع عن الترك، لكن المراد هو الاباحة التى لاتنافى تخيير المخاطب بين ان يفعل وان لايفعل. فاعلا كل ذلك لتوخى اظهار مزيدالرضا باىّ ما اختارت فى حقه من الاساءة او الاحسان[٢٧٤].

اعلم ان وقوع الانشاء موقع الخبر فى الامثلة السابقة يختلف عن وقوع الخبر موقع الانشاء، لان المراد بوقوعه موقع الخبر ان اسلوب الكلام وتركيبه من حيث التلاحم والتلاؤم يقتضى غير الانشاء، لا ان الانشاء فى هذا المقام استعمل فى معنى الخبر. بخلاف وقوع الخبر موقع الانشاء فى الامثلة المتقدمة، لان الخبر فيها قد أريد به الانشاء اما مجازا او كناية.

اما وقوع الانشاء موقع الخبر على سبيل المجاز فكقول النبى (ص): إذا لم تستح فاصنع ما شئت. اى صنعت ما شئت. فصيغة الامر لم تستعمل

٢٧٢ــ هود، ٥٤.

٢٧٣ــ جواهر الادب، ١٠٩.

٢٧٤ــ شرح المفتاح للسعد.

فى معناه[٢٧٥]. وكقوله تعالى اصبروا او لاتصبروا، بناء على ان الامر للتسوية .

وقوله : فاتوا بسورة من مثله، اذ ليس المراد طلب اتيانهم بالسورة بل خبر بعجزهم[٢٧٦].

ونحو انا افعل كذا ايها الرجل، فانه خبر معنى[٢٧٧].

مواضع الإنشاء والخبر

إذا عرفت معنى الخبر والانشاء واقسامه، فاعلم انه ليس لاسلوب الإنشاء اوالخبر موضع يخصه وفن ينحصر فيه، فيجوز ان يتواردا فى كل موضع وفن، ويستعملا لكل غاية وغرض، منفردين فى بناء عمل أدبى، او مختلطين .

فمثال انفراد الاسلوب الخبرى بتكون القطعة الأدبية، قول ابن العميد فى التهديد واللّوم :

كتابى وانا مُترجّح بين طمع فيك ويأس منك، واقبال عليك و اعراض عنك . فانك تُدلّ بسابق حرمة، وتَمُتّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية . ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسحق كل ما يرعى لك .

٢٧٥- جمع الجوامع ٢١٢/١ .

٢٧٦- راجع عروس الافراح ٣١٨/٢ و٣١٦/٢ .

٢٧٧- دسوقى ٣٣٦/٢ .

لاجرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك : أقدّم رجلا لصدّك و اؤخر أخرى عن قصدك، وابسط يدالاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، واتوقّف عن امتثال بعض المأمور فيك. ضنّاً بالنعمة عِنْدَكَ، ومنافَسةً في الصنيعة لديك ، وتاميلا لفيئتك و انصرافك، و رجاء لمراجعتك وانعطافك . فقد يغرب العقل ثم يؤوب، و يعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، و يُضاع الرأى ثم يستدرك ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو . وكل ضيقةٍ الى رخاء، وكل غمرة إلى انجلاء .

وكما أنك أتيتَ من إساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك فلابدع ان تأتى من احسانك بما لاترتضيه اعداؤك . وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت، فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت .

وسأقيم على رسمى فى الابقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيفاء والمطاولة ما امكن، طمعا فى انابتك وتحكيما لحسن الظن بك .

فلست اعدم فيما أظاهره من اعذار واردفه من انذار، احتجاجا عليك واستدراجا لك .

فان يشاءالله يرشدك، ويأخذ بك الى حظك ويسدّدك، فانه على كل شىء قدير، وبالاجابة جدير[٢٧٨].

ومثال انفراد الاسلوب الانشائى ببناء القطعة الادبية، قول عبدالله بن جعفر الطالبى فى النصيحة :

إذا كنت فى حاجة مُرسلاً ... فأرسل حكيما ولاتُوصهِ
وان بابُ أمرٍ عليك التوى ... فشاوِرْ لبيبا ولاتَعصه

٢٧٨- يتيمة الدهر ١٦٧/٣ .

وان ناصح منك يوما دنا فلا تنأ عنه ولا تقصه
و ذا الحق لا تنتقص حقّه فإن القطيعة في نقصه
ولا تذكر الدهر في مجلس حديثا ، إذا انت لم تحصه
و نُص الحديث الى اهله ، فان الامانة في نصه
و كم من فتى عازت لبّه وقد تعجب العين من شخصه
و آخر تحسبه انوكا و يأتيك بالأمر من نصه

فالقطعة الادبية كلها تكونت من اسلوب الانشاء الطلبي اعني الامر والنهي، وغير الطلبي وهو كم الخبرية[279].

ومثال اختلاط الانشاء بالاخبار ـ و هو الاكثر ـ قول هانيء بن قبيصة الشيباني في تحريض قومه على القتال يوم ذي قار :

يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناجٍ فرور، ان الحذر لا ينجي من القدر، وان الصبر لمن اسباب الظفر. المنيّة ولا الدنيّة . استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور اكرم منه في الاعجاز والظهور .
يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد[280].

وفي الختام نضيف ان الخبر والانشاء وان كانا يتورد ان في كلّ عمل ادبي ولكل غاية وغرض، الا ان الانسب ببيان الحقائق العلمية، و وصف الطبيعة، وسرد القضايا التاريخية الاسلوب الخبري ، او الاكثار منه . كما ان الاجدر بالخطابة ومقام الترغيب والترهيب والدعوة الى العمل او الترك هو اسلوب الانشاء .

٢٧٩ـ علم المعاني، ٦٦ .
٢٨٠ـ الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ٢٨ .

الفصل الرابع : فى القصر

القصر لغة واصطلاحا

القصر فى اللغة، الحبس . جاء فى القرآن الكريم : حور مقصورات فى الخيام[٢٨١]، اى محبوسة فيها .

وفى الاصطلاح ، تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص . و ذلك كقول لبيدبن ربيعة العامرى :

وما المال والاهلون إلاّ ودیعة[٢٨٢] ولابدّ يوما ان تردّ الودائع

ففى هذا البيت قد خصص المال والاهل من طريق «النفى والاّ» ، بالوديعة . يسمى الشيء المخصص فى الاصطلاح مقصورا او محصورا ، والشيء المختص به مقصورا عليه او محصورا عليه، ويسمى المقصور والمقصور عليه طرفى القصر .

القصر والتخصيص يستلزم دائما النفى والاثبات، و ذلك اعم من ان يكونا مذكورين فى الكلام مثل البيت السابق، او غير مذكورين، نحو : ايّاك نعبد وايّاك نستعين .

ثم القصر انما يتصور لشيئين بينهما نسبة، لان القصر فى الحقيقة صفة للنسبة، والمراد من النسبة اعم من النسبة الاسنادية اعنى ثبوت شيء لشيء، والتعليقية اعنى تعلق شيء بشيء على نحو من الأنحاء .

فعلى هذا ان القصر فى ما ضرب زيد الا عمرا، قصر لضرب زيد على

٢٨١- الرحمن، ٧٢ .

٢٨٢- ويروى ودائع .

عمرو . وما قيل انه من قصر الفاعل على المفعول فمن التجوز، والمراد قصر ضاربية زيد على عمرو، فيكون من قبيل قصر الصفة على الموصوف، أعني المنسوب والمنسوب اليه في المعنى لا في اللفظ[٢٨٣].

مواقع القصر

اذا عرفت ان القصر لا يقع بين شيئين الا بشرط وجود نسبة اسنادية او تعليقية بينهما، فاعلم ان القصر يقع في الموارد الآتية :

١ـ بين كلّ مسند ومسند إليه، نحو : إنما الحياة الدنيا لعب و لهو[٢٨٤]. لا يخاف إلا الخائنُ . لا تُكسَر بهبوب الرّياح إلا الأشجارُ الباسقةُ .

٢ـ بين جميع متعلقات الفعل ماعدا المصدر المؤكد والمفعول معه، فيجري القصر مع هذه المتعلقات :

مع الفاعل والمفعول، نحو : لا يعلم الغيب إلاّ الله .
ـ المفعولين، نحو : ما أعطيته إلاّ كتابا .
ـ المجرور، نحو : ما سمعت هذا الحديث إلاّ منه .
ـ الظرف، نحو : لا يقاتل الجندي البطل إلاّ أمام الصفوف .
ـ الحال، نحو : لا يدعو المؤمنون ربّهم إلاّ مخلصين له الدين .
ـ التمييز، نحو : ما صغر اللئيم إلاّ نفسا .

٢٨٣ـ عبدالحكيم، ٣٢٦ .
٢٨٤ـ محمد، ٣٦ .

ـ الصفة، نحو : ما عرفت زائرا إلا الوالدين كامل الشفقة[٢٨٥].

ـ البدل، نحو : ما قال لى احد إلا أخوك .

ـ المفعول له، نحو : ما أشعلت المصابيح إلا إنارةً للشوارع .

أمّا المصدر المؤكد فانهم أجمعوا على منع القصر بينه وبين الفعل[٢٨٦]، فلايقال : ما رميت الا رميا، وما جاء في القرآن الكريم : ان نظن الا ظنا[٢٨٧]، فمعناه الا ظنا ضعيفا، فهو مصدر نوعى .

واما المفعول معه، فلا يجىء بعد «الا» فلا يقال : ما سرت الا والنيلَ ، و ذلك لان ما بعد «الا» كأنه منفصل من حيث المعنى عما قبله، لمخالفته له نفيا اواثباتا. فتؤذن «الا» من حيث المعنى بنوع من الانفصال، وكذلك الواو، فاستهجن عمل الفعل مع حرفين مؤذنين بالفصل . ولهذا الدليل نفسه لايقع عطف النسق بعد «الا» فلا يقال : ما قام زيد الا و عمرو . واما وقوع واو الحال بعدها فى نحو : ما رأيت عاقلا الا وقلبه أمام لسانه، فلعدم ظهور عمل الفعل لفظا بعد الواو[٢٨٨].

٢٨٥ـ اعلم ان القصر فى الصفه بالنفى والاستثناء كالمثال المتقدم إنما يأتى اذا لم يعلم قطعا دخول مابعد «الا» فى ماقبلها، فتكون «الا» فى هذه الصورة بمعنى «غير» وتحمل على الصفة، ولكن اعرابها يظهر فيما بعدها . اما اذا علم دخول المستثنى قطعا فى المستثنى منه، فلايكون ما بعد الا صفة بل بدلا .

٢٨٦ـ لعل دليل الاجماع هو انه يلزم فى القصر ان يكون الطرفان متغايرين، و ذلك منتف فى المصدر المؤكد مع فعله .

٢٨٧ـ الجاثية، ٣١ .

٢٨٨ـ راجع الدسوقى ٢/٢٢٤ .

أقسام القصر

١ـ القصر باعتبار الطرفين

ينقسم القصر باعتبارات مختلفة الى اقسام، فينقسم باعتبار الطرفين الى قسمين :

١ـ قصر الموصوف على الصفة .

٢ـ قصر الصفة على الموصوف .

فالمراد بالصفة هنا ليس ما يعنيه النحويون، اعنى التابع الذى يدل على معنى فى متبوعه، بل تفسر تارة با«لمعنوية» وتارة بـ «المعنى القائم بالغير»[٢٨٩].

قال الدكتور درويش الجندى: «المراد بها مايقابل الذات، وهو المعنى الذى يقوم بغيره سواء دل عليه بالوصف كـ «كاتب» فى قولك : ما زيد الاّ كاتب، او دل عليه بغير الوصف كالفعل فى قولك : ما زيد الاّ يكتب .

والمراد بالموصوف هنا كل ما يقوم به غيره، والغالب ان يكون دالا على ذات كما فى الامثلة السابقة، وقد يدل فى نفسه على معنى قائم بغيره، كما فى قوله تعالى : «ما نعبدهم الاّ ليقرّبونا الى الله زلفى»[٢٩٠] فقد قصرت العبادة على التقريب قصر موصوف على صفة، مع ان العبادة ـ وهى المقصود ـ تدل فى نفسها على معنى قائم بغيره»[٢٩١].

٢٨٩ـ راجع الايضاح، ٢/١٦٩ والتلخيص مع المطول، ١٦٢ .

٢٩٠ـ الزمر، ٢ .

٢٩١ـ علم المعانى، ١٣٠ .

فالنسبة بين الصفة المعنوية وبين النحوية عموم وخصوص من وجه ؛ لتصادفها في نحو : اعجبتني هذه التضحية، وانفراد الصفة المعنوية في نحو: يقدّم شعبنا نفسه الى العالم ببطاقة الاستشهاد والتضحية ، وانفراد النحوية في نحو : أحْسِن بهذا الرّجل .

لا يقال : كيف يمكن تصادق الصفة المعنوية والنحوية في مادة، وهما متباينتان، لان النحوية من مقولة اللفظ والمعنوية من مقولة المعنى .

لانا نقول : المراد من التصادق التحقق والاعتبار، وان كانت الجهة والحيثية متغايرة فيهما .

ولك ان تقول : ان هذا التقسيم غير حاصر لجميع افرد القصر باعتبار الطرفين، وذلك لان منها قصر الموصوف على الموصوف. مثل قول المعرّي:

وانْ كان في لِبْسِ الفتى شرفٌ لـه
فما السيفُ إلاّ غمدهُ والحمائلُ

فليس واحد من طرفي القصر وهما السيف والغمد بصفة .

وأجيب بان المراد من الصفة ـ وهي المعنى القائم بالغير ـ يعم ما كان تحقيقيا او تقديريا . فعلى هذا يقدر قول المعرّي بـ «فما السيف الاّ كونه غمده ...» او «فما السيف الاّ مقصور على الاتصاف بكونه غمدا...» فيؤول الكلام الى قصر الموصوف على الصفة .

هذا اذا اعتبر التقدير في جانب المقصور عليه، اما اذا اعتبر التأويل في جانب المقصور، فيقدر حينئذ بـ «فما كون السيف الاّ غمده» و يؤول الكلام الى قصر الصفة على الموصوف[٢٩٢].

فظهر مما تقدم ان مايشبه قول المعرى يحتمل وجهين: قصر الموصوف

٢٩٢ـ راجع المطول مع حاشية جلبي، ١٦٢ .

على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف، ويتغير المعنى على حسب التأويل والتقدير. فيعتبر حصران في حصر واحد «لكن يترجح المتبادر من التركيب منهما»[٢٩٣].

بقيت هنا نكتة، وهي ان التأويل او التقدير كما يصح اعتباره في الصفة المعنوية يصح اعتباره في النحوية ايضا، فيقدّر قولك : احسن بهذا الرجل، باتصاف المشار اليه بكونه رجلا . فتكون الصفة المعنوية أعم مطلقا من النعت النحوي[٢٩٤].

وعندي أن الأولى ان نفسر الصفة بالمنسوب او المسند، والموصوف بالمنسوب اليه او المسند اليه . لان الملحوظ في المسند اليه الذات او ما يقوم به الغير، بخلاف المسند او المنسوب، فالملحوظ فيه جهة القيام بالغير. ويمكن ارجاع جميع مواقع القصر الى القصر بين المسند والمسند اليه، او المنسوب والمنسوب اليه تحقيقا او تقديرا . كان نقول مثلا في «لا يدعو المؤمنون ربّهم الاّ مخلصين ...» : ما المؤمنون إلاّ مخلصون، او ما دعاء المؤمنين إلا في حال الإخلاص . وفي «ما صَغُرَ اللئيم الاّ نفسا» ما صِغرُ اللئيم الاّ في النفس، وقس عليهما بقية مواقع القصر .

فما كان المقصور في التأويل مسندا اليه والمقصور عليه مسندا، فهو من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، وما كان بالعكس فهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف .

٢ـ القصر باعتبار الحقيقة والواقع

ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع الى قسمن ايضا :

٢٩٣ـ مواهب الفتاح، ٢/٢٢٤ .

٢٩٤ـ المصدر نفسه، ٢/١٧١ .

١ــ حقيقي .

٢ــ غير حقيقي .

والحقيقي، عبارة عن اختصاص المقصور بالمقصور عليه في الواقع و نفس الامر، بحيث لايتجاوزه الى غيره أصلا . ويقال ايضا : والحقيقي تخصيص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة الى جميع ماعداه. نحو : لايبقى الا وجهُه ولايدومُ الا ملكُه . فالبقاء والدوام مقصوران في الحقيقة و نفس الامر على الله تعالى وملكه وقدرته، ولايتحققان في غيرهما ابدا .

وانما سمي هذا النوع من القصر بالحقيقي، لان حقيقة القصر تنافي الاشتراك، «ولذلك يتبادر هذا المعنى عند اطلاق التخصيص وما في معناه»[٢٩٥].

وغير الحقيقي، هو تخصيص المقصور بالمقصور عليه، بمعنى انه لايتجاوزه الى بعض ملحوظ، لا الى جميع ماعدا المقصور عليه . ويسمى هذا القسم القصر المجازي والاضافي ايضا. ومثال ذلك قولك: وما الشبابُ الا ضيفٌ مُرْتَحِلٌ . فالشباب في الواقع ليس مقصورا على الوصف بانه الضيف المرتحل، بمعنى انه لايوصف بصفة اخرى . بل انما وقع القصر والتخصيص بالنسبة الى أن الشباب ليس بدائم ولا باقٍ، كما قال فيلسوف المعرّة :

سار الشبابُ فلم نعرِف له خبراً — و رأينا خيالا منه مُنْتابَا

إن الشبيبةَ نارٌ، إن اردتَ بها — أمرا، فبادره إن الدهرَ مُطْفيها

اعلم انه قد يقصد بالقصر حقيقيا اوغيرحقيقي المبالغة، لعدم الاعتداد

٢٩٥ــ حاشية السيد على المطول، ٢٠٤ . هذا اذا اطلق الحقيقي على ما يقابل المجازي، واما اذا اطلق على ما يقابل الاضافي فالتسمية بالحقيقي باعتبار ان القصر فيه بالنسبة الى جميع ماعدا المقصور عليه .

بما عدا المقصور عليه كله او بعضه، فتصير الاقسام أربعة :

١ـ القصر الحقيقي تحقيقا، بمعنى ان المقصور لايوجد في غير المقصور عليه في الواقع، من غير قصد المبالغة . و ذلك نحو : لايُنيرُ القمرَ الاّ شمسُ نهارِنا .

٢ـ القصر الحقيقي مبالغة، بمعنى ان تخصيص المقصور بالمقصور عليه وعدم تجاوزه منه، مبنيٌّ على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور ، و ذلك لوجدان المقصور في غير المقصور عليه تحقيقا. كقول ابي العتاهية:

ألا إلى اللهِ تصيرُ الامورْ ما أنتِ يا دُنيايَ الاّ غرورْ

٣ـ القصر الاضافي تحقيقا، بمعنى تخصيص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة الى بعض معيّن لايوجد المقصورُ فيه تحقيقا، كقولك: شرف الفتى بعلمه لا بلِبْسه .

٤ـ القصر الاضافي مبالغة، بمعنى ان المقصور وان كان يوجد في ماعدا المقصور عليه المعيّن، لكن ينفي وجوده فيه ادعاء ، لعدم الاعتداد بذلك البعض المعين، كقولك : شرف الفتى بعلمِه لا بكرِمه . فالشرف كما يكون في العلم يكون في الكرم ايضا، لكن يمكن ان يُدّعى في مقام الاهتمام بشأن العلم بقصر الشرف على العلم و نفيه عن الكرم .

فهذه الاقسام الأربعة، اما قصر الموصوف على الصفة اوقصر الصفة على الموصوف، فتصير الاقسام ثمانية . غير ان قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا على وجه التحقيق ـ مثل : لم يكُن جمالُ الدين الاسدآبادي الاّ حرباً على المستعمرين ـ لايكاد يوجد، لتعذر الاحاطة بصفات الشيء حتى يمكن اثبات شيء منها ونفي ماعداها بالكلية . وايضا للصفات المنفية نقائض لايصح نفيها، لامتناع ارتفاع النقيضين . فاذا اريد في المثال

٢٩٦ـ راجع مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/١٧٤ـ١٧٥ .

المذكور ان جمال الدين لا يوصف بغير كونه حربا على المستعمرين، لزم ان لا يوصف مثلا بالقيام ولا بنقيضه وهو محال[٢٩٧].

اما قصر الصفة على الموصوف، فلا تعذر ولا تعسر في وقوعه. بل منه ما يقع كثيرا، مثل : لا إله إلاّ الله . و ما خاتم الأنبياء الاّ المصطفى (ص) .

فان قلت : ماالفرق بين القصر الحقيقي مبالغة، وبين القصر الاضافي تحقيقا او مبالغة ؟ قلت : انهما وان كانا يشتركان في صحة اتصاف المقصور بغير المقصور عليه، الا ان النفي في الحقيقي على وجه المبالغة يتوجه الى جميع ماعدا المقصور عليه، فيقتضي عدم الاعتداد بغيره كله . وايضا لا يشترط فيه اعتقاد المخاطب على احدى الصور المعتبرة في الافراد، والقلب، والتعيين، التي ينقسم اليها القصر الاضافي .

وفي القصر الاضافي، يتوجه النفي وعدم الاعتداد الى بعض ما عدا المقصور عليه، ويشترط فيه اعتقاد المخاطب على احدى الصور الملحوظة ايضا[٢٩٨].

بقي ان يقال: ان الادعائي من الحقيقي يمتاز من الاضافي الحقيقي، بانه لا يتحقق في نفس الامر والواقع، فيعتبر مجازا لا كذبا لبنائه على التأويل . امّا الاضافي الحقيقي فيتحقق في الواقع ونفس الامر اذا كان صادقا، و اذا لم يتحقق اعتبر كاذبا بالنسبة الى القصر والتخصيص لخلو الكلام من تاويل يبرّر عمليّة القصر .

٢٩٧ـ راجع التخليص مع المطول، ١٦٢ .

٢٩٨ـ راجع حاشية السيد، ٢٠٦ .

٣ـ القصر باعتبار اعتقاد المخاطب

ينقسم القصر من هذه الناحية الى ثلاثة اقسام :
١ـ قصر افراد .
٢ـ قصر قلب .
٣ـ قصر تعيين .

فالأول ـ ما كان المخاطب به من يعتقد وجود المقصور فى المحصور عليه وغيره، بمعنى انه يعتقد شركة صفتين اواكثر فى موصوف واحد فى قصر الموصوف على الصفة، وشركة موصوفين اواكثر فى صفة واحدة فى قصر الصفة على الموصوف، فينفى المتكلم الشركة ويخص المقصور بالمقصور عليه فقط . و ذلك كقول المعرّى :

خَفّفِ الوطءَ ما أظنُّ اديمَ الـ أرضِ، إلاّ مِنْ هذهِ الأجْسادِ

فى قصر الموصوف على الصفة، اذا كان المخاطب من يعتقد تكوّن الارض من الأجساد ومادة اخرى غيرها .

وكقولك : عِندَ الامتحانِ يُكرمُ المرءُ اويُهان .

فى قصر الصفة على الموصوف، اذا كان من تخاطبه بهذا الكلام رجلا يعتقد بوجود الاكرام والاهانة فى الامتحان وغيره .

انما سمى هذا القسم افرادا، لانك نفيت الشركة التى اعتقدها المخاطب، وافردتَ المحصور بالمحصور عليه .

ويشترط فى قصر الموصوف على الصفة افرادا عدم تنافى الوصفين ، فلايكون مفهوم احدهما عين نفى الاخر كالمتفحمية والشاعرية، ولاملزوما له لزوما بيّنا يحصل فى الذهن بحصوله كالقعود والقيام . اذلوكان كذلك لم يتصور اعتقاد المخاطب اجتماعهما، لان امتناع اجتماع النفى والاثبات

من أجلى البديهيّات فلايتحقق قصر الافراد الا بتنائه على اعتقاد الشركة .

وفى قصر الصفة على الموصوف عدم تنافى الاتصافين ، والا لم يتأت الاعتقاد من جانب المخاطب بشركة الموصوف المذكور وغيره فى تلك الصفة ولم يقع قصر الافراد، كما ترى فى قولك : لا أبَ لزيدٍ الا عمرو . فالابوة مما لا يصلح قيامه بمحلين[٢٩٩].

والثانى ـ ماكان المخاطب به من يعتقد عكس الحكم الذى اثبته المتكلم . كقولك لمن يعتقد ان اخاك غيرُ صائم : ليس اخى الا صائما ، ولمن يعتقد ان شاعر الرسول غير حسان بن ثابت : ليس شاعر الرسول الا حسان بن ثابت .

سمى هذا القسم بقصر القلب لما فيه من قلب حكم المخاطب كلّه من جانب المتكلم .

والثالث ـ ماكان المخاطب[٣٠٠] به مترددا بين ثبوت المقصور عليه و غيره للمقصور «اعنى الاتصاف بالصفة المذكورة وغيرها فى قصر الموصوف، واتصاف الامر المذكور وغيره بالصفة فى قصر الصفة»[٣٠١] وذلك مثل قولك لمن يتردد بين جوعك وعطشك : ما انا الا جائع، ولِمن يتردد فى حفر بئر زمزم بين عبدالمطلب وابى طالب : ما حافرُ بئرِ زمزمٍ الا عبد ـ المطلب .

فرفعتَ فى كلّ من المثالين تردّد المخاطب، وعيّنتَ ما كان غير معين عنده، ولهذا سمّى هذا القسم بقصر التعيين .

٢٩٩ـ راجع حاشية عبدالحكيم، ٣٣١ وحاشية الدسوقى ١٨٢/٢ .

٣٠٠ـ قد يخاطب بهذه الاقسام من يعتقد ان المتكلم يعتقد الشركة ، او عكس الحكم المذكور، اويتردد بين ثبوت المحصور عليه وغيره .

٣٠١ـ المختصر، ١٨١/٢ .

ثم ان كلا من قِصر القلب والتعيين يتحقق مع تنافي الوصفين او الاتصافين ومع عدمه، خلافا للخطيب القزويني في اشتراطه التنافي في قصر القلب .

وان كلا من الافراد والقلب والتعيين يجرى مع قصر الموصوف على الصفة ومع قصر الصفة على الموصوف كما رأيت، غير ان الظاهر من عبارة الايضاح والتلخيص[٣٠٢] اختصاص تلك الاقسام بالاضافي وعدم جريانها في القصر الحقيقي

وعلله التفتازاني بقوله: «اذ العاقل لا يعتقد اتصاف امر بجميع الصفات، ولا اتصافه بجميع الصفات غير صفة، ولا يردده ايضا بين ذلك . وكذا اشتراك صفة بين جميع الامور»[٣٠٣].

وفيه نظر اذ لا مانع في قصر الصفة على الموصوف ان يعتقد المخاطب حقيقة او ادعاء اتصاف كل شيء بصفة من الصفات او اتصاف غير من أثبتت له، بها . وكذلك لا مانع في قصر الموصوف على الصفة، ان يعتقد المخاطب اتصاف امر بجميع الصفات او اتصافه بجميع الصفات غير صفة ادعاء . نعم ان وجود الاعتقاد في الاضافي اكثر واظهر وان الحقيقي لا يقصد به في الغالب نفي الاعتقاد[٣٠٤].

طرق القصر

سبق ان القصر في الاصطلاح هو تخصيص شيء بشيء بطريق

٣٠٢– شروح التلخيص ١٧٥/٢ .

٣٠٣– المطول، ٢٠٧ .

مخصوص ، ومعنى هذه العبارة ان عمل التخصيص لا يتاتى فى الكلام مطلقا وكيفما يجرى على اللسان، بل يحتاج الى رعاية امور واعتبار أسباب فى الكلام بحيث اذا خلا منها لم يقع القصر .

فهذه الامور والأسباب، تسمى طرق القصر. و هى كثيرة ، فنكتفى هاهنا على اشهرها، منها :

١ــ العطف بحروف تقتضى ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها ، و هى «لا» و «لكن» و «بل»، و ذلك كقول عنترة بن شدّاد العبسى :

وإذا غبارُ الخيل مدَّ رواقه سكرى به، لا ما جَنى العنقودُ

وقوله ايضا :

فيا ربِّ لاتجعل حياتى مذمّة ولا موتتى بين النساء النوائح

ولكن قتيلا يدرج الطير حوله وتشرب غربانُ الفلا من جوانحى

وقول المتنبى :

ليس التعجب مِنْ مواهبِ ماله بل من سلامتها الى أوقاتها

وشك بعضهم فى افادة العطف القصر، وقال انه لا يدل الا على اثبات ونفى، فقولك : الحرُّ يتحمّلُ الجوعَ لا المذلّة، بمنزلة الحرّ يتحمل الجوع والحر لا يتحمل المذلة . و ذلك لا يكفى فى القصر، لانه انما يكون بنفى جميع الصفات حقيقة او مجازا، فليس خاصا بنفى الصفة التى يعتقدها المخاطب[٣٠٥].

اقول : ليس المعطوف دائما صفة خاصة، بل يمكن ان يكون شيئا عاما . وايضا ان العطف كما يجرى فى القصر الحقيقى تحقيقا او ادعائيا ،

←

٣٠٤ــ راجع المواهب ١٧٧/٢ .

٣٠٥ــ راجع عروس الافراح ١٨٧/٢ .

يجرى فى الاضافى حتى انه اشتهر عندهم ان القصر بـالعطف لا يكون الا اضافيا[٣٠٦]، ومن المعلوم ان النفى فيه يتوجه الى ما يعتقده المخاطب[٣٠٧].

على انا لا نسلم ان العطف لا يدل الا على اثبات ونفى، بـل العطف يدل على اثبات ونفى وتاكيده، وهذا هو معنى الحصر بعينه. والدليل على ذلك انهم قالوا: «لا يعطف بـ «لا» الا بشرط ان يتضمن ماقبلها ـ بمفهوم الخطاب ـ نفى الفعل، فيكون الاول لا يتناول الثانى، نحو جاءنى رجـل لا إمرأة، وعالم لا جاهل، فلو قلت: مررت برجل لا عاقل لـم يجز، إذ ليس فى مفهوم الكلام الاول ما ينفى الفعل عن الثانى. فهى لا تدخل إلا لتأكيـد الثانى.

فإذا اردت ذلك المعنى جئت «بغير» فتقول: مررت برجل غير عاقل وغير زيد»[٣٠٨].

واشترط فى القصر بـ «بل» افادتها ثبوت ضد حكم ماقبلها لما بعدها مع تقرير النفى لما قبلها. واما اذا كان لنقل حكم ما قبلها لما بعدها وجعل ما قبلها مسكوتا عنه حتى بعد النفى كما قيل، فلا يكون قصرا[٣٠٩].

قال المعـرّى فى رثاء والده:

فهـل انتَ ـ ان ناديتُ رمسكَ ـ سامِعٌ
نداءَ ابنِكَ المفجوعِ، بـل عبدِكَ القنّ؟

٣٠٦ـ راجع المواهب ٢/١٩١ وحاشية الدسوقى ٢/١٨٦.

٣٠٧ـ فيكون القصر حينئذ قلبا او افراد اوتعيينا، ولكن كلام الشيـخ صريح فى ان «لا» تاتى لقصر القلب فقط.

٣٠٨ـ عروس الافراح ٢/١٨٩.

٣٠٩ـ راجع المواهب ٢/١٩٠.

٢ـ النفي والاستثناء ، كقوله تعالى : «وما محمدٌ الاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ ، أفإنْ ماتَ او قُتِل انقلبْتم على أعقابِكم؟»[٣١٠] في قصر الموصوف على الصفة . وقول عنترة :

ولا عاش الا مَنْ يُصاحب فِتْية
غَطاريفَ، لايعنيهم النّحسُ والسَعْدُ

في قصر الصفة على الموصوف .

ليس النفي والاستثناء يختصان بأداة معينة دون اخرى، بل يعم النفي أيّ أداة تقيد معنى النفي مثل «ليس» و «إن» و «لا» واداة الاستفهام اذا استعملت في النفي، ويشمل الاستثناء ايضا «الاّ» واخواتها، مثل «سوى» و «غير» و «حاشا» و «عدا» وغيرها . قال موسى شهوات في عبدالله بن عمر بن عثمان :

ليس فيما بدا لَنا مِنْك عيبٌ عابَه الناسُ ، غيرُ أنّك فاني

وقال قابوس بن وشمگير :

قل للذي بصروف الدّهر عيّرنا هل عاند الدّهرُ إلاّ من له خطرُ؟

اعلم انهم اختلفوا في افادة الاستثناء القصر، فذهب بعضهم الى ان الاستثناء يفيد القصر سواء كان مع النفي ام لا، فعلى هذا كان قوله تعالى: «إنّ الانسانَ لفي خسرٍ الاّ الذين آمنوا...»[٣١١] قصراً لعدم الخسران على الذين آمنوا[٣١٢].

و رأى صاحب مواهب الفتاح ان الاستثناء في الكلام الموجب لا يعدّ من طرق القصر، اذ الغرض من ذلك الكلام الاثبات، والاستثناء فيه يعتبر

٣١٠ـ آل عمران، ١٤٤ .

٣١١ـ العصر، ٢ .

٣١٢ـ راجع عروس الافراح ١٩١/٢ .

قيدا . فقولك : يُمدَح المناضلون ويُلام القاعدون الا ّ اولى الضرر ، كان بمنزلة : يلام القاعدون المغايرون لاولي الضرر . فلو كان الاستثناء في هذه الحالة من طرق القصر لكان «غير ذي عدد» في قول قابوس :

ففي السماء نجومٌ غيرُ ذي عـدد وليس يُكسَف الا ّ الشمسُ والقمرُ

ايضا من طرقه .

بخلاف ما اذا كان الكلام منفيا ـ سواء كان المستثنى منه مذكورا ام لا ـ فان الغرض فيه النفى ثم الاثبات المُحقِّقان للقصر[٣١٣].

واما السكاكي فقد اقتصر في هذا المجال على النفي والاستثناء ، ولم يتعرض الـى الاستثناء فـي الكلام الموجب . ولكن قـال شارحه الفاضل «السيد الشريف» : «واما الاستثناء من الاثبات كقولك جاء القوم الا ّ زيدا فلم يعد من طرق القصر»[٣١٤].

ويستفاد من حاشية الشارح في تعليل افادة النفي والاستثناء القصـر افرادا او قلبا : أن هذا الحكم جارٍ في المفـرّغ وما يؤول اليه، يعنى مـا اذا صُرِّح فيه بمقدر كلّي. لان المستثنى فيهما جزئي من جزئيات المستثنى منه، فيحسن ان يعتبر اعتقاد المخاطب الشركة او العكس او تردده، لاختلاف الجزئيات في الاحكام . واما اذا كان المستثنى جـزءاً من المستثنى منـه كما في قولك ما جاءني القوم الا ّ زيدا، فـلا يحسن ذلك الاعتبار، لقلـة تخالف الاجزاء في الاحكام[٣١٥].

لقد اشار المحشي المُحقّق عبد الحكيم في حواشيه على المطّول الى

٣١٣ـ راجع المواهب ١٩١/٢ .

٣١٤ـ شرح المفتاح، بدون رقم الصفحة، مخطوط بمكتبة «آستـان قدس» تحت رقم ٤٠٨١ .

٣١٥ـ حاشية السيد على شرح المفتاح، مخطوط .

ما نقلنا من شرح المفتاح وحاشيته، ثم قال: «والتحقيق ان القصر مختص بالنفي والاستثناء المفرغ وما في حكمه مما يكون المستثنى جزئيا للمستثنى منه ، لانه حينئذ يكون المقصود به الاثبات الذى يستفاد من المستثنى وانما ذكر النفي تاكيدا لاثباته، فيكون حكما واحدا متضمنا للاثبات القصدى والنفي التبعي. بخلاف ماسواهما، فان الحكم في المستثنى منه مقصود اصالة، وكذا الحكم على خلافه في المستثنى... فكلا الحكمين من الاثبات والنفي مقصودان بالافادة، ثابتان بنفس اللفظ ...

فاذا كان الحكمان مقصودين من الكلام لايكون مفيدا للقصر، لانه حكم واحد وهو تخصيص شيء بشيء يتضمن الاثبات القصدى والنفي التبعي»[٣١٦].

والذى يدل عليه كلام الخطيب هو ان طريق النفي والاستثناء انما يفيد القصر اذا كان الاستثناء مفرغا، لانه بيّن سبب افادة النفي والاستثناء القصر بين المبتدا والخبر والفاعل والمفعول وغيرها، بقوله : «و وجه الجميع ان النفي في الاستثناء المفرغ يتوجه الى مقدر هو مستثنى منه عام مناسب للمستثنى في جنسه وصفته، فاذا اوجب منه شيء بإلاّ جاء القصر»[٣١٧].

ثم ان طريق النفي والاستثناء ، يستعمل لقصر الموصوف على الصفة و بالعكس افرادا او قلبا او تعيينا، كما نص عليه الخطيب في الايضاح[٣١٨].

لكن ذكر السيد في حواشي المطول انه «لايبعد ان يقال ان طريق النفي والاستثناء ظاهر في قصر الافراد، فانك اذا قلت ما جاءني الاّ زيد

٣١٦ـ حاشية عبدالحكيم، ٣٣٣ .

٣١٧ـ التلخيص مع شروحه، ٢٣١ـ٢٣٢ .

٣١٨ـ الايضاح مع شروح التلخيص ١/١٩٢ .

كان المعنى ما جاءني احد الا ّ زيد .

فان اجرى على عمومه كان قصرا حقيقيا لا يتصور فيه الافراد والقلب والتعيين . وان خُصّ بالذين وقع فيهم النزاع كان معناه ما جاءني احد من هؤلاء الا زيد . ويتبادر منه الى الفهم افراد زيد من بينهم بهذا الحكم اعنى المجيء»[٣١٩].

وظاهر كلام الشيخ يدل على ان طريق النفي والاستثناء ياتي لقصر الافراد والقلب سواء ، فيرى ان نحو ما جاءني الا ّ زيد يحتمل وجهين :

احدهما ان تريد تخصيص المجيء بزيد ونفي الحكم عما عداه، بمعنى ان يكون كلاما تقوله لمن به حاجة الى ان يعلم انه لم يجيء اليك غيره ، لا الى ان يعلم ان زيدا قد جاءك . ـ اذ لا يشك في مجيئه ـ

الثاني، ان يكون كلا ما تقوله لمن يحتاج الى ان يعلم ان الجائي زيد لا غيره .

وعلى ذلك قوله تعالى : «ما قلتُ لهم الا ّ ما امرتَني به : ان اعبدوا الله ربي و ربَكم»[٣٢٠] لانه ليس المعنى : اني لم أزِدْ على ما امرتني شيئا، ولكن المعنى : اني لم ادَعْ ما امرتَني به ان اقولَه لهم، و قلت خلافه .

ومما جرى على هذا المعنى قوله :

قـد عَلِمَتْ سلمى و جاراتُها   مـا قطَّر الـفارسُ إلا ّ أنـا[٣٢١]

فالمعنى: الذى قطر الفارس انا لا غيري، وليس المعنى على انه يريد

٣١٩ـ حاشية السيد على مطول، ٢١١ .

٣٢٠ـ المائدة، ١٣ .

٣٢١ـ جاء في اللسان : قال الليث : اذا صرعت الرجل صرعة شديدة، قلت : قطرته، وانشد البيت .

ان يزعم انه انفرد بهذا العمل ولم يشركه فيه غيره[٣٢٢].

ثم ان الشيخ يؤيد ما سبق ويكرره حيث يقول : «واعلم ان حكم «غير» في جميع ما ذكرنا حكم «الا» فاذا قلت : ما جاءني غير زيد ، احتمل ان تريد نفي ان يكون جاء معه انسان آخر، وان تريد نفي ان لايكون قد جاء وجاء مكانه واحد آخر»[٣٢٣].

وصرح السكاكي[٣٢٤] بان طريق النفي والاستثناء يفيد قصر الموصوف على الصفة، والصفة على الموصوف افرادا وقلبا . ومما جرى على معنى الافراد، قوله تعالى: «وما انا بطارد المؤمنين، ان انا الا نذير»[٣٢٥] فمعناه أنا مقصور على النذارة لا أتخطاها الى طرد المؤمنين . وعلى معنى القلب، قوله ايضا : ما قلتُ لهم الا ما امرتني به .

٣ـ انما[٣٢٦]، فهي تاتي اثباتا لما يُذكر بعدها، ونفيا لما سواه . و لهذا قال بعض النحويين في قوله تعالى : «قل انما حرم ربي الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن»[٣٢٧] ان المعنى : ما حرم ربي الا الفواحش . ولهذا

٣٢٢ـ دلائل الاعجاز، ٢٦٠ـ٢٦١ .

٣٢٣ـ دلائل الاعجاز، ٢٦٨ .

٣٢٤ـ مفتاح العلوم، ١٣٩ .

٣٢٥ـ هود، ٢٩ .

٣٢٦ـ جاء في شرح مختصر المنتهى (٣٢٣/٢) انه اختلف في افادة «انما» القصر، فقيل لايفيد الحصر فهو ان وما مؤكدة . فقولك : انما انت نذير، في قوة انك نذير .

وقيل يفيده بالمنطوق، فلا فرق بين انما انت نذير وبين ما انت الا نذير .

وقيل يفيده بالمفهوم .

٣٢٧ـ الاعراف، ٣٢ .

فصّل الفرزدق ضمير المتكلم في قوله :

أنا الذائدُ الحامي الذّمارِ وانّما يُدافِع عن أحسابِهم أنا أو مثلي

كما يفصل مع الاّ . لان المعنى : ما يُدافِع عن أحسابهم إلا انا او مثلي[٣٢٨].

تستعمل «انما» لقصر الموصوف على الصفة كقوله تعالى : «انما انت مُنذِرُ مَنْ يخشاها»[٣٢٩].

ولقصر الصفة على الموصوف بلا خلاف، كقوله عزّ من قائل : انما تُنذِرُ مَن اتّبعَ الذكرَ وخشي الرّحمْنَ بالغيب»[٣٣٠] وقولهم : انما يعجَل من يخشى الفوت .

واما استعمالها للافراد والقلب فمحل خلاف . وبيان الشيخ في دلائل الإعجاز صريح في ان «لا» و «انما» تاتيان لقصر القلب فقط، لانه يقول في بيان المراد من جاءني زيد لا عمرو :

«فهو كلام تقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هذا، فيتوهم انه كان من ذلك .

والنكتة أنه لاشبهة ليس ههنا جائيان، وانه ليس الاّ جاء واحد . و انما الشبهة في ان ذلك الجائي زيد ام عمرو . فأنت تحقق على المخاطب بقولك : جاءني زيد لا عمرو انه زيد وليس بعمرو .

ونكتة اخرى : وهي انك لاتقول : جاءني زيد لاعمرو، حتى لا يكون قد بلغ المخاطب انه كان مجيءٌ اليك مِنْ جاءٍ، الاّ انه ظن انه كان من عمرو، فاعلمته أنه لم يكن من عمرو، ولكن من زيد» .

٣٢٨ـ راجع دلائل ٢٥٢ـ٢٥٣ .

٣٢٩ـ النازعات، ٤٥ .

٣٣٠ـ يس، ١١ .

ثم يقول : «واذ قد عرفت هذه المعانى فى الكلام بلا العاطفة فاعلم انها بجملتها قائمة لك فى الكلام بإنما»[٣٣١] ثم يفسر انما جاءنى زيد كما فسر جاءنى زيد لا عمرو .

ولكن ذكر صاحب الايضاح ان «لا» و «انما» تاتيان للقلب والافراد سواء . وعبارة التلخيص ايضا ينبىء عما اعتقده فى الايضاح من القلب والافراد فيهما[٣٣٢].

فائدة ـ لم يذكر البلاغيون فى طرق القصر «أنما» بالفتح مع ان الموجب للحصر أعنى التضمن للنفى والاموجود فيها ايضا. قال الزمخشرى[٣٣٣]: انما لقصر الحكم على شىء او لقصر الشىء على حكم كقولك : انما زيد قائم وانما يقوم زيد . وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية: «قل انما يُوحى الىّ أنما الهكم اله واحد»[٣٣٤].

٤ـ التقديم، وهو ينقسم الى قسمين :

الاول ـ تقديم ماحقه التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ والمعمولات مثل المفعول والمجرور والحال على العامل . وذلك كقول محمود درويش:

الى الأعلى
حنا جُرنا
الى الأعلى مَعاجِرُنا
الى الاعلى أمانينا
الى الأعلى أغانينا[٣٣٥]

٣٣١ـ دلائل الاعجاز، ٢٥٩ .
٣٣٢ـ راجع الايضاح ١٨٧ـ١٩٣ والتلخيص ١٩٧ـ١٩٣ .
٣٣٣ـ الكشاف، ٢٣/٣ .
٣٣٤ـ الانبياء، ١٠٨ .

وكما نقرأ في سورة الفاتحة : «اياك نعبد واياك نستعين» .

وكقول فدوى طوقان :

لن يَقعدَ الأحرارُ عن ثأرهم   وفي دم الأحرار يغلي النقمُ [٣٣٦]

يشترط في تقديم الخبر على المبتدأ المفيد للقصر ان لايكون المبتدأ نكرة قدم عليها الخبر وجوبا، لان التقديم حينئذ لا يفيد القصر[٣٣٧] كقولك : على قلبي سكاكينُ، وفي صدري حكاياتٌ .

وتقديم ما حقه التأخير، يصلح لقصر الموصوف على الصفة، والصفة على الموصوف افرادا اوقلبا اوتعيينا .

الثاني ــ تقديم المسند اليه على المسند في مثل : ما انتم تسمعون صُراخَ الجِياع، ايها المترفون . اي : ما سمعتم هذا الصراخ مع انه مسموع لغيركم، فلايقال هذا الكلام الا اذا ثبت أن الصراخ مسموع و كان القصد ان ينفى أن يكون المخاطبون المترفون سامعين له، فالشبهة في انفراد المترفين بالسماع اومشاركتهم لغيرهم فيه .

اما اذا كانت الشبهة في صراخ لم يثبت سماعه، فالصحيح ان يقال: ما تسمعون صراخ الجياع ايها المترفون .

ولا يكون تقديم المسند اليه نصا في التخصيص عند عبدالقاهر الا اذا ولي حرف نفي كما رايت في المثال، وفي غير هذه الصورة قد يفيد التقديمُ التخصيص افرادا وقلبا، وقد يفيد تقوي الحكم وتقريرَه مضمرا

٣٣٥ــ الشعر المقاتل في الارض المحتلة، ١٣٢ .

٣٣٦ــ وحدي مع الايام، ١٣٧ .

٣٣٧ــ راجع المطول، ١٠٥ والمواهب، ١١٢/٢ و حاشية الدسوقي ٢٠٢/٢ .

كان المسند اليه او مظهرا، معرفة او نكرة، مثبتا كان الفعل او منفيا[٣٣٨].

ومذهب السكاكى ان المسند اليه ان كان نكـرة فتقديمه للتخصيص ان لم يمنع منه مانع، وان كان معرفة فان كان مظهرا فلايكون للتخصيص قطعا، وان كان مضمرا فان اعتبر تقديركونه فى الاصل مؤخرا على انه فاعل معنى فهو للتخصيص[٣٣٩]، نحو : أنت تزدانُ بالعدلِ والاحسانِ .

فالسكّاكى يجيز تقديم الفاعل المعنوى دون اللفظى، ولا يخفى انهما سواء فى امتناع التقديم ما بقيا على حالهما[٣٤٠].

٥ـ التعريف بلام الجنس، كقولك فى قصر الموصوف على الصفـة : الحرُّ من لم يكن عبدً نفسه . وفى قصر الصفـة على الموصوف : قضيـة فلسطين المأساةُ .

اعلم انك اذا جعلت المعرّف بلام الجنس مبتدأ، صار مقصورا علـى الخبر . سواء كان الخبر معرفا بلام الجنس اوغيره، مثل : الكرم هو التقوى اى لاغيرها، والمؤمن الشجاع اى لاالجبان، والبطل هذا، وغير ذلك . او غير معرّف اصلا، نحو : التوكل على الله، والتفويض الى امر الله، والفصاحة للقريش .

وان جعلته خبرا فهو مقصور على المبتدأ، كقولك : سلاحُنا الايمان وشعارنا الإسلام[٣٤١].

واذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفا بلام الجنس كقولك : العقل

٣٣٨ـ دلائل الاعجاز، ٩٦ـ٩٩ والمطول، ٨٨ـ٩٤ .

٣٣٩ـ فتقديم المسنداليه فى هذه الحالة يرجع الى القسم الاول، اعنى تقديم مالحقه التاخير .

٣٤٠ـ راجع المطول، ٩٤ـ٩٥ .

٣٤١ـ المطول، ١٤٦ .

الزَيْنُ، والجهل الشَيْنُ، والعلم المال، فالظاهر انه قصر للمبتدأ على الخبر . لان القصر فى هذا الباب مبنى على قصد الاستغراق وشمول جميع الافراد، و ذلك أنسب بالمبتدأ اذ القصد فيه الى الذات وفى الخبر الى الصفة[٣٤٢].

وقال عبدالحكيم : «الصواب ان يقال انه اذا كان احدهما اعم فهو المقصود، وان كان بينهما عموم من وجه يفوض الى القرائن، وان لم توجد قرينة فالاظهر قصر المبتدأ على الخبر»[٣٤٣].

ولا يخفى ان القصر بلام التعريف يختص بالمبتدأ والخبر ويجرى فيهما فقط .

بقيت نكتة، وهى ان التعريف بلام الجنس ـ اعم من ان يتحقق فى المبتدأ او الخبر ـ لا يفيد القصر دائما، كما ترى فى قول الخنساء فى مرثية اخيها صخر :

اذا قبُح البكاءُ على قتيلٍ　　رأيتُ بكاءَك الحسنَ الجميلا

فالخنساء لم تُرد قصر الحسن على بكائه بأن لا يتجاوزه الى شىء آخر، والا لم يحسن جعله جوابا لقوله اذا قبح البكاء على قتيل، اذ لا معنى للقصر فى نحو قولنا : «اذا قبح البكاء على قتيل لم يحسن الا بكاؤك» على ما لا يخفى على من له معرفه باساليب الكلام . لظهور ان الغرض ان تثبت لبكائه الحُسْنَ، وتخرجه من جنس بكاء غيره من القتلى[٣٤٤].

٣٤٢ـ راجع حاشية السيد على المطول ، ١٧٨ـ١٧٩ .

٣٤٣ـ حاشية عبدالحكيم ، ٢٩٢ .

٣٤٤ـ المطول ١٤٧ .

٦ـ ضمير الفصل، قال التفتازاني : التحقيق ان الفصل قد يكون للتخصيص اى قصر المسند على المسند اليه، نحو : زيد هو افضل من عمرو، و زيد هو يقاوم الاسد .

ذكر صاحب الكشاف فى قوله تعالى : «ألم تعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده»[٣٤٥]، أن «هو» للتخصيص والتأكيد[٣٤٦].

وقد يكون لمجرد التأكيد اذا كان التخصيص حاصلا بدونه بان يكون فى الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند اليه، نحو : ان الله هو الرزاق، اى لا رازق الا هو ، وقصر المسند اليه على المسند ، نحو ، الكرم هو التقوى، والحسب هو المال، اى لا كرم ولا حسب الا لمال. قال ابو الطيب:

اذا كان الشبابُ السُكْرَ والشيب همّا ، فالحياةُ هى الحِمام[٣٤٧]

ميزات طرق القصر الستة

ان هذه الطرق المذكورة بعد الاشتراك فى افادة القصر تختلف من وجوه :

يمتاز العطف من بقية الطرق بالنص على المثبت والمنفى نفسهما نحو: الفخر بالتقوى لا بالنسب، فلهذا لا يعقل منه الحكمان دفعة واحدة ، بخلاف سائر الطرق حتى النفى والاستفهام . لان صورة العطف تحتمل الاستقلال، والاستثناء مرتبط بالمستثنى منه فيفيد الحكمين معا بواسطة

٣٤٥ـ التوبة، ١٠٥ .
٣٤٦ـ الكشاف، ٢/١٧١ .
٣٤٧ـ المطول، ٨٦ .

ذلك الارتباط[٣٤٨].

نعم قد يذكر موضع المنفى ما يدل عليه اجمالا فيما اذا كان متعددا يوجب ذكره نفسه الاطناب فنقول : الفخر بالتقوى لاغير، اذا كان المخاطب معتقدا الفخر بالنسب والمال والجاه و ...

واما بقية الطرق فالاصل فيها ان ينص على المثبت فقط كما عرفت .

ويجتمع النفى بلا العاطفة سائر طرق القصر غير النفى والاستثناء ، و ذلك لان شرط المنفى بلا ان لا يكون منفيا قبلها بغيرها من أدوات النفى.

واشترط[٣٤٩] السكاكى لاجتماعها مع «إنما» ان لا يكون الوصف الذى أريد حصره مختصا بالموصوف نحو قوله تعالى : إنما يستجيب الذين يسمعون .

ولكن الشيخ عبدالقاهر يرى ان هذا من شرط الحسن لا الصحة ، لانه قال فى دلائل الاعجاز :

«ومما يجب ان يعلم : انه اذا كان الفعل بعدها فعلا لايصح الا من المذكور، ولايكون من غيره، كالتذكر الذى يعلم انه لا يكون الا من اولى الالباب، لم يحسن العطف بـ «لا» فيه كما يحسن فيما لايختص بالمذكور ويصح من غيره»[٣٥٠].

ويمتاز النفى والاستثناء بان الاصل فيه ان يستعمل لامر ينكره المخاطب ويشك فيه، فلهذا لا تقول لرجل وانت ترفقه على اخيه وتنبهه على مايجب من صلة الرحم : ما هو الا اخوك، لان المخاطب يعرف هذا

٣٤٨- المواهب، ٢٢٢/٢ .

٣٤٩- راجع الايضاح والتلخيص ٢١٢/٢ .

٣٥٠- دلائل الاعجاز ٢٧١ .

الخبر ولا يشك فيه[٣٥١].

وامّا «انما» فتمتاز بان الاصل فيها ان تستعمل لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدافع عنه، كقوله تعالى: «انما يستجيب الذين يسمعون»[٣٥٢]. وكقولهم : انما يعجل من يخشى الفوت .

نعم، تستعمل «انما» للخبر المجهول تنزيلا له منزلة المعلوم لاعتبار مناسب . و ذلك كقوله تعالى حكاية عن اليهود : «واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض، قالوا : انما نحن مصلحون»[٣٥٣].

وكقول قيس بن الرقيات :

انما مصعب" شهاب" من الله قد تجلّت عن وجهه الظلماء

كما قد ينزل المعلوم منزلة المجهول فيستعمل له طريق النفى والاستثناء.

وتمتاز «انما» ايضا بان احسن مواقعها ما لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بامر هو مقتضاه، كقوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب»[٣٥٤].

فليس الغرض منه ان يعلم السامعون ان التذكر يختص باصحاب العقول، بل المراد به التعريض بان الكفار من شدة عنادهم وغلبة الهوى عليهم لا يتذكرون وكأنهم ليسوا من زمرة ذوى العقول .

ويمتاز التقديم بان دلالته على الحصر بالفحوى والسياق وحكم الذوق، بخلاف سائر الطرق فان دلالتها على القصر بالوضع .

٣٥١– راجع دلائل الاعجاز، ٢٥٦ .

٣٥٢– الأنعام، ٣٦ .

٣٥٣– البقرة، ١١ .

٣٥٤– الرعد، ٢١ .

اما ضمير الفصل والتعريف باللام فالظاهر ان دلالتهما على القصر بالفحوى وحكم الذوق ايضا، الا انهما يختصان بالمسند والمسند اليه، وان ضمير الفصل يختص دائما بقصر الصفة على الموصوف كما سبق.

وهذه الطرق تتفاوت ايضا من حيث موضع المقصور عليه فى الكلام، ففى النفى والاستثناء يتاخر المقصور عليه عن المقصور ويقع بعد «الا» بلا فصل، فتقول فى القصر على الفاعل: ما يخشى الله الا العلماء وفى القصر على المفعول: ما يخشى العلماء الا الله.

ويجوز تقديم المقصور عليه مع «الا» على المقصور، ولكن ذلك قليل لاستلزامه قصر الصفة على الموصوف او الموصوف على الصفة قبل التمام. فيقال فى المثال المذكور: ما يخشى الا العلماء الله.

والمقصور عليه فى «انما» ياتى دائما فى نهاية الجملة*، كقوله(ص): انما الاعمال بالنيات. فالمقصور عليه ههنا لم يقع بعد «انما» بلا فصل بل اتى فى آخر الجملة ولا يجوز تقديمه[355].

٣٥٥– راجع التلخيص ٢/٢٣٢–٢٣٣.

٣٥٦– دلائل الاعجاز ٢٦٥.

* قال عبدالحكيم (٣٤٦): اى يكون المقصور عليه فى «انما» هو الجزء الاخير، والمراد بالجزء الاخير ما يكون فيه جزء بالذات عمدة او فضلة، لا ما ذكر فى آخره فقط. فان الموصول المشتمل على قيود متعددة جزء واحد وكذا الموصوف مع صفته، فالمقصور عليه فى قولك: انما جاءنى من اكرمته يوم الجمعة امام الامير، هو الفاعل اعنى الموصول مع صلته. وفى قولك: انما جاءنى رجل عالم، هو الموصوف مع صفته.

وانما يؤخر المقصور عليه دون المقصور، لان المقصور مقدم طبعا فقدم وضعا. كذا فى: شرح المفتاح الشريفى».

اماالمقصور عليه فى «لا» من حروف العطف فيقع قبلها معطوفا عليه[٣٥٦]، فيكون دائما مقابلا لما يجيء بعد «لا» معطوفا، مثل : الانسانُ بقلبه لا بجسمه .

وفى «بل» و «لكن» يقع المقصور عليه بعدهما، نحو : ما كان محمدٌ ابا أحدٍ ولكن رسولَ الله[٣٥٧]... ، وماالفخر بالنسب بل بالعلم والأدب .

وفىالتقديم يأتىالمقصور عليه دائما مقدما كمارأيت فى «اياك نعبد» و «الىالأعلى أمانينا وغيرهما» .

وفى ضمير الفصل، يقدمالمقصور عليه ايضا، كقوله تعالى: «واولئك همالمفلحون» .

واما فىالتعريف باللام، فالمقصورعليه ما دخله اللام، فتارة يكون خبرا فيؤخر مثل عمروالشجاعُ، وتارة يكون مبتدأ فيقدم مثل : التوكلُ علىالله .

اما اذا كانالمبتدأ والخبر كلاهما معرفا بلامالجنس مثل : العلم المالِ، فالظاهر انالمقصور عليه هوالمبتدأ المقدم .

٣٥٧ـ الاحزاب، ٤٠ .

الباب الثاني الصورة

والمراد بالصورة ما يستمد منه الانسان او الاديب والفنان، في خلق التراكيب المختلفة والتعابير غير المتناهية، وفي توصيل ما يحسه من التجارب المتنوعة، وفي إلباس ما يرتسم على نفسه حلةً من الجمال والجلال.

ولتوضيح هذا البيان نقول : ان الانسان كما يتأمل ويتفكر، يحس و يشعر ويتأثر، ويرى نفسه ازاء الكون والطبيعة والحياة الانسانية وما يجري فيها : من الحسن والقبح، والسعد والشقاء ، والبؤس والرخاء ، والحب والكراهيّة، والسلام والقتال وغيرها ، فيملأ قلبَه تياراتٌ من الأحاسيس والعواطف، ويُثقل صدرَه قدورٌ هائجة بالإنطباعات والأفكار . فيريد أن يتنفس منها ويوحي الى غيره بما ارتسم في نفسه، ويُشرِكَ الآخرين في احساسه وتجربته، ويحفزَهم على العمل والنشاط .

وأحيانا ينفد الانسان في أقطار عالم الخيال ويحلّق في سمائه، حيث لا يُرى حجابٌ ولا يعرض جدار . فهناك يجد الانسان نفسَه في عالم غير متناه، عالم لا تحيط به الآفاق ولا تحدّده الكلمات، ذلك عالم الخيال وعالم المعنى فيُحبُّ أن يبوح بقصة هذه الرحلة وما شاهده فيها، ويعطيَ الآخرين تجربته منها . فالانسان على عكس بخله بالمال وسعيه في إخفائه، يحرص على أن يبذل ما يعرفه ويشعره، ويسعى في أن يُبيِّن خواطره و

آراءه . لعل سبب ذلك ـ اضافةً على التخفيف عما أثقله والإسهام لغيره في سروره وحزنه، واحساسه وتجربته ـ أنه يعتقد فناءه ولا يريد ان يستسلم له كأن لم يكن شيئاً مذكورا، بل يقاوم ويجاهد فى ان يترك من بعده اثرا يخلّد ذكراه فى الباقين، ويكرّر حديثه فى الغابرين، فيخدم الانسان من سبيل الفن نفسه وشخصه .

والتعبير عن الاحاسيس والعواطف، وما جناه الفكر والخيال، ونقل التجربة وتوصيلها ليس بالأمر الهيّن، اذ هنالك عقبات" صعبة يضلّ فيها الانسان، وتزل منها الأقدام . من تلك العقباب قصور وسائل التعبير وقلّة أدواته، لان الكلمات او الالفاظ التى اصطلح الناس عليها محدودة ومتناهية بخلاف ما يعرض للانسان من المفاهيم، فانه لا يقبل التحديد كما لا يقبل الوضع والاصطلاح . الا ترى ان ما يرتسم فى نفس الشخص يتلوّن بلونه ويتعدد بتعدده، فالاحساس والشعور فى كل شخص غيرهما فى الآخر و كذلك التفكر والتخيل، فكيف يتصور الوضع والاصطلاح للتعبير عن نتائجها .

ومنها الغموض والابهام فى نفس التجربة، فثمّة ضروب من الإحساس الشموس وأنواع من الانطباع الشرود، و ذلك لان صاحبهما لم ينظر الى الحياة الاّ الى جوانبها الغوامض الدقاق دون الوانها المحدّدة الواضحة . فهذه التجربة تحتاج فى التعبير عنها الى استخدام وسائل خاصة وطُرق معينة كالصور الأدبية . «فالصور الكلامية التى يستخدمها الشعراء إن أجيد استخدامها كانت اداة مفيدة فى ايديهم، فبفضلها تشخص المعانى المجرّدة ، وتصبّ فى صورة مرئية محسوسة، وبذلك تكتسب قوةً و نصوعا»[١].

١ـ فنون الادب، ٩١ .

فهذه العقبات هی ما دفع الانسان منذ زمن قديم الی الاستعانة بوسائل تكمّل ما فی لغته من قصور، وتشدّ أزره فی عالم مبهم، فلجأ الی صور ادبية وفنون بيانية كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، مُحاوِلا بذلك نقل أحاسيسه الغائمة وتوصيلَ تجاربه الجامعة[٢].

فلا اقتحم العقبة إلاّ "كشّاف" رائد فی دولة الرّوح والخيال، و ذو موهبة يهتدی الی ربط الأشياء بعضها ببعض وإحلالها بعضها محلّ بعض، وأديب مسيطر علی خيال قرّائه، وفنان مقتدر علی الخلق والإبداع . ألا تری ان لغة الادب تختلف عن اللغة المألوفة، وأن الادب هو الوسيلة لتوصيل التجارب ونقلها كاملة غير منقوصة من ذهن الی ذهن[٣]، وأن العمل الفنی ليس مجرد تقليد للعالم المرئی، بل يصبغ عليه الفنان لونا من روحه ونظره الثاقب، ويعطيه صورة رائعة ويكمل ما فيه من نقص، فتجدُ أنّ الحجر الذی تناوله الفنان اجمل مما لم تمسسه يد . «فلئن عجز الانسان عن أن يُضيف الی عالم المادة ذرّة واحدة، فقد عوّضه الله عن هذا العجز خير العوض، اذ أتاح له أن يوسّع لنفسه من عالم الرّوح كيف شاء»[٤].

ويُلمح فی هذا تشابه" مع ما قال الأستاذ عبد الحميد حسين فی تعليل وضع صورة عقلية مكان أخری، فهو يری أن سبب ذلك يرجع الی العقل الباطن و رأیِ فرويد فی الأحلام. فان الأحلام فی رأيه، نتيجة رغبات مكبوتة تظهر خلال النوم متخفية ومتسترة علی أشكال مختلفة وهيآت متباينة . وأن العقل يجد سرورا فی إخفاء هذه الرغبات، ويجد فی هذا

٢ــ فی النقد الأدبی، ١١١ .

٣ــ قواعد النقد الأدبی، ٣٥ .

٤ــ فی النقد الأدبی، ٣٠ .

الميدان المجازي وما فيه من افتنان، مجالا وتوسعا لإظهارها بشكل جديد[٥].

فالصورة او التصوير ضرورة قصور اللغة وغموض التجربة، و وليدة حسن العرض وقوة الابانة، وظاهرة الرغبات المكبوتة ، فهي كيفية في الجملة والبيان تكسبها قوة و نصاعة وتلبسها جمالا وجلالا، وتبرزها في معرض مرآة تتجسد وتتجلى عليها الاشياء، وتنقسم الى التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية. فهذه الاقسام منها ما أساسه الخيال كالتشبيه والمجاز والاستعاره، فانها ترجع الى عملية الخيال وتعاونه مع العاطفة إمّا بكشف التشابه والتجانس بين الاشياء التي لاترتبط عادة، فيقرن الخيال بينها ويتصورها في أحوال متنوعة مفردة ومركبة، وإمّا باضفاء الحياة على الاشياء و إكسابها حياة انسانية او حيوانية، وإمّا بانتقال الذهن من معنى الى آخر .

ومنها ـ ما أساسه الرمزية، كالكناية وما يتصل بها من تلميح اواشارة او تلويح[٦].

فالخيال له حظٌ كبير في مباحث هذا الباب ومسائله، ويعتبر ميزة لها بالنسبة الى سائر المباحث . ولانعني من هذا ان ماعدا مسائل هذا الباب فارغة عن الخيال وعمليته، ولكن نريد ان «الصورة» اشدّ ارتكازا عليه وأوصلُ ارتباطا معه . و ذلك لأنّ الخيال قوة لاتسير الحياةُ العقلية بدونها*، وله في الفن عامة وفي الأدب خاصة قيمة كبيرة، لأن الفن كالمرآة

٥ـ الاصول الفنية للادب، ١٠٩ .

٦ـ المصدر نفسه، ١٠٦ـ١٠٧ .

* يرى «كانت» الفيلسوف الألماني : ان الخيال اجلّ قوى الإنسان، و انه لاغنى لأيّة قوة اخرى من قوى الانسان عن الخيال. (النقد الادبي الحديث، ٤١٢) .

التى تنعكس عليها صور الحقائق وظلالها لا الحقائق نفسها . والشاعر أو الاديب يحاول إظهار ما يشعر به وينطبع على قلبه لا ما يراه او يسمعه ، فهو انما يعبر عما ارتسم على صفحات نفسه، ويعمد الى تصدير الاثر الذى احس به، وعدته في ذلك وفى ايصال التجارب والمعانى الى ذهن القارى اوالسامع انما هو الخيال[٧].

الفصل الأول التشبيه

معنى التشبيه و علاقته بالخيال

التشبيه في اللغة التمثيل[٨]، جاء في القاموس: وشبّهه ايّاه وبه تشبيها، مثّله . وفي الإصطلاح، فسّروه بصور مختلفة وعبارات متنوعة تنبىء عن عقد مشاركة بين طرفين فى معنى بطرق مخصوصة . و ذلك كقوله تعالى: «يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المَبْثوثِ و تكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المَنْفوشِ»[٩].

وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ فؤادٍ كأنّه جَبَلٌ أزالَهُ مِنْ مَقَرِّه النَّظَرُ

فالتشبيه في اللغة كما رأيت يساوى «التمثيل» ويرادفه، وامّا فى الاصطلاح فمنهم ـ كالزمخشرى وابن الاثير ـ من لا يُفرّق بينهما و يستعمل كلاً منهما موضع الآخر[١٠]، ومنهم من يرى أن التمثيل أخص من

٧ـ الاصول الفنية للادب، ٩٧ـ٩٨ .

٨ـ الصحاح، واللسان، مادة شبه .

٩ـ القارعة، ٤ـ٥ .

١٠ـ فن التشبيه، ٢٩/١ .

التشبيه ويجعل التمثيل قسما منه، فكل تمثيل عنده تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا. ويرأس اصحاب هذا الرأى الشيخ عبدالقاهر الجرجانى، فتناول فى كتابه «أسرار البلاغة» الفرق بينهما من جوانب مختلفه فى مواضع متعددة[11]. ولأن المقام لا يسع الأكثر من هذا، نترك المسألة وسنرجع إليها بشىء من التفصيل عند الحديث عن «التمثيل» وبيان نظرية الشيخ الخاصة فيه، إن شاءالله تعالى.

واذ قد عرفت أن التشبيه عقد مشاركة بين الأشياء وجمعها فى معنى، فهو عمل تركيبى يستمد من قوة تتصرّف فيها، لأن الاشياء فى الخارج و فى الطبيعة ليست على تلك الصورة التى تشاهد فى التشبيه، «فالقلب» مثلا لا يوضع بجانب «الجبل» ، و «الخدّ» لا يقترن با«لوَرد»، و «الألفاظ» او «الكلام» ليست مع «العسل» . فالخيال هو الذى يعمل على الربط بين الاشياء المتباينة، وايجاد الصلة بين مظاهر الطبيعة مما لا يظن وجود الصلة بينها . فالتشبيه صورة تتوالد من المقارنة بين الأشياء المتباعدة و المختلفة، بمعاونة الخيال

التشبيه ظاهرة عامة

التشبيه ظاهرة عامة، لا تختصّ بانسان دون آخر، ولا تنحصر على شعب دون شعب، فنجدها عند كل امّة وفى كلّ لغة، ويعرفها العجمىُ كما يعرفها العربى، ويهتدى اليها الصغيرُ كما يهتدى اليها الكبير .

فهو من الناحية النفسية عمل طبيعى يهتدى اليه الانسانُ بالفطرة كلما

١١ــ اسرار البلاغة، صفحة ١٠٧ وما بعدها .

دعت الأسباب والعوامل اليه، ولون من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية والتراث المشاع بين الانواع البشرية جميعا[١٢]. ويستدل على ارتكاز عملية التشبيه في النفس الانسانية وعموميتها بوجوه :

الاول - ان الانسان مطبوع على حب النظام والترتيب والتواصل، والكره لكل ما لم ينخرط في سلكه ولم يوضع بجانب مماثله . فهو لاينظر الى الطبيعة ومناظرها كخرزات مبعثرة لاتنخرط في سلك، او كمائدة وضع عليها ألوان من الأطعمة لا يربطها رابط ولا يجمعها جامع، بل ينفذ في أغوارها ويرى بواطنها ويكشف القناع عن وجوهها، ويحصل على الروابط بينها او احيانا يخلقها . فلئن فاته في الطبيعة وضع الأشياء بعضها بجانب ما يناسبه، ومشاهدة صورة مع أخرى تشبهها كما يتصوره، فلا يفوتها الحصول على ذلك في طبعه، لأن كتاب الطبع والأغوار النفسية أوسع سطوراً واشمل مادة .

الثاني - ان التشبيه - كما قال عبدالقاهر قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان[١٣].

واذن فليس بمستبعد على انسان مهما قل حظه من العلم والمعرفة أن يقيس بعض الأشياء الى بعض ويحكم عليهما بالتشابه، الا ترى أن الطفل يقوم بعملية القياس والحكم بالتشابه حينما يهش الى الثدي الصناعي ويبادر الى التقامه[١٤].

١٢- راجع بلاغة ارسطو، ٢٧١، وفن التشبيه ١/٤٣ .
١٣- اسرار البلاغة، ٢٦ .
١٤- فن التشبيه ١/٤٦ .

الثالث ـ انه يقال انالتشبيه اقدم صورالبيان، وانه من اكثر كلام الناس[١٥].

اهميّة التشبيه و بلاغته

لقد ورد من علماءالبلاغة وأعلامها اقوال وآراء تدل على اهمية التشبيه وبلاغته، فقال قدامة : وامّاالتشبيه فهو من أشرف كلامالعرب، و فيه تكونالفطنة والبراعة عندهم[١٦].

وقالالرمانى : وهذا الباب يتفاضل فيهالشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، و ذلك انه يُكسبالكلام بيانا عجيبا ... فبلاغةالتشبيهالجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يُكسب بيانا فيهما[١٧].

وقالالعسكرى : والتشبيه يزيدالمعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا اطبق جميعالمتكلمين منالعرب والعجم عليه، ولم يستغن احد منهم عنه[١٨].

وقالالباقلانى : والتشبيه تُعرف بهالبلاغة[١٩].

وجعلالشيخ عبدالقاهرالتشبيه فى اصول يرجع جلّ محاسنالكلام

١٥ــ المصدر نفسه ١/٤٥، والكامل ٣/٨٥٨ .
١٦ــ نقدالنثر بالنقل عن فنالتشبيه ١/٤٨ .
١٧ــ النكت، ٧٥ .
١٨ــ الصناعتين، ٢٤٣ .
١٩ــ اعجازالقرآن، ٢٠٧ .

اليها ، وعده في أقطاب تدور المعاني عليها[٢٠].

وأضاف: وهل تشك في انه يعمل السحر في تاليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المُشئم والمُعرق، و هو يريك للمعاني الممثلّة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة، ويُنطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين، كما يقال في الممدوح : هو حياة لاوليائه ، موت لأعدائه ...[٢١]

ورأى ابن رشيق أن التشبيه يُخْرِج الأغمض الى الأوضح ويقرّب البعيد[٢٢].

وقال ابن الاثير : فالتشبيه ... يجمع صفات ثلاثة، هي : المبالغة ، والبيان ،والايجاز[٢٣].

وقال السكاكي : اذا مهرتَ فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني[٢٤].

وقال الخطيب : انه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في البلاغة ، وأن تعقيب المعاني به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس الى المقصود بها، مدحا كانت او ذمّا او افتخارا اوغير ذلك[٢٥].

٢٠ــ اسرار البلاغة، ٣٣ .
٢١ــ المصدر نفسه، ١٤٨ــ١٤٩ .
٢٢ــ العمدة ١/٢٨٧ .
٢٣ــ المثل السائر ١/٣٩٤ .
٢٤ــ مفتاح العلوم، ١٥٧ .
٢٥ــ الايضاح على هامش شروح التلخيص ٣/٢٩٦ .

وقال النويري : وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفى الى الجلى، وإدنائه البعيد من القريب، وهو حكم اضافى لايوجد الا بين الشيئين بخلاف الاستعارة[٢٦].

فالتشبيه من أشرف كلام العرب، وهو موطن الفطنة والبراعة، وركن من أركان البلاغة، ومرجع لمحاسن الكلام ومدار للطائف المعانى، وطريق الى الحصول على فنون البيان الساحر. وذلك لأن التشبيه يزيد المعنى ايضاحا وتصويرا اوتأكيدا ، ويفعل فى النفوس تحريكا وترغيبا، ويصوّر عالما يلبس الحياة فيه الجماد، ويتآخى على مسرحه الأضداد، ويعرض فنّاً تصير فيه الصور الخارجيّة افكاراً ذاتية، والأفكار الذاتية صوراً خارجيّة، فتصبح الطبيعة فكرة والفكرة طبيعة .

فهو بيان يموج بالقوة والبراعة، ويفور بالوضوح والتشخيص، و يمتاز بالإيجاز والمبالغة . فهذه ألوان من بلاغته و زوايا من براعته :

١ـ نقل الشعور والانطباع من قلب الى قلب، قال الاستاذ العقّاد : «وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان المحسوسة بذاتها كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس»[٢٧].

٢ـ إخراج الأغمض الى الأظهر وابرازه فى معرضه، ويقع على وجوه:

منها ـ إخراج مالاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه، و ذلك مثل تشبيه المعدوم بالغائب، قال الله تعالى : «والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ

٢٦ـ نهاية الارب ٣٨/٧ .

٢٧ـ النقد الادبى الحديث، ٤٤٧ .

٢٨ـ النور، ٣٩ .

٢٩ـ الاعراف، ١٧١ .

بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى اذا جاءَه لم يجدْه شيئا»[٢٨] فاخرج مالا يُحسّ الى ما يُحسّ، والجامع بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة.

وقال على (ع) : العلم قفلٌ مفتاحُه السؤالُ.

وقال المتنبى :

كل ذِمرٍ يزدادُ فى الموتِ حسناً كبدورٍ تمامُها فى المحاقِ

ومنها ــ إخراج ما لم تجرِ به العادة الى ما جرت به، و ذلك كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم، وجاء فى القرآن الكريم : «واذ نَتقنا الجبلَ فوقَهم كأنه ظُلّة»[٢٩] فقلعُ الجبل و رفعها فى السماء مما لم تجرِ به العادة .

وقال ابو نواس :

فإنْ تكُ اثوابى تمزّقنَ عن بلىً فإنى كسيفٍ فى خَلَقِ الغِمد

ومنها ــ إخراج مالايعلم بالبديهة الى ما يعلم بها، مثل تشبيه اعادة الاجسام باعادة الكتاب، وجاء فى التنزيل : «مثل الذين حُمِلّوا التوراةَ ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمِلُ أسفارا»[٣٠] فحمل العلم والجهل به مما لا يُعلم فى النظر الاول .

وقال النابغة الذبيانى :

فإنّك كالّليلِ الذى هو مُدْركى

وانْ خِلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

ومنها ــ إخراج مالاقوة له فى الصفة الى ما له قوة فيها، و ذلك كتشبيه ضياء السراج بالنهار، وكقوله تعالى : «وله الجَوار المنشآتُ فى

٣٠ــ الجمعة، ٥ .

البَحْر كالأعلام»[٣١] فقد اجتمع الطرفان في العظم الا ّ أن الجبال أعظم شأنا.

وقوله ايضا : «أجعلتم سقايةَ الحاجّ وعمارةَ المسجد الحرامِ كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهَد في سبيل الله»[٣٢] فقد اجتمع الطرفان في عمل كبير الا ّ ان الايمان بالله واليوم الآخر و ... شيء آخر عند القياس بسقاية الحاج وعمارة المسجد[٣٣].

وقال المنفلوطي : يتفجر من صدوع الصخرة ماءٌ زلال رقراق كأنه ذوب البلّور في شفوفه ولمعانه . فالماء والبلّور كلاهما شفاف ولمّاع الا ّ ان البلور اشهر بهما .

٣- تنزيل التضاد منزلة التناسب وتقريب المتباعدين، وابداع مالا يقع في عالم الحس «وكلُّ هذا يؤدي الى تجديد البيان واختراع الصور التي لاوجود لها، وانت اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشدّ كان اعجب الى النفس وأطربَ لها»[٣٤].

و ذلك، كأن تقول للجبان هو أسد، وللعيّ هو سحبان، وللبخيل حاتم. وتقول في المدح : هو حياة لأوليائه وحَتْف لاعدائه .

وقال ابن مقلة :

انا نارٌ في مُرتقى نظر الحا سد ، ماءٌ جارٍ مع الإخوان

٤- الإيجاز والاختصار، «لأن قولنا : زيد اسد، او كالاسد، يسدّ

٣١- الرحمان، ٢٤ .

٣٢- التوبة، ١٩ .

٣٣- النكت، ٧٥-٧٨ وبديع القرآن، ٥٨-٥٩ والصناعتين، ٢٤١- ٢٤١ .

٣٤- علم البيان، ١٠٧ .

مسدّ قولنا : زيد من حاله كيت وكيت، وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا، مما يطول ذكره»[٣٥].

وقد يختصر في التشبيه الى حد الايماء ، كقول احد الرجّاز :

حتـــى اذا كـــادَ الظـــلامُ يختلـــط

جاؤا بمَذْقٍ ، هـــل رأيتَ الذئبَ قطّ ؟

يريد أن اللبن حكى لون الذئب، فكلمة الذئب هنا أغنتنا عن تفصيل كثير كنا في حاجة اليه لو لم يات التشبيه .

وقولِ زُهير في معلقته :

بكرنَ بكوراً واستحرنَ بسُحرة فهُنّ و وادي الرّسّ كاليدِ للفمِ

يريد أنهن اتجهن الى هذا الوادي وقصدنه قصدا دقيقا مثل قصد اليد للفم بالطعام، فما اخطأنه كما ان اليد لاتخطىء الفم ولاتنحرف منه .

فانظر كيف ناب هذا التشبيه عن كلام طويل مع حسن التاليف والوفاء بحق المعنى[٣٦].

٥ـ المبالغة والتأكيد والتقرير، قال ابن الاثير : «انك اذا مثلت الشيء بالشيء فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به او بمعناه، و ذلك أوكدُ في طرفي الترغيب فيه والتنفير منه»[٣٧].

اعلم ان التأكيد والمبالغة والتقرير، من الالوان التي ترافق جميع وجوه التشبيه فانه لايخلو من افادة المبالغة في حال من الاحوال، والا لم يُستحسن ان يكون تشبيها، لان افادة المبالغة هي مقصده الاعظم وبابه

٣٥ـ المثل السائر ١/٣٩٤ .

٣٦ـ فن التشبيه ١/٥٨ـ٥٩ .

٣٧ـ المثل السائر ١/٣٩٤ .

الاوسع . غير انها فى التشبيه المضمر الاداة وما كانت اداته «كأن» اقوى واظهر[٣٨].

فاذا كانت منزلة التشبيه وبلاغته كما مرّ، فلا أظن أن الدكتور شوقى ضيف اراد بقوله : «ان التشبيه لون مفرد بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد، هو لون التصوير، وهو صبغ حسّى لم يشفع بثقافة عميقة ولا بفلسفه»[٣٩] ان يحطّ من منزلة التشبيه واهميته، ولعله يريد به ان يضع التشبيه فى درجة دون المجاز والاستعارة . والاّ فالحكم على التشبيه مطلقا بانه لون مفرد وصبغ حسى لم يشفع بثقافة عميقة، ليس قريبا الى الحق . اذ ان التشبيهات العقم والمتبكرة وماكانت العلاقة بين الطرفين منتزعة من امور متعددة لاتستمد عناصرها من المنظور فقط، بل من المتصور والمفروض ايضا .

فتعتمد هذه التشبيهات على مزيج معقد مخلوط من مناظر مرئية و غير مرئية، شعورية وغير شعورية، وفيها خطوط والوان واصوات من كلّ ما تقذف به العاطفة، ومن كلّ ماينبع من فكر وعلم وحكمة وخيال[٤٠].

والتشبيه الذى اكتُفِى فيها بالوقوف عند التشابه الحسى بين الاشياء من المسموعات اوالمبصرات او غيرهما دون ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر فى نقل تجربته لايستحق الالتفات اليه ولايترتب فائدة جليلة عليه . قال الاستاذ العقاد : «واذا كان كدك من التشبيه ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله فى الاحمرار، فمازدتَ على ان ذكرت اربعة

٣٨- فن التشبيه ١/٧٥، وعروس الافراح ٣/٣٩٤ .

٣٩- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ١٢٧ .

٤٠- راجع فن التشبيه، ٣/٨٧ .

او خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد . ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك»[٤١].

فلو كان امر التشبيه مختوما عند التشابه الحسى بين الأشياء بدون الحاجة الى التغلغل في أغوارها والتقلب في اطوارها لكان الحصول عليه سهلا واقتناصه هيّنا، ولعرفه المبدِع والمتبع، والعالم والجاهل، والمهرة والسوقى على السواء، وقلّ الخطأ والعثار فيه، ولما قال ابن الاثير في حقه : «انه بين انواع التشبيه مستوعر المذاهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة»[٤٢].

اركان التشبيه

لقد عرفت ان التشبيه يحكى عقد مشاركة بين طرفين في معنى بطرق مخصوصة، فعلى هذا يتكون التشبيه من هذه العناصر : طرفان يقصد الحاق احدهما بالآخر، ومعنى يُجعَل وصلة بينهما، وطرق خاصة تسبب عملية العقد . يُسمى الطرفان المشبه والمشبه به، والمعنى وجه الشبه والجامع ، والطرق ادوات التشبيه .

فأركان التشبيه اربعة :

١ـ المشبه .

٢ـ المشبه به .

٣ـ وجه الشبه .

٤١ـ الديوان للعقاد والمازنى، بالنقل من النقد الادبى الحديث، ٤٤٧ .

٤٢ـ المثل السائر ١/٣٩٤ .

٤ــ ادوات التشبيه .

وهذه الاركان قد يذكر كلّها في الجملة، كقول المعرّي :

انتَ كالشمسِ في الضيّاء ، وإن جا
وزْتَ كيوانَ في علوّ المكانِ

وقول ابن الفارض :

أعوامُ إقبالِه كاليومِ في قِصَرٍ ويومُ إعراضِه في الطول كالحِجَجِ

فكل من هذين البيتين يشتمل على جميع اركان التشبيه، ففي البيت الاول «انت» مشبه، و «الشمس» مشبه به، وفي «الضياء» وجه الشبه، والكاف أداة التشبيه .

والبيت الثاني يجمع تشبيهين، وأركانهما المذكورة بالقياس على البيت الاول ظاهرة . ثم الأركان قد يحذف بعضها، والمحذوف اما وجه الشبه فقط كقول عنترة بن الشداد :

ولقد ذكرتُك والرّماحُ نواهِلُ منّي وبيضُ السيفِ تقطرُ مِنْ دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها لمَعَتْ كبارقِ ثغركِ المتَبسم

شبّه لمعان السيف ببَرَقان الثغر في اللّون، ولكن حذف وجه الشبه للضرورة او للاختصار او ليذهب السامع كلّ مذهب ممكن .

او وجهُ الشبه مع اداة التشبيه، كقولك : صدورُ الأحرار قبورُ الأسرار. والاصل صدور الأحرار كقبور الأسرار في الإخفاء والكتمان .

او الاداة فقط، نحو : هو عظم سمك في انه لا يُرجى خيره ولا ينتظر نفعه .

أمّا حذف طرفي التشبيه كليهما او احدهما بحيث لا يحتاج الى تقديره في تركيب الجملة كما يقع في الاستعارة، فهو غير جائز عند بقاء الكلام على الاسلوب التشبيهي المحض. نعم، جائت امثلة حذف فيها المشبه والكلام

باق على النمط التشبيهي المجرد، كقوله تعالى : «صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لايَرْجعون»[٤٣] لكن المشبه فيها لم يترك ولم يحذف على انه لاحاجة اليه في بناء الجملة، بل هو ملحوظ تقديرا ومعتبر في تركيب الجملة، فتقدير الآية : «هم صم ...» على ان «هم» مبتدأ بنى عليه «صمّ» و «عمى» .

أدوات التشبيه[٤٤]

الأسباب التي يتوسل بها الى عقد التشبيه، ثلاثة اقسام : حرف واسم وفعل .

١ـ الحرف، الكاف وكأنّ، واضاف بعضهم عليهما «لعل» نحو قوله تعالى : «تتخذون مَصانع لعلكم تخلُدون»[٤٥] جاء في البخاري عن ابن عباس ان معنى الآية : كأنّكم، وفي الكشاف ترجون الخلود في الدنيا ، اوتشبه حالكم حال من يخلد[٤٦].

٢ـ الاسم، كمثل ومثيل وشبه وشبيه وغيرها، من الاسماء الدالة على المُضاهاة والمقاربة والموازنة والمعادلة والمحاكاة .

٤٣ـ البقرة، ١٨ .

٤٤ـ ليس الغرض ههنا تعريف ادوات التشبيه وتمييزها من سائر اركان التشبيه، لان فيما سبق غنية عن ذلك . بل المقصود بيان انحصارها في اشياء معينة يمكن النص عليها، و ذكر خصائص مفيدة لاتدرس في المباحث الآتية، بخلاف سائر اركان التشبيه، ولهذا لم نتعرض لها عليحدة.

٤٥ـ الشعراء ، ١٢٩ .

٤٦ـ راجع عروس الافراح ٣/٤٩٢ـ٤٩٣ ففيه انه عدّ من أدوات التشبيه ياء النسبة، وافعل التفضيل، وكلمة سواء .

قيل يستثنى من كون «مثل» اداةالتشبيه نحو قولهم: مثلُك لايشبع وجارُه جائع، لانالمعنى ليس علىالتشبيه .

واجيب بانالمراد من هو على صفاتك لايفعل ذلكالفعـــل، فليست كلمة «مثل» ههنا زائدة مُقتحمة كما قيل، بل هى نفى للفعل عنالمخاطب بطريق برهانى[٤٧].

٣ــ والفعل، مثل يشابه، يماثل ويضاهى . وقد يذكر فعل ينبىء عن التشبيه، نحو ترى، تخال، يكاد، تعلم، تحسب، يحكى وما شابهها .

وهذهالأدوات وان كانت تشترك فىافادةالتشبيه الاّ انها تتفاوتمن وجوه مختلفة .

فمن تلكالوجوه انالتشبيه اذا كان صادقا قلت فيه : كأنّه اوكذا .

قال امروءالقيس :

نظرتُ اليهــا والنجومُ كأنّهــا مصابيحُ رُهبانٍ تشبُّ لقفّالِ

واذا قارب‌الصدق قلت فيه : تراه، اوتخاله، اويكاد[٤٨].

ومنها ــ انه يقال : علمت زيدا اسدا ان قربالتشبيه، وحسبته اسدا ان بعدالتشبيه، لما فىالحسبان منالدلالة علىالظن دونالتحقيق[٤٩].

ومنها ــ انالكاف وكأن ومثل للتشبيه فى ايّ شىء كان، فلاتختص بنوع دون آخر، كما صرّحالرّاغب فىمادة «الندّ» ــ واماالشكلوالشبه والمساواةمن ادواةالتشبيه اوطرقه فالاول يستعمل لما يشاركه فــىالقدر ، والثانى للكيفية مثلاللّون، والثالثللمشاركة فىالكميّةكالوزنوالكيل.

٤٧ــ راجع عروسالافراح ٣/٤٩٢ــ٤٩٣ .

٤٨ــ عيارالشعر، ٢٣ .

٤٩ــ راجعالتلخيص معالمطول، ٣٣٠ .

ومنها ـ ان «كأنّ» لاتستعمل الاّ حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به او غيره، فهي أبلغ من الكاف و لذلك لما جيء بعرش بلقيس وقيل لها : «أهكذا عرشُكِ ؟ قالت : كأنّه هو»[٥٠] ولم تقل هكذا هو، فتحقق عندها انه لم يبق فرق بين عرشها و بين ما تراه في مجلس سليمان[٥١].

وأما الادوات الاسمية فهي سواء في افادة معنى التشبيه ومقداره، و مساوية للكاف وكأن في الاختصاص بالتشبيه الصادق .

ومنها ـ ان الاصل في الكاف وفي مثل وما شابهه، ان يليها المشبه به لفظا او تقديرا، و ذلك كقوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتَدّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لايقدرون مما كسبوا على شيء»[٥٢].

وقوله : «اوكصيّبٍ من السماء»[٥٣] والتقدير او كمثل ذي صيّب من السماء .

وقد يقع بعدها غير المشبه به، كقوله تعالى : «واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماءٍ انزلناه من السماءِ فاختلط به نباتُ الارض فاصبح هشيماً تَذْروه الرّياح»[٥٤] فالمشبه ليس الماء المذكور ولا النبات المحذوف، بل الحالة الحاصلة للنبات من الخضرة بسبب الماء مدة قليلة ثم ترجع الى الذبول واليبس بسرعة فيكون النبات هباء منثورا[٥٤] .

٥٠ـ النمل، ٤٢ .

٥١ـ راجع عروس الافراح ٣/٣٩٤، وفن التشبيه ١/١٨١ .

٥٢ـ ابراهيم، ٢١ .

٥٣ـ البقرة، ١٩ .

٥٤ـ الكهف، ٤٤ .

واختلف فى افادة «كأن» للتشبيه، فقال الزجاج انها تفيد التشبيه اذا كان خبرها جامدا، نحو : كأن زيدا اسد، والشكّ اذا كان مشتقا، نحو : كأنّك قائم . لأن الخبر فى هذه الصورة عين المبتدأ فكيف يمكن ان يشبه الشيء بنفسه .

وقيل إنها للتشبيه مطلقا، ويؤول امثال كانك قائم بانها جاءت على حذف الموصوف والتقدير كانك شخص قائم. لكن لما حذف الموصوف و جعل الاسم بسبب التشبيه كانّه الخبر بعينه صار الضمير يعود الى الاسم لا الى الموصوف المقدر[٥٥].

والحق انها قد تستعمل عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد الى التشبيه سواء كان الخبر جامدا اومشتقا، نحو كأن زيدا اخوك وكأنّه فعل كذا . وهذا كثير فى كلام المولّدين[٥٦].

اقسام التشبيه

اعلم ان علماء البلاغة قد اكثروا فى تقسيم التشبيه، فقسموه باعتبارات مختلفة الى اقسام متعددة، فبعض هذه الاقسام لاطائل تحته غير أن زاد فى طنبور التقسيم نغمةً اخرى . فلاندرس ههنا اقسام التشبيه غثها وسمينها، رخيصها وثمينها، بل تتناول ماله شأن فى البلاغة ونقف عند ماله منزلة فى البراعة، مثلنا فى ذلك مثل النحل الذى يمتص من الأزهار ما يفيده ،

٥٥- راجع المطول ٣٢٩-٣٣٠ .

٥٦- المطول، ٢٦١ .

لا الطفل الذى يلتقط كل ما يجده ولاالشحيح الذى يجمع اللعل والنعل . فمنها :

١ـ التشبيه البليغ

وهو ما حذف وجهه واداته، كقوله تعالى : «هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن»[٥٧] ونحو : الشكرُ نسيمُ النعم . وانما سمّى بليغا لان حذفَ الاداة ينبىء عن الاتحاد بين المشبه والمشبه به، وحذف وجه الشبه يشير الى ان الاتحاد يتناول جميع الوجوه والصفات حتى كان المشبه هو عين المشبه به من غير تفاوت .

وليس المراد من البليغ هنا ما يطابق مقتضى الحال او يشتمل على الحسن والطرافة والبراعة حتى يخيل ان التشبيه اذا ذكر فيه الاداة والوجه لايكون مطابقا لمقتضى الحال ولايتضمن الجدّة والبراعة، بل المراد به التشديد[٥٨] والتأكيد فى تقريب المشبه من المشبه به، والمبالغة فى دعوى الاتحاد بين طرفى التشبيه من جميع الوجوه . فعلى هذا كلما تحقق حذف الوجه والاداة تحقق التأكيد والمبالغة فى تقريب المشبه من المشبه به من جميع الجهات، ومتى لم يتحقق حذفهما اوحذف احدهما لم يتحقق التأكيد والمبالغة .

فلا او افق الاستاذ على الجندى فى قوله : «وليس يكفى ان يقع

٥٧ـ البقرة، ١٨٧ .

٥٨ـ فكلمة البليغ بهذا المعنى مشتقة من بلغ يبلغ بلوغا العلّةُ ، اى اشتدت، لامن بلُغ يبلُغ بلاغة اى صار فصيحا .

التشبيه محذوف الاداة والوجه معا ليستحق ان يوصف بانه بليغ ... والحق ان كثيرا من التشبيهات المرسلة المفصلة اجمل والطف وابرع من بعض هذه التشبيهات التي يسمونها بليغة لمجرد أنها مؤكدة مجملة»[٥٩]. اذ ليس البليغ هنا اللطيف البارع والجميل البديع كما ظنّه .

وكيف يجوز ان تفسَّر البليغ هنا بما يطابق مقتضى الحال او بما يشمل على اللطافة والجمال والبراعة، مع اننا قد نرى ان ذكر الاداة في بعض موارد التشبيه ابلغ و ذلك كقول العباس الصولى : الاصدقاء كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار .

فليس الغرض من الكلام ان يقال ان الاصدقاء نار، بل المراد يقال انهم فى شيء خاص يشبهون النار، وهو نفع القليل وضر الكثير .

صور وقوع التشبيه البليغ

يقع التشبيه البليغ على الصور الاتية

١ــ أن يقع المشبه به خبرا، سواء كان مع ذكر المشبه نحو : صدورُ الأحرار قبورُ الأسرار، او مع حذفه كقوله تعالى : «صمٌّ بُكم عمى فهم لا يرجعون»[٦٠]. ويجوز ان يجعل المشبه به مبتدأ كان نقول فى المثال الاول: قبور الأسرار صدور الاحرار، لان المبالغة في التشبيه تدور على دعوى الاتحاد، ولا فرق فى ذلك بين ان يجعل المشبه به خبرا او مبتدأ .

٥٩ــ فن التشبيه ٢/٢٨٩ .

٦٠ــ البقرة، ١٨ .

٢ــ ان يقع مفعولا ثانيا في باب علمت، نحو علمتُ بذيءاللسان كلبا عَقورا .

٣ــ أن يقع مصدرا مبيّنا للنوع، كقوله تعالى : وهي تمرّ مرّ السحاب[٦١]. ويرجع هذا الى كون المشبه به صفة للمشبه اذالتقدير : وهي تمرّ مرورا كمرور السحاب .

٤ــ أن يقع حالا، نحو : كرّ عليّ أسدا .

٥ــ أن يقع مبيّنا للمشبه، كقوله تعالى : «وكلوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر»[٦٢]. وترجع هذه الصورة الى كون المشبه به حالا للمشبه .

والظاهر من كلام الشيخ في «أسرار البلاغة» ان الآية من باب الاستعارة[٦٣]، لكن الزمخشري جعلها من باب التشبيه فقال : «فان قلت أهذا من باب الاستعارة ام من باب التشبيه ؟ قلت : قوله «من الفجر» اخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك رأيت اسدا مجاز فاذا زدتَ «من فلان» رجع تشبيها[٦٤].

٦ــ أن يقع مضافا الى المشبه به، نحو: عقيق الشفق، وثوب العافية[٦٥].

والتشبيه البليغ يسمى تشبيها مؤكدا وتشبيها بالكناية ايضا غير انهما اعم، اذ يكفي فيهما حذف الاداة فقط ــ قال النويري في بيان تشبيه الكناية: «وهو ان يُشبه» شيئا بشيء من غير اداة التشبيه، كقول المتنبي :

٦١ــ النمل، ٨٨ .

٦٢ــ البقرة، ١٨٧ .

٦٣ــ اسرار البلاغة، ٣٦٦ .

٦٤ــ الكشاف ١/١١٦ .

٦٥ــ فن التشبيه ٢/٢٨٦ .

بدتْ قمراً، وماسَتْ خوطَ بانٍ وفاحت عنبراً، ورنَتْ غـزالا[٦٦]

٢ـ التشبيه التمثيلي

من أقسام التشبيه باعتبار وجه التشبيه التمثيلي ، فذهب القوم فـي تفسيره الى مذاهب شتى :

فعند الجمهور هو ما كان وجهه منتزعا من متعدد سواء كان حسيـا مثل قول البشار :

كأن مُثارَ النَقْع فوقَ رؤوسنا واسيافَنا ليلٌ تهـاوى كواكبُه

فوجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من هَوِيّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متفرقة في جوانب شيء مظلم، ولا يخفى انها حسية .

او غيرَ حسي، كقوله تعالى : «مثل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لـم يحملوها كمثل الحمار يَحْمل أسفارا» فوجه الشبه بين احبار اليهود الذين كُلّفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بها وبين الحمار الحامل للاسفار هو حرمان الانتفاع بابلغ شيء نافع مع الكد والتعب في استصحابه، وهذا الوصف منتزع من متعدد وليس بحسي .

وعند الشيخ ما كان اشتراك الطرفين في وجه الشبه راجعا الى التأول ، وبيان ذلك ان الاشتراك في الصفة يقع تارة في نفسها وحقيقة جنسهـا، و ذلك كتشبيه الخد بالورد في الحمرة، فانهما يشتركان في نفس الحمرة وهي موجودة فيهما حقيقة، وانما يتصور التفاوت بـالشدة والضعف، والقلـة والكثرة .

٦٦ـ نهاية الارب ٤٣/٧ .

وتارة في حكم لها وما تقتضيه، و ذلك كتشبيه اللفظ بالعسل في الحلاوة، فاللفظ لا يشارك العسل في جنس الحلاوة ونفسها، اذ ليست الحلاوة موجودة فيه حقيقة، وانما وقع الاشتراك بينهما من جهة امر يقتضيه الحلاوة اعني اللذة او الحالة التي تحصل للنفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل اليه الطبع ويقع منه بالموافقة[٦٧].

فالاشتراك في الصورة الاولى جاء تحقيقا وتصريحا، وفي الثانية تقديراً وتأويلا .

ولمعرفة صور التحقيق من التأويل نعود الى الشيخ، فنرى انه ذكر ان كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس، او فيما يرجع الى الغريزة والطباع مثل الشجاعة والدهاء والفطنة، او الى الأخلاق كلها كالسخاء والكرم واللؤم وغيرها من الصفات العقلية الثابتة، لا يجري فيه التأوّل ولا يفتقر اليه في تحصيل وجهه[٦٨].

فعلى هذا أن التأول يجري في كل ما كان غير حسي وغير عقلي محققٍ وموجودٍ، كأن يكون امرا اعتباريا، مفرداً كان اومركبا. فالتمثيل عند الشيخ ما كان الوجه فيه محتاجا الى تاوّل، او ما كان الوجه فيه امرا عقليا غير محقق .

ثم ان التشبيه الذي يحتاج وجهه الى تاول يتفاوت تفاوتا شديدا ، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول اليه ولا يحتاج الى كثير من الدقة والتأمل حتى كاد ان يدخل في التشبيه الصريح، و ذلك كقولهم في صفة الكلام: الفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرّقة، وكالعسل في الحلاوة.

٦٧ــ اسرار البلاغة ١١٠ــ١١٢ .

٦٨ــ المصدر نفسه ١٠١ــ١٠٣ .

ومنه ما يدّق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه الى فضل رويـة و دقة فكرة، و ذلك مثل قول كعب الأشقرى فى وصف بنى المهلب للحجاج: «كانوا كالحلقة المفرَغة لا يدرى أين طرفاها» . فلايعرف ببديهة السماع أن المقصود من هذا التشبيه هو انهم متساوون فى الشرف ولايكون بينهم متقدم ومتاخر[٦٩].

وعند السكاكى ان التمثيل هو التشبيه الذى كان وجهه وصفا غير حقيقى وكان منتزعا فى عدة امور[٧٠]، كقوله تعالى : «مثل الذين حمّلوا التوراة ...» فقال السكاكى : «فان وجه الشبه ... هو حرمان الانتفاع بما هو ابلغ شيء بالانتفاع به مع الكدّ والتعب فى استصحابه، وليس بمشتبه كونه عائدا الى التوهم ومركبا من عدة امور»[٧١].

والفرق بين رأى الشيخ والسكاكى هنا، هو ان التمثيل عند الشيخ اعم من ان يكون وجهه منتزعا من امور متعددة كالآية المتقدمة، فانه روعى فيها من جانب المشبه به ثلاثة اشياء :

الاول، فعل خاص وهو الحمل .

الثانى، كون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار .

الثالث، جهل الحامل بما فى المحمول .

او يكون منتزعا من شيء واحد، و ذلك مثل حلاوة العسل[٧٢]. غير انّ الاصل والأولى فى التمثيل ان يكون الوجه ماخوذا من امور متعددة[٧٣].

٦٩ــ المصدر نفسه ١٠٥ــ١٠٦ .

٧٠ــ المفتاح، ١٦٤ .

٧١ــ المصدر نفسه، ١٦٥ .

٧٢ــ اسرار البلاغة، ١١٣ــ١١٤ .

٧٣ــ المصدر نفسه، ١٢٢ــ٢٧٤ .

ولكن السكاكی لایری التمثيل الا حيث كان الوجه منتزعا من امور متعددة، فكل ما روعی فيه التعدد بعد كونه غير حقيقی استحق التمثيل عنده، واذا خلا من التعدد لم يستحق ذلك.

فالتمثيل عند الشيخ اعم منه عند السكاكی من هذه الناحية، لا من ناحية ان الوجه عند الشيخ اعم من ان يكون عقليا موجودا او عقليا اعتباريا كما يظهر من قول التفتازانی والسيد الشريف فی شرحهما للمفتاح وقول التفتازانی ايضا فی المطول[٧٤]. و ذلك لان الشيخ لا يعنی من الشبه العقلی كل موارده كما يتبادر الی الفهم من نقل هذين العَلَمين لعبارة الشيخ، فانهما اوردا عبارة الشيخ هكذا : قال الشيخ فی اسرار البلاغة: «التمثيل التشبيه المنتزع من امور، واذا لم يكن التشبيه عقليا يقال انه يتضمن التشبيه ولا يقال ان فيه تمثيلا وضرب مثل، وان كان عقليا جاز اطلاق اسم التمثيل عليه»[٧٥].

فما حصلت فی اسرار البلاغة علی كلام للشيخ كما نقلاه ، بل الذی حصلت عليه منه هكذا : «ان الاصل فی كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع امور، ... فاذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع ومايجری مجراها من الاوصاف المعروفة كان حقها ان يقال انها تتضمن التشبيه ولا يقال ان فيها تمثيلا وضرب مثل ، واذا كان الشبه عقليا جاز اطلاق التمثيل فيها ...»[٧٦].

فتری فی كلام الشيخ ان التمثيل لا يتعين فيما يكون وجهه منتزعا

٧٤ـ المطول، ٣٣٩ .

٧٥ـ شرح المفتاح المخطوط بلا رقم الصفحة، المطول، ٣٣٩ .

٧٦ـ اسرار البلاغة، ١٢٢ .

من امور متعددة، بل الاصل ـ اوالاولى ـ فيه ان يكون هكذا، وايضا ان العقلى جاء فى مقابل المحسوس والغرائز والطباع وما جرى مجراها من الصفات المشهورة، فالظاهر ان المراد به الصفات العقلية الاعتبارية .

امّا التمثيل عند صاحب الكشاف فهو يرادف التشبيه ويستعمل بمعناه بلاتفاوت[٧٧]، فكل تمثيل تشبيه وكذا عكسه .

لقد جاء التمثيل فى «كتاب الشعر» لأرسطو ويُراد به نقل" وقع بين طرفين يرتبط كل منهما بشيء آخر وينتسب اليه، بحيث يذكر مع ذلك الشيء اويخطر فى القلب معه . فالنقل فى الحقيقة جرى فى ذلك الارتباط ، بمعنى ان نسبة الطرف المنقول اليه مع الشيء القرين له كنسبة الطرف المنقول مع المرتبط به . فعلى هذا التمثيل عنده لايتحقق بين الشيئين البسيطين، بل يحتاج الى ملاحظة أشياء اربعة تكون نسبة الثانى الى الاول كنسبة الرابع الى الثالث . «واعنى بقولى بحسب التمثيل جميع الاحوال التى تكون نسبة الحد الثانى الى الحد الاول كنسبة الرابع الى الثالث، لان الشاعر سيستعمل الرّابع بدلا من الثانى والثانى بدلا من الرّابع ...

ولايضاح ما اعنى بالامثلة اقول : ان النسبة بين الشيخوخة والحياة هى بعينها النسبة بين العشية والنهار، ولهذا يقول الشاعر عن العشية : ... انها شيخوخة النهار، وعن الشيخوخة انها عشية الحياة، او غروب العيش .

وفى بعض احوالِ التمثيلِ لايوجد اسم، ولكن يعبر عن النسبة فمثلا نثرُ الحَبّ يسمى «البذر» ولكن للتعبير عن فعل الشمس وهى تنثر اشعتها لايوجد لفظ، ومع ذلك فان نسبة هذا الفعل الى اشعة الشمس هى بعينها نسبة «البذر» الى الحبّ ، ولهذا يقال : «تبذُر نوراً الهيّا»[٧٨].

٧٧ـ شرح المفتاح للتفتازانى ،المخطوط .

٧٨ـ كتاب الشعر، ٥٩ .

فالتمثيل عند ارسطو مجاز بنی علی تشبيه وقع بين نسبتين سواء كان طرفاهما حسيين ام لا .

صور وقوع التشبيه التمثيلی

يقع التشبيه التمثيلی علی صور مختلفة :

منها ـ أنه لا يوجد فی طرفی التشبيه تعدد حتی يتصور تقابل اجزاء المشبه لاجزاء المشبه به الا بتكلف[٧٩]، لانه لم يقصد الا تشبيه صورة او حالة بصورة اخری، و ذلك مثل قوله تعالی : «مثلُهم كمثل الذی استوقد ناراً ...»[٨٠].

ومنها ـ أن كلّا من المشبه والمشبه به يشتمل علی اجزاء يمكن ان يتصور بينها التشابه والتقابل فی النظرة الاولی، ولكنه فی النظرة الثانية يظهر فساده لعدم صحة المعنی . و ذلك مثل قول القاضی التنوخی :

كانما المرّيخُ ، والمشتری قــدّامَه فــی شامــخِ الرّفعه
مُنْصرِفٌ باللّيل عــن دعــوةٍ قد أسرِجَتْ قدّامَه شمعه

فالشبه فی الحقيقة ليس للمريخ اوالمشتری وحده، اذ ليس فی هذه المشابهة معنی وطرافة، بل المراد تشبيه الحالة الحاصلة للمريخ من كون المشتری امامه، فلايصح افرادهما بالذكر .

ومنها ـ ان التقابل وتصور التشبيه بين اجزاء طرفی التشبيه صحيح و

٧٩ـ اولايظهر فی طرفی التشبيه تعدد اصلا، و ذلك كتشبيه الكلام بالعسل فی الحلاوة عندالشيخ .

٨٠ـ البقرة، ١٧ .

لكن الحمل على تشبيه الصورة اجمل واحسن من الحمل على تشبيه المتعدد*، و ذلك كقول ابى طالب الرّقى :

و كأنّ اجرامَ السماءِ لوامعا   دررٌ نُثرنَ على بساط أزْرَق[81]

ثم إن التمثيل امّا يقع فى ابتداء الكلام بأن يجيء المعنى ابتداء فى صورة التمثيل، فيكون قياسا موضحا وبيانا مؤثرا فى اقبال القلوب على ذلك المعنى، وهو وان قل وقوعه فى الكلام فانه كثير الوقوع فى القرآن الكريم، فمنه قوله تعالى : «مثلُ الذين اتّخذوا مِنْ دونِ اللهِ اولياءَ كمثل العنكبوت اتَّخذتْ بيتا»[82].

وكقول النبى (ص) : «عمّالكم كأعمالكم وكما تكونون يُولّى عليكم» وقوله ايضا : «المرأةُ كالضلع العَوْجاء ان قوّمتَها كَسّرتَها وان دارَيْتَها استَمْتعْتَ بها»[83].

واما يقع بعد تمام المعنى لايضاحه وتقريره فى النفوس وايداعه التاثير المخصوص، فيكون كالبرهان الذى يثبت به الدعوى، والحجة الناصعة التى تدحض كل زعم، والدليل القاطع الذى يدفع الريب باليقين[84]، و ذلك كقول بشار بن برد :

٨١ــ اسرار البلاغة، ٢٢١ــ٢٢٥ ــ مواهب الفتاح ٣/٤٢٠، فن التشبيه ٢/١٥ــ١٧ . نهاية الارب، ٧/١٤٢ .

٨٢ــ العنكبوت، ٤١ .

٨٣ــ الصور البيانية، ١٢٨ .

٨٤ــ فن التشبيه ٢/٢٧ .

* فهذان القسمان الأخيران كما يسمى تمثيلا يسمى ايضا مركبا، فالتمثيل على مذهب الجمهور أعم من التشبيه المركّب .

ولا تَجْعَلِ الشُّورى عليك غَضاضةً
مكانُ الخَوافى قُوَّةٌ لِلقَوادِمِ

ومن صور وقوع التمثيل ايضا انه قد يحذف المشبه به وتنقل الجملة التى جرت عليه الى المشبه حتى كانه صاحب الجملة، و ذلك كقول يزيدبن الوليد لمروان بن محمد : «فانى أراك تُقدّم رجلا وتؤخّر اخرى» . اى اراك كمن يقدّم رجلا ... او اراك من يقدم ... فحذف المشبه به ونقلت الجملة الى المشبه .

وقد يضرب بجمل لا بد فيها من ذكر المشبه به، ولا يمكن حذفه والاكتفاء بذكر المشبه ونقل الكلام إليه، من ذلك قول النبى (ص) : «الناسُ كإبلٍ مئةٍ لاتكاد تجد فيها راحلةً» فلو قلت الناس لاتجد فيهم راحلة او لاتجد فى الناس راحلة كان ظاهر التعسف .

ومنه ايضا قوله تعالى : «إنما مثلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السماء» فلايصح حذف المشبه به ونقل الجملة التى بعدها الى المشبه لان الافعال المذكورة المحدث بها عن الماء لايصح اجراؤها على الحياة[٨٥].

ثم الجملة التى تقع بعد المشبه به لاتخلو من ثلاثة اوجه :

١ـ أن تكون صلة للمشبه به اذا كان موصولا، كقوله تعالى : «مثلُهم كمثلِ الذى استوقدَ ناراً فلما اضاءَتْ ما حولَه» .

٢ـ أن تكون صفة له اذا كان نكرة، مثل قول النبى (ص): «الناسُ كابلٍ مئةٍ لاتجدُ فيها راحلةً» .

٣ـ أن تكون مبتدأة، متى كان المشبه به معرفة ولم يكن موصولا، و ذلك كقوله تعالى : «كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا» على قراءة الوقف

٨٥ـ اسرار البلاغة، ١٢٦ـ١٢٧ .

على العنكبوت، ويجوز اعراب الجملة بناء على انها حال[٨٦].

بلاغة التمثيل :

التمثيل اعم من أن يجىء فى ابتداء الكلام او يقع فى أعقاب المعانى، يكسوها ابّهة، ويكسبها شرفا ومنقبة، ويرفع من شأنها .

فان كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل فى النفوس وأعظم، وأسير على الألسن وأذكر، و أولى بأن تعلقه القلوب وأجدر . قال المتنبى :

وما انا منهمُ بالعيش فيهم ولكِنْ معدنُ الذّهبِ الرَّغامُ

وان كان ذما كان مسّه أوجع، وميسمه ألذع، و وقعه أشدّ وحدّه أحدّ ، و ذلك كقوله تعالى فى الذين يعرضون عن التذكرة : «كأنهم حمرٌ مستَنْفِرة فرَّتْ من قَسْوَرة»[٨٧].

وان كان حجاجا كان برهانه أوضح وأثره فى النفس أوقع، قال ابو العتاهية :

ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكَها إنَّ السفينةَ لاتجرى على اليَبسِ

وان كان اعتذارا كان أقرب الى القبول وأجذب للقلوب، وأنزع للضغائن، وأدعى الى الصداقة والمحبة، وأبعث على حسن الرجوع، قال الشاعر :

لاتحسَبوا أنّ رقصى بينكم طَربٌ
فالطيرُ يرقص مذبوحاً من الألم[٨٨]

٨٦– المصدر نفسه و ذيله، ١٢٨ .

٨٧– المدثر، ٥٠–٥١ .

٨٨– الصور البيانية، ١٢٨ .

وان كان وعظا كان أشفى للصدر، وأبلغ في التنبيه والزجر، و ذلك كقول النبي عليه الصلاة والسلام : «مثلُ الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثلُ السراج الذي يُضيء للناس ويحرق نفسه» .

والسبب في أن للتمثيل هذا التأثير البليغ، هو ان النفوس جبلت على الميل الى العلم من طريق الحواس او الى ما يكون معلوما لديها بالاضطرار والطبع، فالعلم المستفاد من طرق الحواس، اوالمركوز في النفس من جهة الطبع والضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة .

فالفضل فيه يرجع اما الى ان المعاني الممثّلة يفيد الصحة ونفي الريب والشك، كما اذا كانت المعاني التي يجيء التمثيل في أعقابها غريبا بديعا يمكن ان يُخالف فيها ويُدعى استحالتها، كقول المتنبي :

فانْ تَفُقِ الانامَ وأنتَ منهم فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

او الى انها تفيد بيان مقدار تلك الصفة ومبلغها في القوة والضعف والزيادة والنقصان، و ذلك كأن تقول : مثلُ مَنْ لا يحصل من سعيه على طائلٍ مثلُ الرّاقم على الماء .

وايضا أن لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك من غير محلته بابا آخر من الظرف واللطف، ومذهبا من مذاهب الاحسان لا يخفى موضعه من العقل . ولهذا نرى كلما كان التباعد بين طرفي التشبيه أشدّ ، كان التشبيه الى النفوس أعجب والقلوب اليه أرغب .

ولا يخفى ان التمثيل أخص شيء بهذا الشأن وأقرب جار لهذا المكان وأمس رحما لهذا الباب[٨٩].

٨٩ـ أسرار البلاغة، ١٢٨ـ١٤٨ .

منزلة التشبيه التمثيلي :

اعم انك اذا نظرت الى وجودالشبه وحصوله فى طرفي التشبيه ، و اشتراكهما في نفس الصفة وحقيقتها وجدت ان التشبيه الحقيقي الاصلي هو ما يقابل التمثيل، اعني التشبيه الصريح الظاهر[٩٠]، واما اذا نظرت الى مدى تأثير التشبيه في النفوس والعقول، وحظه من الخيال وإعمال الفكر رأيت ان التمثيل أفضل أنواع التشبيه، ولهذا قال الشيخ : «واذا ثبت هذا الاصل وهو ان تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرّك قوى الاستحسان.. فان التمثيل أخص بشيء بهذا الشأن»[٩١].

ومما يدل على أهمية التمثيل ومنقبته، ان تشبيه التمثيل دليل على خصوبة الخيال وغزارة مادته، لان الاصل فيه مراعاة اشياء متعددة وملاحظتها مجتمعة منظمة ، فيكثر فيه الصور وتزاحمها وتفاعلها وتجمعها وتفرقها، وليست هذه الامور إلاّ وليدة الخيال المبتكر والادراك السامي والتفكير القوي . فالادب الذي يشتمل على تشبيه التمثيل ادب خصب الخيال، والتمثيل من بين صفوف التشبيه هو الدافع الى الابداع والابتكار[٩٢].

ومما يتصل بالتشبيه التمثيلي ويعد من صوره ما يعرف بالتشبيه الضمني غير ان التسمية فيه لم تتأت من ناحية وجه الشبه، فلهذا ندرسه فيما يلي كقسم مستقل من اقسام التشبيه .

٣ـ التشبيه الضمني

هو ما لم يرد على تلك الصور المعروفة للتشبيه التي سبق ذكرها ،

٩٠ـ المصدر نفسه، ١١٢ .
٩١ـ المصدر، ١٤٨ .
٩٢ـ بلاغة ارسطو، ٢٧١ .

ولم يذكر فيه طرفا التشبيه بحيث ينبئان عن المشابهة في النظرة الأولى . فلم يحمل احدهما على الآخر، ولم يقع بينهما نسبة، ولم يكن معهما ما يدل على عقد التشابه، حتى ان كلا منهما جملة مستقلة كانت بمعزل عن الاخرى في الغالب . و ذلك كقول المتنبي :

مَنْ يهُن يسهُل الهوانُ عليه　　　ما لجرحٍ بميتٍ ايلامُ .

فالمراد تشبيه حالة من اعتاد بالهوان وسهل ذلك عليه ولم يتأثر به، بحالة الميت اذا جرح لم يتالم به . فهذا المعنى لا يدرك من البيت في النظرة الاولى، لانه لم يصرح به، بل جاء على سبيل الكناية والاشارة وفي ضمن الكلام، ولهذا قال التفتازاني : «وليُسمَّ هذا التشبيه ضمنيا ومكنيا عنه»[٩٣] لعل انه اول من قدم عنوان التشبيه الضمني لهذا القسم . فالتسمية والقسمة جاءتا باعتبار ان الكلام ظاهر الدلالة وصريحها على التشبيه ام لا .

ومن أمثلة التشبيه الضمني قول ابي الفتح البستي :

فالحرُّ عزيزُ النفسِ حيث ثوى　　　والشمسُ في كل برجٍ ذاتُ انوارِ

وقول ابن ابي عيينة :

فدَعِ الوعيدَ فما وعيدُكَ ضائري　　　أطنينُ أجْنِحَةِ الذُّبابِ يضيرُ

وقول البارودي :

فلا عَجب إن لم يصرّني منزلٌ　　　فليس لعُقبانِ الهواء وُكورُ

و قول أبي فراس :

سيذكرني قومي اذا جدَّ جدُّهم　　　وفي ليلةِ الظلماءِ يفتقد البدرُ

وقول المتنبي :

فإن تفُقِ الانامَ وانتَ منهم　　　فإنّ المِسْكَ بعضُ دم الغزال

٩٣ـ المطول، ٣٣١ .

فاذا أمعنت النظر فى هذه الامثلة رأيت ان التشبيه عرض فى معرض الدعوى مع البينة والبرهان، فالجملة التى تضمنت المشبه أتت متقدمة فى صورة دعوى مشتملة على مطلب غريب وبديع، قابل للمخالفة والانكار وادعاء استحالة وجوده . ثم اتى بالجملة التى تضمنت المشبه به فى صورة امر محقق ومسلم، وكبرهان لرفع الغرابة ونفى المخالفة والانكار فى امر المشبه، فقرّب المشبه من القبول وصحّح وجوده .

فالتشبيه الضمنى يُرى عليه مسحة العقل اكثر ومنحة الفكر اوفر ، فلهذا نرى انه يكثر استعماله عند امثال المتنبى وابى تمام ممن عُرفوا بشاعر العقل والفكرة .

بلاغة التشبيه الضمنى :

يمكن تلخيص بلاغة التشبيه الضمنى فيما يلى :

١ـ أنه دعوى مع البينة والبرهان .

٢ـ أنه إبراز لما يبدو غريبا ومستحيلا فى معرض القريب الملموس الممكن .

٣ـ أنه جمع بين أمرين متباعدين وجنسين غير متقاربين .

٤ـ أنه دلالة على التشبيه بالاشارة والكناية لا بالوضوح والصراحة، لان النيل الى المطلب بعد اعمال الفكر الذ وأعز .

٤ـ تشبيه المركب بالمركب

من اقسام التشبيه باعتبار طرفيه تشبيه المركب بالمركب، والمراد بالتركيب هنا اعتبار اشياء مختلفة وانتزاع هيئة منها و جعلها مشبها او

مشبها بها[٩٤]، و ذلك كقوله تعالى : «إنما مثَلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السَّماء فاختَلَط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى اذا اخذتِ الأرضُ زخرفَها وازّيَّنت وظَنَّ اهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً او نهاراً، فجعلناها حَصيداً كأنْ لَم تَغْنَ بالأمسِ»[٩٥].

فشُبِهت حالُ الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الاقبال، بحال نبات الأرض فى جفافه و ذهابه حطاما بعد ما التفّ وتكاثف وزيّن الارضَ، و ذاك تشبيه صورة بصورة لانه لوحظ فى كلّ من المشبه والمشبه به أشياء مختلفة فرتبت و نظمت ثم انتزعت منها تلك الهيئة او الصورة[٩٦].

ولا يخفى انه كلما كان طرفا التشبيه مركبين كان الوجه مركبا ولا عكس، كما نرى فى قول ابى النجم او ابن المعتز :

والشمسُ كالمرآةِ فى كفّ الأشَل   لما رأيتها بَدتْ فوقَ الجبل

فوجه الشبه هنا مركب، لانه كما قال السكاكى[٩٧] هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الاشراق والحركة السريعة المتصلة، وشبه تموج الاشراق . واما طرفا التشبيه أعنى الشمس والمرآة فمفردان[٩٨].

٩٤– المختصر، ٣/٣٥٧ .

٩٥– يونس، ٢٥ .

٩٦– المثل السائر، ١/٤٠٤ .

٩٧– مفتاح العلوم، ١٦٠ .

٩٨– لقد تنبهت الى ان التشبيه المركب قد يأتى فى صورة التشبيهات المفردة، مثل :

للورد عندى محلُ   لانه لايُمَلّ

كل الرياحين جند   وهو الامير الأجلّ

ان غاب عزوا وياهوا   حتى اذا عاد ذلوا

واذا خلا المشبه والمشبه به فى الكلام من التركيب سمى تشبيه المفرد بالمفرد، وذلك كقوله تعالى : «وجعلنا الليلَ لباسا»[٩٩] فشبه الليل باللباس فى ستر الهارب من العدوّ، واخفاء كلّ ما لا يحبّ الشخصُ ان يطلع عليه الآخرون من امره. فكل من المشبه والمشبه مفرد خالٍ من التركيب والتعدد.

ومنه ما جاء فى المثل : «اللّيلُ جُنَّةُ الهارب» .

واذا كان المشبه مفردا والمشبه به مركبا او بالعكس، سمى الكلام تشبيه المفرد بالمركب، او المركب بالمفرد .

فالاول ــ كقوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرماد اشتدّتْ به الرّيحُ فى يومٍ عاصف»[١٠٠].

ومنه فى الشعر قول ابى نواس :

اذا امتَحن الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

والثانى ــ قليل الاستعمال لندرة وجود المشابهة بين المشبهَ والمشبه به حينئذ، قال ابن الاثير[١٠١] : «وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم أجد ما امثل به هذا القسم الاّ مثالا واحدا، وهو قول ابى تمام فى وصف الرّبيع :

يا صاحبىّ تقصّيا نظرَيْكما ... ترَيا وجوهَ الأرض كيف تُصَوَّر

تريا نهاراً مُشمِساً قد شابَهُ ... زهرُ الرُبا فكأنّما هو مُقمِرُ

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر» .

والتشبيه المركب بين هذه الاقسام اجلّ شأنا واعظم مرتبة، لأن الفكرة

٩٩ــ عمّ، ١١ .

١٠٠ــ ابراهيم، ٢٢ .

١٠١ــ المثل السائر، ١/٤١٥ .

والرّوية فيه اوفر، و دقة النظر فيه اكثر، وآفاق الاخيلة فيه اوسع، و مؤونته أرفع، إذ إيجاد العلقة والرابطة بين طائفتين مختلفتين وتقريبهما اصعب من ان تربط شخصين معا وتضع احدهما بجانب الآخر.

ولهذا متى امكن حمل التشبيه على المركب فلايعدل عنه الى المفرد، حتى لاتفوت معه دقة التركيب المرعية فى وجه الشبه. فالتشبيه المركب اعز وقوعا من التشبيه المفرد والمتعدد الخالى من التركيب، لان امرهما سهل هيّن[١٠٢]. فتشبيه المركب ابلغ الاقسام واعزها واجلها.

الفرق بين التشبيه المركب والمقيد والمتعدد

وقد يقع التشبيه على صور يحتاج فى حملها على تشبيه المركب بالمركب اوالمفرد بالمفرد الى الدقة والتامل، و ذلك:

١ـ كأن يكون طرفا التشبيه مقيّدين بقيود على صورة الاضافة او المفعول اوالوصف اوالحال اوالمجرور او غير ذلك، ولها اثر فى وجه الشبه. كما تقول: من لايحصل من سعيه على فائدة كالرّاقم على الماء. فكل من المشبه والمشبه به فى المثال لم يكن شيئا واحدا، بل اعتبر معهما امور اخرى مثل عدم الحصول على الفائدة والكتابة على الماء. فهل يعدّ من باب تشبيه المركب بالمركب او من باب تشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد؟

ليس الجواب على هذا السؤال سهلا، و ذلك لان الفرق بين المركب

١٠٢ـ فن التشبيه، ٢/١٧.

والمفرد كما قال العلامة التفتازاني : «احوج شيء الى التأمل فكثيرا ما يقع الالتباس»[١٠٣].

والتحقيق في بيان الفرق بينهما ان المقصود بالذات للمتكلم في امثال «من لا يحصل ...» ان كان عبارة عن المقيد وكان القيد تبعاله، عدّت من باب تشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد .

وان كان المقصود هو الهيئة الاجتماعية والقيود وسيلة للتوصل، ولا ترجيح بين اجزاء طرفي التشبيه بعضها على بعض، كانت من باب تشبيه المركب بالمركب .

فالفرق بين المقيد والمركب هو القصد الراجح في شيء مخصوص و عدمه .

أما الرّجحان باعتبار المتكلم او عدمه، فمبني على انّه يهتم بجزء اكثر من جزء آخر، او انه لا يهتم إلاّ بالمجموع .

وأما الرجحان باعتبار السامع فمبني على القرائن الدالة على قصد المتكلم، او انه لو استعمل ذلك التشبيه لم يطابق ذوقه الاّ مع ذلك الرجحان المقتضي للتقييد او عدمه المقتضي للتركيب .

والحاصل انه لا يوجد في التركيب اللفظي ما يدل على ان امثال «من لا يحصل ...» من باب تشبيه المقيد او المركب، وانما المعتبر في ذلك قصد الهيئة بالذات والاجزاء تبع لها، او قصد جزء من الاجزاء والربط بغيره تبع . والحامل على أحد القصدين وجود الحسن فيه دون الآخر، ويرجع ادراكه الى حكومة الذوق والطبع[١٠٤].

١٠٣ـ المختصر، ٣/٤٢٢ .

١٠٤ـ مواهب الفتاح، ٣/٤٢٢ .

ويقال ايضا فى الفرق بينهما : إن المركب كل واحد من اجزائه جــزء الطرف، والمفرد المقيد يكون الطرف فيه ذلك المقيــد، والقيد شــرط لا جزء[١٠٥].

٢ــ او كأن يكون طرفا التشبيه متعددين، مثل قول امرىء القيس :

كــأنّ قلــوبَ الطيــرِ رَطبــا ويابســا
لــدى وكرِ ها العنــابُ والحشفُ البالــى

لقد عقد البيت على تشبيه شيئين بشيئين، فيرى فى النظرة الاولى ان لاجتماعهما اثراً فى المشابهة، وانه قصد أنْ يجعلَ بينهمــا اتصالا حتــى يحصل من ذلك هيئة تكون مقصودة بالتشبيه . لكن اذا امعنت النظر رأيت أن البيت من باب تشبيه المفرد بالمفرد، وانه لم يقصد مــن تشبيه القلوب الرطبة ان تكون مجتمعة بجانب القلوب اليابسة، اذ لا فائدة فى ذلك الاجتماع والهيئة الحاصلة منه، اكثر مما تجد اذا اكتفيت بتشبيه القلوب الرطبة فقط . قال الشيخ : «ولو ان اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحيــة والرطبــة كذلك فى ناحية اخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه هنــا فقلت : كأن الرطب من القلوب عناب، وكأن اليابس حشف بال لم تر احــد التشبيهين موقوفا فى الفائــدة على الآخــر، وليس كــذلك الحكم فــى المركبات»[١٠٦].

فانك اذا فضضت التركيب فى المركبات، وجدت فى بعضها أن احــد طرفيه يخرج عن ان يكون صالحا للمشابهة بما جاء فى مقابلته مع التركيب. كما ترى فى قول ابن المعتز :

١٠٥ــ اسرار البلاغة، ١٦٢ــ١٦٣ .
١٠٦ــ المصدر نفسه ، ٢٢١ .

غـدا والصبحُ تحتَ الليلِ بـادٍ كطِرْفٍ أشهبَ ملقَى الجِلالِ

فالشاعر نظر الى الصبح والليل جميعا وتامل حالهما معا، فحصل عنده هيئة من مجموع الشكلين فأراد ان يشبهها بنظير لها، فوجد ذلك النظير فى هيئة الفرس الاشهب قد أُلقِيَ الجل منه . فلو فككت التركيب فيه و جعلت «الجلال» فى مقابلة الليل وقلت : «كأن الليل جلال» وسكّت لم يكن شيئا .

و وجدت في بعضها الآخر ، ان تفريق التشبيه وان كان صحيحا الا ان الكلام يفقد شيئا كثيرا من روعته ومقدارا من احسانه، كقول ابى طالب الرقى :

وكأنّ اجرام النجومِ لوامعاً درر نُثِرْن على بساطٍ أزرقِ

فاذا قلت فيه كأن السماء بساط ازرق، وكأن النجوم درر، وجدت التشبيه صحيحا ومقبولا غير انه كان فى صورة التركيب اروع واحسن . و ذلك لان المقصود كما قال الشيخ : «ان يريك الهيئة التى تملأ النواظر عجبا، وتستوقف العيون، وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى، من طلوع النجوم مؤتلفة مفترقة فى أديم السماء وهى زرقاء ، و زرقتها الصافية التى تخدع العين والنجوم تتلألأ وتبرق فى اثناء تلك الزرقة . ومن لك بهذه الصورة اذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب»[١٠٧].

والحاصل ان الفرق بين التشبيهات المجتمعة والتشبيه المركب هو أن التركيب يفيد شيئا لا يوجد عند التفريق، وأن الوجه فى المركب مأخوذ من امور كان كل واحد منها مقصودا بالأصالة بحيث لو حذف شىء منها لاختل التشبيه، وايضا انه روعى فى المركب حالة اجتماع الاشياء على نظام

١٠٧ـ المصدر، ٢٢٢ .

معین من حیث التقدیم والتأخیر والتسلسل المنطقی والعقلی، حتی لو قدم او تأخر شیء عن موضعه لاختل التشبیه کما اختل بالحذف. و ذلك مثل قول الشاعر[١٠٨].

کما ابرقَتْ قوماً عِطاشاً غمامةٌ فلمّا رأوْها أقشعَتْ و تجلَّتِ

فوجه الشبه ابتداء مُطْمِعٌ متصل بانتهاء مُؤیِسٍ، فلهذا لایصح الاکتفاء بالمصراع الاول لأن الإنتهاء المؤیس ایضا ملحوظ فی التشبیه، وکذلك لایصح التصرف فی الترتیب بتقدیم مضمون المصراع الثانی علی الاول.

اما التشبیهات المجتمعة التی لاتفید حالة الإجتماع معنی زائداً فی التشبیه، ولایعتبر فیها ترتیب ونظام خاص مثل: هو کالجبل شموخا، و کالبحر جودا، فهی اذا فرقتها اوغیّرت ترتیبها لایحصل فیها خلل[١٠٩].

فالتشبیهات المجتمعة لها خاصیتان، الاولی انه لایجب فیها الترتیب. الثانیة انه اذا سقط البعض لایتغیر حال الباقی[١١٠].

٥ـ التشبیه المقلوب

هو فی الاصطلاح ما عُکس طرفا التشبیه فی متعارف الناس، بان جعل

١٠٨ـ یقال انه کثیّر عزّة، وقبله فیما زعموه:

لقد أطمعتنی بالوصال تبسما فلمّا رأتنی اعرضَتْ وتولّتِ

ونیز اسرار البلاغة، ١٢٤.

١٠٩ـ راجع، الایضاح، المواهب، العروس، ٣/٣٧٨.

١١٠ـ راجع نهایة الایجاز، ٦٩.

ما يستعمل فى متعارفهم مشبها، مشبها به، وما يستعمل مشبها به، مشبها . فمما هو معروف عندالناس تشبيه الجبين بالصبح، ولكن عكس محمد بن وهيب ما تعالمه الناس وقال فى قصيدة فى مدح المأمون :

وبدا الصباحُ كأنَّ غرّته وجهُ الخليفةِ حين يُمْتَدح

فشبه الصبح بوجه الخليفة تنزيلا لما هو قاصر فى الحقيقة منزلة الكامل الزائد .

وجعل الشيخ التشبيه المقلوب من باب جعل الفرع اصلا على عادة التخييل ليوهم ان ما هو قاصر عن نظيره فى الصفة زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يجعل اصلا فيها[١١١].

واما ابن الاثير فهو يسميه «الطرد والعكس» ويجعل الغرض منه المبالغة[١١٢].

والتشبيه المقلوب لايطرد فى عكس كل تشبيه القاصر بالزائد، بل انما يتأتّى ويحسن فى عكس تشبيه تعارفه الناس واصطلحوا عليه . ولهذا نرى القلب فى قول البحترى :

فى طلعة البدرِ شىءٌ مِنْ محاسنها و للقضيب نصيبٌ مِنْ تثنّيها

جاء حسنا، لان العادة والعرف ان يشبه الوجه الحسن بالبدر والقدّ الحسن بالقضيب[١١٣].

ومما هو حسن جميل و وقع فى موقعه قول الصاحب بن عباد للقاضى ابى الحسن حينما اهداه عطر الفطر عقب خروجه عن مجلسه :

١١١– اسرار البلاغة، ٢٥٧ .

١١٢– المثل السائر ١/٤٢١ .

١١٣– المصدر نفسه، ١/٤٢٢ .

يا ايها القاضي الـذي نفسي لـه مع قُرْبِ عهدِ لقائِه، مُشتاقَهْ
أهديتُ عِطراً مثلَ طيب ثنائِه فكأنّما أهـدى لـه اخـلاقَهْ

فالمتعارف عندالناس ان يشبه الاخلاق بالعطر او بما يفوح مثلـه ، فاذا قصدت المبالغة وجعل الفرع الاصل وقلت : ان العطر كاخلاقـه جـاء التشبيه حسنا ومقبولا[114].

اما اذا لم يقصد في العكس المبالغة وايهام ان الناقص كالزائد، بـل اقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون، او جمع وصفين على حدّ يوجد في الفرع والاصل كليهما، فهو يستقيم ويحسن في كل مورد اعم من ان يكون مما تعارفه الناس ام لا[115].

غير ان من المعاني ما لا يقلب، ولا يحسن ان يعكس قصدت المبالغة ام لا، و ذلك كانك تقول : نام القومُ حتى كأنّهم موتـى، ولا يحسن ان تقول : ماتوا حتى كانهم نيام[116].

التشبيه المقلوب من الناحية النفسية

التشبيه المقلوب من الناحية النفسية وليدة عدم اشباعِ رغبة الادباء و عدم وجدان ضالتهم في التشبيه العادي، فلذلك ترى بعضهم يزدري شـأن التشبيه ولا يهتم به كقول المتنبي مفتخرا بنفسه :

أمِـطْ عنك تشبيهي بمـا وكأنـه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلـي

١١٤ـ اسرار البلاغة، ٢٧٠ .

١١٥ـ المصدر نفسه، ٢٥٧ .

١١٦ـ فن التشبيه، ١/٢٧٩ .

او انه يطلب نظيرا لما أعْجِب به ويسعى وراءه، لكنه يعزّ عليه فيرجع خائبا، و ذلك كقول البحترى :

قد طَلبنا فلم نجد لك فى السُّوءْ ‍ ‍ ‍ ‍ دَدِ والمجدِ والمكارمِ مثلا

او انه يرفع شان ما أُعجِب به عما يشبه به فى العادة، كقول المتنبى:

ولو لا احتقارُ الأسدِ شبهتُهم بها ‍ ‍ ‍ ‍ ولكنّها معدودَةٌ فى البهائم

فبحثوا عن قوالب تفى برغائبهم وتصور نزعاتهم، وسعوا وراء تعبير يؤدى تلك المبالغة التى ملأت نفوسهم، فجاء طريق القلب ثمرة لهذا البحث والسعى .

وأحيانا كانت هذه الرغائب والنزعات بحيث لم يَبلّ التشبيهُ المقلوب غلة الشعراء فيها و لم يبرأ جوعهم منها ، فاضافوا الى القلب اشياء تزيده مبالغة اشبه بالغلوّ والاغراق . قال مجنون ليلى :

أخذتْ محاسنَ كلِّ ما ‍ ‍ ‍ ‍ ضَنّت محاسنُه بحسنه
كاد الغزالُ يكونُها ‍ ‍ ‍ ‍ لو لا الشوى و نشوزُ قرنه

وقال ايضا :

وعيناكِ عيناها ، وجيدُكِ جيدُها ‍ ‍ ‍ ‍ ولكنّ عظمَ الساقِ منكِ دقيقُ

وقال بديع الزمان الهمدانى :

وكاد يَحكيكُ صوبَ الغيثِ مُنسَجما
لو كان طلقُ المُحَيّا يُمطِرُ الذهبا[١١٧]

ومع ان التشبيه المقلوب وليد عدم تحقق بغية الادباء ، فهو من نتائج عصر الاناقة والترف وغلبة الفن على الذوق، فلهذا نرى انه فى العصر

١١٧- راجع فن التشبيه ١/٢٦٦-٢٦٧ .

الجاهلى اقل بكثير منه فى العصر العباسى، واهون شأنا من حيث الدقة والحسن والجمال[118].

جمال التشبيه المقلوب و بلاغته

ان التشبيه المقلوب بما يؤدى من المبالغة والاهتمام بشأن ما هو ناقص فى الواقع وفى متعارف الناس، استهوى الادباء والشعراء وأعجبوا به وانكروا على من لم يسلك مسلكه. نقل ابو هلال العسكرى عن الاصمعى انه قال : سمعت اعرابيا يقول : إنكم معاشر اهل الحضر، لتخطئون المعنى، ان احدكم ليصف الرّجل بالشجاعة فيقول : كانه الاسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كانّها الشمس، ولم لاتجعلون هذه الاشياء بهم اشبه ؟ ثم قال : والله لأنشدنّك شعرا يكون ذلك اماما . ثم انشدنى :

إذا سألتَ الورى عن كلّ مكرمة	لم تُلف نسبتها إلا إلى «الهَوْل»
فتى جوادا أعار النيلَ نائلَه	فالنيلُ يشكر منه كثرةَ النَيْل
والموتُ يرهب أن يلقى منيته	فى شدّة عند لَفّ الخيل بالخيل
لو عارض الشمسَ ألفى الشمس مظلمة	اوزاحم الصمّ ألجاها الى المَيْل
او بارز الليل غَطَّته قوادمُه	دون الخوافى كمثل الليل فى الليل
امضى من النجم ان نابته نائبة	وعند اعدائه أجرى من السيل[119]

ومرجع هذه الابيات الى تشبيهات مقلوبة غير صريحة .

ويلخص بلاغة التشبيه المقلوب فيما يلى :

١١٨ـ المصدر نفسه ١/ ٢٦٠ـ٢٦١، ٣٠٧ .

١١٩ـ نهاية الارب، ٣/ ١٨٥ .

١ـ الايهام فى الشىء الناقص عن نظيره فى الصفة، انه زائد عليه فى استحقاقها .

٢ـ ايقاع المبالغة فى النفس من حيث لايشعر، وافادتها من غير ان يظهر لها ادعاء، لانه يوضع الكلام موضعا كانه يقاس فيه على اصل متفق عليه، ويبرز الخبر فى معرض امر مسلم لاحاجة فيه الى دعوى، ولااشفاق من خلاف مخالف وانكار منكر . والمعانى اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها سرور خاص وفرح عجيب، لانها بمنزلة نعمة لم تكدرها المنة .

٣ـ انك تنال الربح فى صورة رأس المال، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك[١٢٠].

٦ـ التشبيه المجمل والمفصل

من أقسام التشبيه باعتبار ذكر وجه الشبه وعدمه، المجمل والمفصل .

المجمل ـ ما لم يذكر فيه نفس وجه الشبه او ما يستلزمه على الطريقة المعروفة فى الجامع بين الطرفين، سواء لم يذكر معهما وصف ينبىء عن التشبيه، كقولك : العلم نور، او ذكر ولكن لا على الطريقة المعروفة ـ اعنى على صورة التمييز اوالمجرور بفى ـ و ذلك مثل : هم كالحلقة المـُفـْرغَـةِ لايـُدرى اين طرفاها . فوجه الشبه التناسب والمساواة و عدم التفاوت، وهو غير مذكور فى الجملة ولكنه ُدلّ عليه بقول : «لايدرى أين طرفاها» الذى لم يجىء على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع .

١٢٠ـ اسرار البلاغة، ٢٥٧ـ٢٥٩ .

وكقول ابى تمام فى الحسَن بن سهل :

صدفتُ عنه ولم تصدف مواهبُه عنّى، وعاوده ظنّى فلم يَخب
كالغيث إنْ جئتَه وافاكَ ريّقُه، وإن ترحَّلتَ عنه لَجَّ فى الطلب ِ

فوجه الشبه الإفاضة فى حالتى الطلب وعدمه وهو غير مذكور، غير انه ذكر مع كل من المشبه والمشبه به ما ينبىء عنه، ولكن لا على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، فلهذا عُدّ نحوُ هذه الأمثلة من مصاديق المجمل .

والمفصل ما ُذكر فيه وجه الشبه نفسه، او ما يستلزمه على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، فالاول كقولك : هو بحر" جوداً، وهو جبل" فى الاستقامة . والثانى نحو : كلامه كالعسل حلاوة، وهذه الحجة كالشمس فى الظهور .

فالحلاوة وكذا الظهور ليسا نفس وجه الشبه ههنا، لانهما غير موجودين فى المشبه حقيقة، فهما وصفان يستلزمان وجه الشبه الاصلى أعنى الملائمة مع الطبع والموافقة له فى المثال الاول، وعدم الانكار وفقدان الشك فى المثال الثانى .

والفرق بين هذا القسم من المفصل والمجمل الذى ُذكر فيه وصف يُنْبىء عن وجه الشبه، ان الوصف فى المفصل جاء على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، بخلافه فى المجمل كما عرفت .

اغراض التشبيه

لقد سبق أن رسالة التشبيه نقلُ شعورِ الكاتب والاديب وتصويرُ

احساسهما، ولما كان محمل هذا الشعور ومثاره هــو المشبه، كان مــن الطبيعى ان يعود الغرض من التشبيه اليه .

وقد قالوا فى تعليل رجوع غرض التشبيه الى المشبه : انه لما كــان التشبيه بمنزلة القياس فى ابتناء شيء على آخر كان الوجه ان يكون الغرض منه عائداً الى المشبه الذى هو كالمقيس، او انه لما كان المقصود من التشبيه بيان حال المشبه كان الغرض منه عائداً اليه[١٢١].

والأغراض الراجعة الى المشبه فى الغالب هى :

١ــ تهويلُ المشبه وجعلُه مَهاباً .

اذا كان المشبه به أخوفَ شيء فى متعارف الناس، اومعروفا عندهم بالمهابة . و ذلك كقول عنترة بن شداد :

وأنا المنيةُ وابنُ كــلّ منيّة ، و سوادُ جلــدى ثوبُها ورِداها

وقوله ايضا :

و أنا المنيّةُ حين تَشْتَجِرُ القنا والطعــنُ منــى سابقُ الآجــالِ

ويكثر هذا فى مقام المدح :

٢ــ بيان حاله .

اذا كان المشبه به معلوما عند السامع بتلك الصفة التى يقصد اشتراك الطرفين فيها، بخلاف المشبه . و ذلك كقول النبى (ص) .

«الحياءُ من الإيمان كالرأسِ من الجسدِ .

وقول عروة بن الورد :

ألا إنّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم كما الناسِ ،لما أخْصَبوا وتَموّلوا

١٢١ــ راجع حاشية عبدالحكيم، ٤٥٥ وحاشية چلبى علــى المطول، ٢٦٤ .

وقول المتنبى :

وما الموتُ الاّ سارقٌ دقّ شخصُه يصولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رِجْلِ

وهذا النوع كما قال الاستاذ على الجندى : «يرِد كثيرا فى المسائل العلمية للإفهام والتوضيح، فهو جزيل الفائدة عظيم النفع، كما انه يقع بكثرة فى كلام الناس لصلته القوية بالفطرة، لان الانسان بطبيعته يستظهر بمعارفه المختزنة على الاحاطة بما يجهله»[١٢٢].

٣ـ بيان مقدار حال المشبه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان .

و ذلك اذا عرفت حال المشبه فى مطلق تلك الصفة التى يقصد الإشراك فيها للمشبه به، ولكن جهلت مقدارها فى القوة والضعف . فيلزم ان يكون المشبه به اعرف بتلك الصفة واتم فيها، و ذلك كقوله تعالى : «ثم قَسَتْ قلوبكُم فهى كالحجارَةِ ، او أشَدُّ قسوة»[١٢٣].

وكقول عنترة :

لئِنْ أكُ أسْوداً فالمِسْكُ لونى وما لسوادِ جلدى مِنْ دواءِ
و لكن تَبْعدُ الفحشاءُ عنّى كبُعْدِ الأرض مِنْ جَوِّ السماءِ

وقوله ايضا :

أحبّك يا ظلومُ ، فانتِ عندى مكانَ الّروحِ مِنْ جَسدِ الجَبانِ
و لو أنى اقولُ مكانَ روحى خشيتُ عليكِ بادرةَ الطِعانِ

٤ـ تقرير حاله وتقوية شأنها .

يشترط فى هذا النوع ان يكون المشبه به حسيا[١٢٤]، وان يكون اقوى

١٢٢ـ فن التشبيه، ١/٢٠١ .

١٢٣ـ البقرة، ٧٤ .

١٢٤ـ حاشية الدسوقى، ٣/٣٩٨ .

واظهر في وجه‌الشبه . والغالب عليه تشبيه‌المعقول بالمحسوس، و ذلك لأن إلف‌النفس بالحسيات أتم من إلفها بالعقليات، فاذا ذكرت‌المعنى‌العقلى الجلي ثم عقّبته بالتمثيل‌الحسي، فكأنك نقلت‌النفس من‌المعنى‌الغريب الى‌المعنى‌القريب[١٢٥]، فتسكن اليه وتطمئن عنده . كقوله تعالى : «والذين كفروا اعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه‌الظمآن ماءً ...»[١٢٦].

وقول‌النبي (ص): مثلُ‌الذي يعلمُ‌الخيرَ ولا يعملُ به مثلُ‌السراجِ الذي يُضيء للنّاسِ ويُحرِقُ نفسَه .

وقولهم : التعليمُ في‌الصغرِ كالنقشِ في‌الحجرِ .

وقول امرىء‌القيس :

كأنّي غداةَ‌البينِ يوم تحمّلوا* لدى‌سَمُراتِ‌الحيِّ ناقفُ‌حَنظل

وقد يقع في تشبيه‌المحسوس بالمحسوس، اذا كان‌المشبه به‌أقوى في ظهور‌الحجة . و ذلك كقول امرىء‌القيس :

كأنّ دماء الهاديـات بنَحْرِه عُصارةُ حِنّاءٍ بشيبٍ مُرجّلِ

والفرق بين هذا النوع والذى قبله ان ما فيه بيان‌المقدار ان قُصِد من حيث‌التقرير لما فيه من قوة‌الظهور والتمام، كان من‌التقرير .

وان قُصد من حيث مُجرّد فهم‌الكيفية، كان من بيان‌المقدار[١٢٧].

وامّا الفرق بينه وبين بيان‌الحال فهو يعدّ قسما من بيان‌الحال، و لكنه بيان على وجه‌التمكين بتوضيح حال‌المشبه في ذهن‌السامع[١٢٨].

١٢٥- راجع فن‌التشبيه، ١/٢٠٧-٢٠٨، والمطول، ٣٣١ .

١٢٦- النور، ٣٩ .

١٢٧- المواهب، ٣/٣٩٩ .

* وفي بعض‌النسخ : يوم ترحلوا .

١٢٨- فن‌التشبيه، ١/٢٠٤ .

وفى هذا الوقت الذى اكتب هذه السطور، يخطر على بالى ان تقرير الحال فى الاصل يقع فيما ادُّعِى للمشبه امر" او نسب اليه حكم، وقُصِد من طريق ذكر مثل و نظير له ان يستقر فى النفس ويتمكن فيها، فعلى هذا ان المشبه فى تقرير الحال حينئذ جملة* مشتملة على حكم يقرّب من الذهن بإتيان نظير معروف ومأنوس له . و ذلك كقول الصنوبرى :

مِحَنُ الفتى يُخْبِرنَ عن أخلاقِهِ
كالنّارِ مُخْبِرَةٌ بفضلِ العَنْبَرِ

ويمتاز تقرير الحال عن بيان الإمكان الذى يأتى قريبا : بان الحكم الذى ينسب الى المشبه فيه ليس امرا غريبا يُشكّ فيه او يُدّعى امتناعه.

٥ــ بيان إمكان المشبه .

و ذلك اذا كان المشبه مشتملا على امر غريب يمكن ان يشك فيه او يدّعى امتناعه، فيؤتى بنظير له مسلّمِ الحكم ومقبوله، تدعيما لحال المشبه، كقول المتنبى :

وما انا منهمُ بالعيشِ فيهم ولكِنْ معدِنُ الذّهبِ الرَّغام

وهذا النوع من الغرض يأتى غالبا مع صورة التشبيه الضمنى كما رأيت فى قول المتنبى، وليس مراد التفتازانى بقوله : «وليُسمَّ مثلُ هذا تشبيها ضمنيا او مكنيا عنه»[١٢٩] ان التشبيه المسوق لبيان الامكان تشبيه ضمنى او كنائى دائما كما ظنه الاستاذ على الجندى[١٣٠]، بل المراد ان ما اتى

١٢٩ــ المطول، ٣٣١ .

١٣٠ــ فن التشبيه، ١/٢١٩ .

* حقيقة كمثال المتن او تاويلا مثل : العلم فى الصغر ... فانه فى تاويل : العلم فى الصغر لايزول اثره، اويبقى اثره طويلا، ومثله النقش فى الحجر .

على سبيل قول المتنبي :

فإنْ تفُقِ الأنامَ وانتَ منهم فإنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغَزال

بأن لم يذكر طرفا التشبيه على ما هو المعروف في بابه، يسمى تشبيها ضمنيا ومكنيا عنه، لان بيان الامكان قد يتحقق مع التشبيه الصريح كما نقله صاحب[١٣١] عروس الافراح عن السكاكي من التمثيل بقول ابن الرومي :

قالوا : ابو الصقر مِنْ شيبانَ، قلت لهم :

كلاّ لعمري ، و لكِنْ مِنْه شيبانُ

كم مِنْ أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ

كما عَلا برسولِ الله عدنانُ

فالغرض من التشبيه في البيت الاخير بيان الامكان ، مع انه لم يسلك سبيل التشبيه الضمني .

ولا او افق الاستاذ الجندي في تمثيله لبيان الامكان الذى اتى على صورة التشبيه الصريح بقول المتنبي :

فإن يَكُ سيّارُ بنُ مكرّم انقضى فإنك ماءُ الورد إنْ ذهَب الوردُ

لان معنى البيت : ان ذهب سيّار وبقيتَ فلا بأس، كما انه لا بأس اذا ذهب الورد وبقي ماؤه، فلم يذكر طرفا التشبيه فيه على الطريقة المعروفة في التشبيه الصريح، وليس المخاطب في البيت وحده مشبها لجملة «ماء الورد ان ذهب الورد» التي في معنى : بقي ماء الورد ان ذهب الورد، كما لا يخفى على المتأمّل .

٦ــ تنظيم شأن المشبه وتحسينه .

١٣١ــ المواهب، ٣/٣٩٦، تفحصت في المفتاح عن هذا التمثيل و اكن ما وجدته .

و ذلك اذا شبهت شيئا بما هو معروف عندالناس بالجلال والرفعة والحسن والقبول، تكريما له وترغيبا فيه، كقول الشَنْفرى :

ولى دونَكم أهلونَ : سِيْدٌ عَملَّسٌ ،
و أرقطُ زُهْلولٌ ، و عرفاءُ جَيْألُ
همُ الأهلونَ، لامُسْتَوْدَعُ السِّر ذائعٌ
لَديهم، ولا الجانى بما جَرَّ يُخذَلُ

وقول عنترة :

بها ليلٌ مثلُ الأُسْدِ فى كلِّ موطنٍ
كأنَّ دمَ الأعداءِ فى فمِهم شهدُ

وقول [132] ابن الانبارى فى ابن بقية الوزير، وقد صلبه عضدُ الدولة :

علوٌ فى الحياةِ و فى المماتِ لحقٌ أنتَ إحدى المُعْجِزاتِ
كانَّ النّاسَ حولكَ حينَ قامُوا وفُودُ نداكَ ايّامَ الصِّلاتِ
مَددْتَ يديك نحوهم احتفاءً كمدّهما اليهم بالهِباتِ
و لما ضاقَ بطنُ الأرضِ عن أنْ يضُمَّ عُلاكَ مِنْ بعدِ المماتِ
أصاروا الجَوَّ قبرَكَ واستعاضُوا عَنِ الأكفانِ ثوبَ السافياتِ [133]
لعُظمِكَ فى النفوس تَبيتُ تُرْعى بحُرّاسٍ و حُفّاظٍ ثِقاتِ
و تُشْعَل عندك النيرانُ ليلا كذلك كنتَ ايّامَ الحياةِ

٧ــ تحقير شأن المشبه وتقبيحه .

و ذلك اذا جعلت المشبه به شيئا معروفا عندالناس بالمَهانة والدناءة والقبح، تحقيراً للمشبه وتقبيحه، كقول عروة بن الورد :

١٣٢ــ فن التشبيه، ١/٢٢٩ .

١٣٣ــ السافيات : الرياح .

لَحا اللهُ صُعْلوكاً اذا جَنَّ ليلهُ مُصافى المشَاش آلفاً كلَّ مجزر [١٣٤]
يَعُدُّ الغِنى مِنْ نفسِه كلَّ ليلة أصابَ قِراها مِنْ صديقٍ مُيَسَّرِ
ينامُ عِشاءً ثمّ يُصْبِح ناعِساً يَحُتُّ الحَصا عن جنبِه المُتعَفّرِ
يُعينُ نساءَ الحيّ مـا يستَعِنَّه ويُمْسى طَليحاً كالبعير المُحسَّرِ

وقال المتنبى فى الهجاء :

واذا أشار مُحدِّثا فكأنّه قِرْدٌ يُقهقِهُ او عجوزٌ تلطِمُ

وقد جمع تحسين المشبه وتقبيحه قولُ عنترة :

مـاءُ الحياةِ بذلـةٍ كجهـنّمٍ وجَهنّمٌ بالعِزِّ اطيبُ مَنْزِلِ *

ولا يخفى ان فى التحسين والتقبيح اثرا واضحا فى تربيته النفوس على الفضائل وردعها عن الرذائل، وترغيبها فى الخير وترهيبها عن الشر ، وحثها على العمل الصالح وملئها بالحماسة والإقدام وحبّ التضحية والفداء والوقوف فى وجه الظلم [١٣٥].

وقد يعود الغرض من التشبيه الى المشبه به، وهو على ما اشار اليه صاحب التلخيص ضربان :

١ــ المبالغة فى شأن المشبه به وايهامُ انه أتم من المشبه كما نراه فى التشبيه المقلوب، قال البحترى [١٣٦] يصف قصرا فوق هضبةٍ :

١٣٤ــ المشاش : جمع مشاشة، رأس العظم . المجزر : الموضع الذى تنحر فيه الابل .

١٣٥ــ فن التشبيه، ١/٢٤٣ .

١٣٦ــ البلاغة الواضحة، ٦٢ .

* وقال البارودى : عيش الفتى فى فناء الذّل منقصة ــ والموت فى العزّ فخر السادة النبَلِ .

فی رأسِ مُشرفةٍ حَصاها لؤلؤ" وترابُها مِسْك" يُشابُ بعنبرِ

وتقول : حَجَر" كقلب الظالم .

٢ـ الاهتمام بشأن المشبه به، و ذلك اذا تركت في التشبيه المشبه به الأصلي وما هو انسب واليق بالمشبه، وجئت بآخر لا يكون بينه وبين المشبه اتصال وثيق ولا قرابة ماسّة، والبليغ لا يرتكب هذا العمل الا لغرض او نكتة مثل الاهتمام بشأن المشبه به . كما اذا كنت جائعا وشبّهتَ وجها كالبدر في الاستدارة والانارة بالرغيف، اهتماما بشانه . وأظن انّ قولَ عنترة :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَواهِلٌ منّي وبيضُ السيف تقطرُ مِن دمي

فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنّها لمَعَتْ كبارقِ ثغركِ المُتَبَسّمِ

من هذا الباب، لان المعروف ان يشبه لمعان السيوف بلمعان البرق اوالنجوم او ما هو مثلها في قوة اللمعان وشدة البرقان، وليس كذلك الثغر. فلا يعني عنترة من هذا التشبيه غير الاهتمام بشأن المشبه به وادعاء انه لا يغيب عن قلبه حتى في ساحة القتال .

وهذا الضرب على عكس الضرب الاول لا يختص بالتشبيه المقلوب و ما وجدت في كلام القوم من يدعي الاختصاص به، غير ان الظاهر من كلام الاستاذ الجندي اختصاص هذا الضرب بالتشبيه المقلوب كالذي قبله[١٣٧]، و لا يخفى ضعفه لان الامثلة المتقدمة لبيان الاهتمام بشأن المشبه به، لا تؤيد الاستاذ .

وأضيفُ على الضربين المذكورين ضربا ثالثا، وهو تحسين المشبه به

١٣٧ـ فن التشبيه، ١/ ٢٨٤ـ٢٨٥ .

بالطريق الأولى على وجه الكناية، ويتاتى ذلك في التشبيه المقلوب . قال عنترة :

لئِنْ أكُ اسوداً فالمِسْكُ لوني وما لسِوادِ جلدي مِنْ دواء

وأظنّ ان قوله تعالى على لسان آكلي الرّبا : «انما البيعُ مثلُ الرّبا»[١٣٨] من هذا الباب .

التشبيه في ميزان النقد

هذه الظاهرة العامة التي توجد عند كل شعب وقوم ويعرفها الصغير والكبير ويستعملها اهل الوبر والحضر، تتفاوت صنوفها شرفا وخسة ، حسنا وقبحا، إصابة وخطأ وبلاغة وسقوطا، وكذلك تختلف في الاهمية وفي اشتمالها على الفن والمهارة وعمق الخيال .

ومما يقرّب التشبيه الى القبول والصحة ويزيده الحسنَ والبراعةَ ، اشتماله على نقل العواطف والتجارب الذي هو فلسفة ابتداع التشبيه[١٣٩] ، والوفاءُ بالغرض المراد منه، واخراجُ الخفي والمستور الى الظاهر والمكشوف[١٤٠]، وجمعُ الاشياء برِباط وثيق يختص به طرفا التشبيه في قصد المتكلم، واتفاقُ المشبه والمشبه به في معنيين او اكثر من الوجوه المشتركة التي تدعو الخيالَ الى التركيب والتأليف[١٤١]، والوقوفُ عند

١٣٨ـ البقرة، ٢٧٦ .

١٣٩ـ النقد الادبي، ٤٤٧ .

١٤٠ـ سر الفصاحة، ٢٩٠ والصناعتين، ٢٥٧ والعمدة ٢٨٧/١ .

١٤١ـ سر بلاغة ارسطو ، ٢٧١، عيار الشعر، ١٧ .

جهات لا يتم التشبيه لدى المتكلم إلاّ بها، وأن يقع التشبيه موقعه[١٤٢] خاليا من الغلو والافراط، بعيدا عن الرداءة والتنافر وكلّ ما يذهب بسلاسة التعبير وسهولته، وأن يكون اشتراك المشبه والمشبه به في الصفات اكثر من انفرادهما حتى يَتَبيّن وجهُ التشبيه ولا كُلفة الاّ ان يكون المطلوب من التشبيه اشهر صفات المشبه به واكملها[١٤٣]، وأن تكون المشابهة بين الطرفين متحققة ومتأصلة ومقبولة بحيث لو جُعل كل منهما مشبها به لم يُخِلّ بالكلام، قال ابن طباطبا : «فاحسن التشبيهات ما اذا عُكِسَ لم ينتقض»[١٤٤].

هذه نماذج من التشبيه المختار الحسن البارع :

قال الله تعالى : «مثَلُ الّذين اتّخذُوا مِنْ دونِ الله اولياءَ كمثلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً، وانّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت»[١٤٥].

وقال ايضا : «هُنَّ لباسٌ لكم وانتم لباسٌ لهنّ» .

وجاء في الامثال : «الليلُ جُنّةُ الهاربِ»[١٤٦].

وقال مسلم بن الوليد :

فإنْ أغْشَ قوماً او أزورُهم
فكالوحشِ يُدنيها مِنَ الانس المحلُ

١٤٢ـ عيار الشعر، ٦ .

١٤٣ـ مقدمة شرح الحماسة للمرزوقي، بالنقل عن الرمزية في الادب العربي، ١٨ .

١٤٤ـ عيار الشعر، ١١ .

١٤٥ـ عنكبوت

١٤٦ـ المثل السائر، ٣٩٩ـ٤٠٠ .

و انـّـي و اسمـاعيـل بعـدَ فـراقـه
لكالغِمْد يـوم الروع زايَله النصـل[١٤٧]

وقال ابو العلاء المعرّى :

والـخِلُّ كالمـاءِ يُبدى لـى ضمائرَه
مـعَ الصفاء ، و يُخفيـها مَعَ الكـدَرِ

وقال الحسين بن مطير الاسدى يرثى معن بن زائدة :

فتىً عاشَ فى معروفِه بعدَ موتِه كما كانَ بعد السيلِ مجراه مرتَعا

وقال عنترة بن شدّاد العبسى :

و خـلا الذُباب بهـا فـليس ببـارحٍ
غَـرِداً كـفعـل الشـارب المتَرنّـمِ
هَزِجـاً يَحُكُّ ذراعَـه بـذراعِهِ
قدحَ المُكِبِّ على الزنادِ الأجـذمِ[١٤٨]

وقال امروء القيس فى اثبات الليل واقامته :

كأنّ الثريّا عُلِّقَتْ فى مَصامِها بأمراسِ كتّانٍ الى صُمِّ جندلِ

وقال مجنون ليلى :

اريدُ لأنسى ذكرَها ، فكأنّما تمثّلُ لى ليلـى بكلِّ سبيلِ[١٤٩]

ذكر ابن الاثير فى التشبيه المقبول والحسن قسما خاصا يرجع الى قالب التشبيه وعرضه، فقال :

«واعلم ان محاسن التشبيه ان يجىء مصدريا، كقولنا : أقدمِ إقدامَ

١٤٧ـ عيار الشعر، ٨٩ .
١٤٨ـ سر الفصاحة، ٢٤٠ .
١٤٩ـ الكامل ٣/١١٤، ١٢٣ .

الأسد ، وفاض فيضَ البحر . وهو احسن ما استعمل فى باب التشبيه»[١٥٠].

إذا كان وجود الاوصاف المتقدمة سببا لإجادة التشبيه وإصابته، وعلةً لبلاغته وبراعته، فلاشك ان الخلو منها يوجب قبحه وخطأه ويضع من قدره و روعته، ويجلب عيوبا تحطّ من شأنه .

فهذه العيوب اما ترجع الى الالفاظ المفردة ، او الى صياغة الكلام و تركيبه، او الى المعنى، او الى عملية الخيال او غير ذلك . وفيما يلى نماذج من العيوب التى اعتورت التشبيهَ وجعلته قبيحا :

قال بشار بن برد :

كأنّ ابريقَنا والقطرُ فى فمِه طيرٌ تناولَ ياقوتاً بمنقارِ

والمعروف ان كلمة «طير» اذا استعملت يقصد بها معنى الجمع ، جاء فى القرآن الكريم : «والطيرُ صافات»[١٥١]، «وارسل عليهم طيراً ابابيل، ترميهم بحجارةٍ مِنْ سجّيل»[١٥٢]. ذكر علامة الزمخشرى ان الطير اسم جمع مذكر وانما يؤنث على المعنى[١٥٣].

اما اذا قصد بها معنى المفرد كما وقعت فى بيت بشار فهى رديئة ، والحسن المقبول فيها لفظة «طائر» .

ومثله قول المتنبى :

و ملمومةٌ سيفيّةٌ ربعيّةٌ
يَصيحُ الحصا فيها صياحَ اللّقالقِ[١٥٤]

١٥٠ــ المثل السائر ٣٩٥/١ .

١٥١ــ النور، ٤١ .

١٥٢ــ الفيل، ٣ــ٤ .

١٥٣ــ الكشاف، ٢٣٤/٤ .

١٥٤ــ الملمومة : الكتيبة المجتمعة . سيفية : منسوبة الى سيف الدوله . ربعيّة : منسوبة الى قبيلة ربيعة وهى قبيلة سيف الدولة .

فان لفظة «اللقالق» مبتذلة بين العامة، فلا تقع موقع القبول والرضى[١٥٥].

وقال ذو الرّمة :

كأنّ اصواتَ ، مِنْ ايغالهنّ بنا ،
أواخرِ الميْسِ ، أصواتُ الفراريجِ[١٥٦]

يريد : كأن اصوات اواخر الميس اصوات الفراريج من ايغالهن بنا، لكن هذا المراد لا يعرف بغير اعمال الفكر والرّوية، لان الخلل الناشىء فى الصياغة بسبب التقديم والتاخير قد ذهب بسلامة التعبير وسهولته .

ومثلُه قول بعضهم :

فاصبحَتْ بعدَ خَطَّ بهجتِها كأنّ قفراً رُسومَها قلماً

والأصل : فاصبحت بعد بهجتها قفرا، كأن قلما خطّ رسومها .

وقال خُفاف بن نُدبة :

أبقى لها التعداءُ مِنْ عتَدَاتِها و متونِها كخيوطةِ الكتّانِ

اراد أن قوائمها ومتونها من اثر العَدْوِ والركضِ دقّت حتى صارت كالخيوط ، وهذا التشبيه بعيد لاشتماله على الغلو[١٥٧].

وفى البيت عيب آخر وهو انه اراد ضلوعها، فقال متونها .

وقال الأخطل مخاطبا عبدالملك فى شأن زُفَر بن الحارث :

بنى اميّةَ إنّى ناصحٌ لكم فلا يبيتنَّ فيكم آمِنا «زُفَرُ»
يظلُ مُفترِشا كالليثِ كلكلُه لوقعةٍ كائنٍ فيها لها جزرُ

١٥٥ــ المثل السائر، ١٨٢ــ١٨٣ .

١٥٦ــ الميس الرحل، الخشبة الطويلة التى بين الثورين، اوغل فى السير : اسرع، والقوم : امعنوا فى سيرهم . والفراريج: افراخ الدجاج .

١٥٧ــ عيار الشعر، ٩٠ والصناعتين، ٢٥٦ .

فهذا التشبيه لا يفي بما يريده الشاعر منه، لانه رفع شأن «زفر» حتى خوّف منه مع ان الشاعر أراد ان يضع من قدره .

ومثله قول كُثيّر :

الا إنّما ليلى عَصا خيزُرانةٍ اذا غَمَزُوها بالأكُفّ تلينُ

فكلمة العصا التي توحي بمعاني اليبس والجساوة والغلظة لا تناسب ما قصده الشاعر من وصف حبيبته باللين والرّقة واللّدونة .

روى أن كُثيّرا لما انشده بشارا ضحك، وقال : لله ابو صخر، جعلها عصا ثم يعتذر لها، والله لو جعلها عصا مُخٍّ او عصا زُبدٍ لكان قد أساء[158].

ومثله ايضا قول العرجي :

يدِبّ هواها في عِظامي وحبّها كما دَبّ في الملسوع سمّ العَقارب

فتشبيه دبيب الهوى في العظام بدبيب السم في الملسوع غاية في البشاعة، وهذا التصوير للحب ليس دليلا على الحبّ الذي اراد الشاعر التأكيد عليه .

وقال ابو بكر بن ظهار :

وكأنّ الظلامَ لمّا تولّى نَمِرٌ راعَه مِنَ الفجرِ ليثُ

والنمر ليس معروفا بالسواد والظلمة ولا الأسد بالبياض والاشراق، فلم يجمع طرفي التشبيه رباط وثيق، فلا تجد في هذا التشبيه بيانا يقرّب ما اراده الشاعر من الأذهان ويزيل عنه الابهام والغموض . وفي البيت عيب آخر وهو ان وصف المشبه به بالارتياع من الاسد لم يقع في موقعه، اذ «أنّ النمر لا يرتاع من الاسد ارتياع الثور منه، او ارتياع الشاة من الذئب

١٥٨ـ فن التشبيه ٣/١٤١ـ١٤٣ .

حتى يُمثّل به، بل المعروف ان النمر يقاوم الاسد ويصارعه ولا يستسلم لمهلكه معه»[١٥٩].

اعلم ان جمع الاشياء برباط وثيق يمتّ الى قرابةٍ ونسب و وقوعَ التشبيه موقعه، عقبةٌ صعبة لم يعبُرها الاّ فرسان البلاغة، ومقتَلٌ من مقاتل البيان لم ينجُ منه الا اصحاب البراعة . فلهذا نرى اكثر عيوب التشبيه ترجع الى هذه المسألة .

قال ساعدة بن جؤية يصف السهام :

كسَاها رطيبُ الرِّيش فاعْتَدلَتْ قداحٌ كاعناقِ الظباءِ الفَوارِقِ

فتشبيه السهام بالاعناق ليس مقبولا لفقدان المقاربة بينهما، وايضا ان المطلوب في السهام الدقة والاستواء، فتشبيهها بمايعرف بهذين الوصفين أنسب والى الصواب اقرب .

ومثله قول بعضهم :

مَلا حاجبيك الشيبُ حتّى كأنّه ظباءٌ جَرَتْ منها سنيحٌ وبارحُ

شبه الشاعر شعرات البيض فى حاجبيه بظباء سوانح وبوارح، ولا يخفى ما فيه من البعد وعدم القرابة[١٦٠].

ومن هذا الباب ايضا قول ابى تمام :

لا تَسقِنى ماءَ المَلامِ فانّنى صَبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائى

فجعل للملام ماء وهو بعيد، اذ الماء مستلذ والملام مستكره، فيكون بينهما من هذه الناحية منافرة ومخالفة . ولهذا روى ان بعض اهل المجانة أرسل الى ابى تمام قارورة وقال : «ابعث فى هذه شيئا من ماء الملام»[١٦١].

١٥٩ـ فن التشبيه ٢/٦٧ .

١٦٠ـ الصناعتين، ٢٥٧ـ٢٥٨، والمثل السائر، ١/٤١٩ .

١٦١ـ المثل السائر، ١/٤١٨ .

وقال ابو نواس يصف الاسد :

كـأنّما عينُه إذا نَظَرتْ ... بارزَةُ الجفنِ ، عينُ مخنوقِ

فالشاعر أخطأ فى اختيار المشبه به لعين الاسد، اذ المعروف ان عين الاسد غائرة لا بارزة، كما قال ابن عبد ربه :

ليثٌ تطيرُ لـه القلوبُ مَخافةً ... مِنْ بين همهَمةٍ لـه و زئيرِ
و كأنّه يُومى اليك بطرفِه ... عَنْ جمرتين بجلمَدٍ منقورِ

ومثله قول النابغة الجعدى :

كـأنّ حِجاجَ مقلتِها قليبٌ ... مِنَ الشّيقيْنِ ، حلّق مُستقاها[١٦٢]

فالشاعر شبه حجاج مقلة ناقتة بالقليب الذى غار ماؤه فأخطأ ، لان الحجاج هو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب فلايغور .

ويمكن ان يفرق بين خطأ ابى نواس والنابغة : بان الشاعر فى الاول لم ير المشبه او راه رؤية عابرة اوسمع بوصفه، ولكنه فى الثانى لم يدقق الملاحظة فى احواله واجزائه مع انه رآه عيانا غير مرّة[١٦٤].

وقال الكميت :

كانّ الغُطامِط مِنْ غليِها ... أراجيزُ أسْلَمٍ تهجو غِفارا[١٦٥]

١٦٢ــ سر الفصاحة، ٢٥٤ .

١٦٣ــ القليب : البئر، وقد يؤنث . الشيقين : موضع . حلق : غار . مستقاها : ماؤه :

١٦٤ــ عيار الشعر، ٩٠ــ٩١، والصناعتين، ٢٥٨، وفن التشبيه ، ٣/٢٢٥ــ٢٢٦ .

١٦٥ــ الغطامط بضم الغين : صوت غليان موج البحر، والمراد هاهنا: غليان القدر .

فأخطأالكميت في تشبيهه، لانه اختار مشبّها به لم يقع فيالخارج ولم يسمع به احد، فان قبيلة اسلم ما هجت يوما غفارا .

ومما لم يكنالتشبيه مصيبا ولم يقع موقعه قولالمرّار :

وخالٍ على خدّيك يبدو كأنّه
سَنا البدرِ في دعجاءَ بادٍ دجونُها[١٦٦]

لانالخدود بيض والغالبالمشهور فيالخال انيكوناسود، فتشبيه الخدود بالليل، والخالِ بضوءالبدر تشبيه ناقض للعادة .

وقولالحكم ـ لعله عبدالرحمن بن الحكم ـ :

كانت بنو غالبٍ لأمّتها كالغيثِ في كلّ ساعةٍ يَكِف

ومثله قول أيمن :

فانا قد وجدنا امّ بشر كامّ الأسَد مِذْكاراً و لُودا

فلا تعرف امالأسد بانها مذكار و ولود، فوَصْفُها بهذهالصفة لم يقع موقعه[١٦٧].

ومنالعيوب التي ترجع الى عمليةالخيال اوالاحساس والشعور قول المتنبي في مدح سيفالدولة ونكايته بالرّوم :

نثرتَهم فوق «الأُحَيْدِبِ» كلّه كما نُثِرت فوق العروسِ الدّراهِمُ

يريد ان مزّق أعداءه كلّ ممزّق وبدد شملهم وفرق جثثهم واشلاءهم على هذا الجبل، كما يفرّق الدراهم والدنانير على العروس .

فالتشبيه من ناحيةاللفظ والمعنى مقبول، الا انه من حيثالجوّ العاطفي وعمليةالخيال معيب، اذ الشطر الاول كماقالالاستاذ علي الجندي:

١٦٦ـ دعجاء : سوداء، صفة لمحذوف تقديره ليلة. ودجونهاسوادها.

١٦٧ـ سرالفصاحة، ٢٤٥ .

«يهيم الانسان في جوّ قابض كئيب عابس، وهو جوّ الموت والجراح والدماء والأشلاء والأنين والتوجع.

والثاني ينقله الى جوّ ضاحك فرح بهيج، اعني جوّ العروس المجلوة على المنصة في أبهى زينتها بين اترابها الناضرات يرقصن، ويغنّين وينثرن فوقها الدراهم»[١٦٨].

فلم يجر الشطران في هذه العملية على وتيرة واحدة، ولم يظهر الطرفان عند الاحساس والشعور على مسرح مشابه.

وقال ابن المعتز في وصف هلال الفطر عقب رمضان:

انظُرْ اليه كزورقٍ مِنْ فضّةٍ   قد اثْقَلَتْهُ حمولةٌ مِنْ عنبرِ

فهذا التشبيه من الناحية اللفظية والمعنوية مقبول ايضا، الا انه من حيث عدم ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر في نقل تجربته معيب. لانه لا ينقل الينا شعوره الصادق بجمال هلال الفطر و روعته في هذا التشبيه، وكل ما جاء به انه بحث عن نظير حسي لما يراه دون ان يتصل هذا النظير بشعور محدّد او فكرة.

وقد يكون في هذا التشبيه دلالة نفسية على رغبته في الهرب من عالم الواقع، او دلالة على بيئة الترف التي الفها ابن المعتز، ولكن هذه الدلالة النفسية لاشعورية، ولاصلة لها بالمنظر الطبيعي الذي يقصد ابن المعتز الى تصويره[١٦٩].

١٦٨ــ التشبيه ٣/١٧٣.

١٦٩ــ النقد الادبي الحديث، ٤٤٤.

الفصل الثانى المجاز

معنى الحقيقة والمجاز

لما كان المجاز يذكر فى مقابل الحقيقة، وكان يتفرع عليها ولا يتصور بدونها، جرت العادة بالبحث عن الحقيقة وتفسيرها كالمجاز، وان كان المقصود الاصلى هو الاخير .

الحقيقة لغة :

جاء فى اللسان : والحقيقة : ما يصير اليه حقُّ الامر و وجوبه . وبلغ حقيقة الامر، اى يقين شأنه .

وفى الحديث : لا يبلغ المؤمن ُ حقيقة َ الإيمان حتى لا يعيب َ مسلما بعيبٍ هو فيه . يعنى خالص الايمان ومحضه وكنهه .

وحقيقة الرّجل : ما يلزمه حفظـه ومنعـه[170].

والحقيقة، امّا فعيل بمعنى مفعول من حققت ُ الشيء َ أحقّه اذا اثبتّه، واما فعيل بمعنى فاعل من حقّ الشيء ُ يَحق إذا وجب .

و «التاء» فيها عند السكاكى للتأنيث مقدّرة ً بمعنى الفاعل او بمعنى المفعول، لاعتباره الصفة َ غير مُجْراة على الموصوف، اعنى الكلمة قبل التسمية[171]. ولكن التفتازانى يرى ان «التاء» فيها للنقل من الوصفية الى الاسمية[172].

١٧٠ــ اللسان، مادة حق .

١٧١ــ مفتاح العلوم، ١٧١ .

١٧٢ــ المطول، ٢٧٩ .

ومعنى كونها للنقل، ان «التاء» في الاصل تدل على معنى فرعي و هو التأنيث، فاذا روعي نقل الوصف عن أصله الى ما كثر استعماله فيه و هو الاسمية، اعتبرت التاء فيه واتى بها اشعارا بفرعية الاسمية فيه كما كانت فيه حال الوصفية اشعارا بالتأنيث. فالتاء الموجودة بعد النقل غير الموجودة قبله[١٧٣].

وسواء قدرت التاء للتأنيث او للنقل يقال بالمعنى الاسمي : لفظ حقيقة كما يقال كلمة حقيقة.

وقال النويري : والحقيقة، في اللغة فعيلة بمعنى مفعولة، من حقّ الامر يحقّه اى اثبته، او من حققته اذا كنت منه على يقين[١٧٤].

الحقيقة اصطلاحا :

الحقيقة اذا اطلق على القول يراد بها في الاصطلاح : ما جرى مجراه الاصلي وسلك مسلكه الطبيعي من حيث المعنى والعلاقة بين الاجزاء.

قال ابن جني : الحقيقة، ما أُقِرّ في الاستعمال على اصل وضعه في اللغة[١٧٥].

وقال عبدالقاهر في تحديد الحقيقة في المفرد : كلّ كلمة اريد بها ما وقعت له في وضع واضع ـ وان شئت قلت : في مواضعة ـ وقوعا لا يستند فيه الى غيره.

فالاسد اذا استعمل مرادا به الحيوان المفترس الذي وقع له في وضع

١٧٣ـ راجع المواهب والدسوقي ٤/٤.
١٧٤ـ نهاية الارب، ٨/٣٧.
١٧٥ـ الخصائص ٢/٤٤٢.

واضع اللغة، فقد ادى ذلك من غير ان يحتاج الى اعتبار اصل للحصول على المعنى المراد[١٧٦].

وقال ابن الحاجب : الحقيقة، اللفظ المستعمل في وضع اول[١٧٧].

وقال السكاكي : فالحقيقة، هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تاويل في الوضع، كاستعمال الاسد في الهيكل المخصوص، فلفظ الاسد موضوع له بالتحقيق ولا تاويل فيه[١٧٨].

وقال ابن الاثير: فاما الحقيقة، فهي اللفظ الدال على موضوعه الاصلي[١٧٩].

وقال النويري : فحدها في المفرد، ان كل كلمة اريد بها ماوضعت له فهي حقيقة، وفي الجملة، ان كل كلمة كان الحكم الذي دلت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة[١٨٠].

وقال صاحب الطراز : قد اكثر الحذّاق من علماء البيان والاصول في تحديد الحقيقة وبيان مفهومها وأتوا بأمور غير مرضية، وأجمعها ما ذكره الحسين البصري : ما افاد معنى مصطلحا عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب[١٨١].

وقال صاحب التلخيص : والحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعت له

١٧٦ــ اسرار البلاغة، ٣٩٦ــ٣٩٧ ذكر عبدالقاهر ان كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة اذا كان الموصوف به المفرد غير حده اذا كان موصوفا به الجملة . وانا نحدّهما في المفرد .

١٧٧ــ مختصر المنتهى مع شرحه ٤٣/١ .

١٧٨ــ مفتاح العلوم، ١٦٩ .

١٧٩ــ المثل السائر، ٥٨/١ .

١٨٠ــ نهاية الارب، ٣٨/٨ .

١٨١ــ الطراز، ٤٧/١ .

في اصطلاح به التخاطب[١٨٢].

فهذه الأقوال على اختلافها في الدقة والملاحظة تقصد هدفا واحدا وتتلاقى عنده، وهو أن الحقيقة اللفظ الجاري على مجراه الاصلي، والمستقرُ في موطنه المعيّن له .

المجاز لغة :

جاء في اللسان : جُزْتُ الطريق وجاز الموضع جوزاً و جَوازاً و مَجازاً، وجازية : سارفيه وسلكه .

والمجاز والمجازة : الموضع .

وقولهم : جعل فلان ذلك الامر مجازا الى حاجته، اى طريقا و مسلكا[١٨٣].

فالمجاز في اللغة اما مصدرُ جُزْت المكان اذا تعديته، كما يقال: قمت مقاما، وقلت مقالا[١٨٤]. وامّا اسم للمكان الذى يُجاز فيه كالمَعاج والمَزار واشباههما[١٨٥].

المجاز اصطلاحا :

لقد عرف العلماء والأدباء منذ قديم المجاز، وتنبهوا لأهميته و دوره في التعبير وإلباس المعنى والاحساس الوضوحَ والنصاعة ، فحاموا حوله وسعوا في تحديده وبيان المراد منه في الاصطلاح . لعل ارسطو فيما نعلم

١٨٢ـ المطول، ٢٨٥ .

١٨٣ـ اللسان، مادة جاز .

١٨٤ـ العمدة، ١/٢٦٦ .

١٨٥ـ المثل السائر ١/٥٨ .

اول من أتى بتحديدالمجاز فانه قال : «والمجاز نقل اسم يدل على شيء الى شيء آخر»[١٨٦].

وجاء في الأدب العربي العالمان الجليلان : ابوعبيدة مَعْمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) وتلميذه ابومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ـ٢٧٦هـ) واستعملا المجاز في معنى عام اعني طريق القول واسلوبه[١٨٧]. فقال الدينوري:

«و للعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه . ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والاخفاء والاظهار، والتعريض والافصاح، والكناية والايضاح، ومخاطبة الواحدمخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصدُ بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، و ...»[١٨٨].

واما الشيخ عبدالقاهر (ـ ٤٧١ هـ) فهو يحدّدالمجاز هكذا : كل كلمة اريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول فهو مجاز . وان شئت قلت : كل كلمة جُزْتَ بها ماوقعت له في وضع الواضع الى ما لم تُوضَع له، من غير ان تستأنف فيها وضعا، لملاحظة بين ماتجوز بها اليه وبين اصلها الذي وُضِعَت له في وضع واضعها، فهي مجاز[١٨٩].

وقال ابن رشيق (ـ ٤٥٦ هـ) : وماعدا الحقائق من جميع الالفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز، لاحتماله وجوه التأويل . فصار التشبيه

١٨٦ــ فن الشعر، ٥٨ .

١٨٧ــ راجع مجاز القرآن، ٨، ١١، ١٢ .

١٨٨ــ تاويل مشكل القرآن، ١٥، ١٦ .

١٨٩ــ اسرار البلاغة، ٣٩٨ .

والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، الا ّ انهم خصّوا بالمجاز بابا بعينه، و ذلك ان يسمى الشيء باسم ما قاربه اوكان منه بسبب .

قال جرير :

إذا سقط السماءُ بأرضِ قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غضابا

فأراد من السماء المطر لتقاربهما، ومن الضمير الراجع الى السماء بمعنى المطر، النبات الذى يكون عنه[١٩٠].

وقال السكاكى: (ت ٦٢٦ هـ) واما المجاز، فهو الكلمة المستعملة فى غير ما هى موضوعة له بالتحقيق، استعمالا فى الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن ارادة معناها فى ذلك النوع[١٩١].

وقال ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) : والمجاز، المستعمل فى غير وضع اول على وجه يصح[١٩٢].

وقال ابن الاثير (ت ٦٣٧ هـ) : و امّا المجاز فهو ما اريد به غير المعنى الموضوع له فى اصل اللغة ... كقولنا : زيد اسد، فانزيدا انسان، والاسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية[١٩٣].

والمجاز عند النويرى (ت ٧٣٦ هـ) كلّ كلمة اريد بها غير ما وضعت له لمناسبة بينهما، او كلّ جملة اخرجتَ الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل بضرب من التاويل[١٩٤].

١٩٠ــ العمدة ١/٢٦٦ .

١٩١ــ المفتاح، ١٧٠ .

١٩٢ــ مختصر المنتهى مع شرحه ١/٤٣ .

١٩٣ــ المثل السائر، ١/٥٨ .

١٩٤ــ نهاية الأرب، ٨/٣٨ .

وقال يحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٩ هـ) : احسن ما قيل فيه، «ما افاد معنى غير مصطلح عليه فى الوضع الذى وقع فيه التخاطب، لعلاقة بين الاول والثانى»[١٩٥].

وجاء فى الايضاح فى تحديد المعنى الاصطلاحى للمجاز : اما المفرد فهو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له، فى اصطلاح به التخاطب، على وجه يصح، مع قرينة عدم ارادته .

واما المجاز المركّب، فهو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الاصلى تشبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه[١٩٦].

فهذه الاقوال وان كانت تتفق فى ان اللفظ الخارج عن موطنه المعين، والجارى فى غير مجراه الاصلى يسمى مجازا، تختلف قربا وبعدا من الحقيقه، وقصدا وارادة للمصاديق وشمولا واحتواء لها . فالمجاز عند ابى عبيدة وابن قتيبة كما رأيت لا يضاد الحقيقة ولا يقابلها، لان طريق القول واسلوبه كما يتحقق مع خروج اللفظ عن المجرى الاصلى ، يتحقق مع استقراره فى الموطن المعين له . وايضا ان المجاز عندهما اشمل معنىً ، و اوسع مصاديق .

والمجاز عند ابن رشيق وابن الاثير ايضا يشمل التشبيه الذى هو من مصاديق الحقيقة عند الآخرين، لكن الظاهر من كلام الاول ان التشبيه مطلقا داخل تحت المجاز، لأنه يعلل رأيه هذا بأن المتشابهين فى اكثر الاشياء انما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة[١٩٧].

واما ابن الاثير فهو لا يجعل من المجاز غير التشبيه المضمر الاداة كما

١٩٥ـ الطراز، ١/٦٤ .

١٩٦ـ الايضاح مع شروح التلخيص، ٤/٢٢ـ٢٤، ١٤١ـ١٤٢ .

١٩٧ـ العمدة، ١/٢٦٨ .

رأيت من مثاله، ولانه يقول : «ان المجاز ينقسم الى قسمين : توسع في الكلام ، وتشبيه، والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه والمشبه به». فيعني من التشبيه التام، المضمر الاداة[198].

لعل ما جاء في «الايضاح» أضيق دائرة، واكثر دقة، وامسّ الى فلسفة التحديدات جمعا ومنعا .

ثم، انك اذا تأملت هذه الاقوال ظهر لك أشياء :

منها ــ ضرورة المناسبة بين المعنى الاصلي والفرعي لوجهين: الاول ــ تيسير الانتقال من المعنى الحقيقي الى المجازي بسبب تلك العلاقة الملحوظة بينهما. الثاني ــ ان الكلمة لا يصح استعمالها في جميع غير ما وضعت له، لأن تشريك معنى فرعي للمعنى الاصلي في اللفظ دون سائر المعاني الفرعية يحتاج الى دليل ومرجح، والاّ فلا حكمة في التخصيص .

ومنها ــ ان كلّ مجاز له اصل و حقيقة[199] ، لان اللفظ انما يطلق عليه المجاز بالخروج والنقل عن المعنى الاصلي .

غير ان هذا الخروج لما كان نتيجة التطور الطبيعي لاستعمال اللغات، لا نحتاج اليوم في فهم المراد من هذه اللغات الى تصور معناها الاصلي .
قال الاستاذ العقاد : «فلا يلبث التشبيه المجازي ان يؤدي معناه المقصود بغير وساطة الشكل المستعار، ولا يشتغل الذهن بالصورة المحسوسة لا نتقاله منها على الإثر الى الوصف الذي يقارنها»[200].

ومنها ــ ان الحقيقة والمجاز فرع استعمال اللفظ ، فلا توصف كلمة أو كلام بالحقيقة او المجاز قبل استعمالهما .

١٩٨ــ المثل السائر، ١/٣٥٦ــ٣٥٧ .
١٩٩ــ المثل السائر، ١/٦٢ .
٢٠٠ــ اللغة الشاعرة، ٣٨ــ٣٩ .

المجاز آيةالمواهب :

لما كان المجاز عبارة عن خروج اللفظ عن موطنه الاصلى، وعدم جريه على ما عُيِّن له، كان لا يُعرَف فيه القرار والاصطلاح، ولا يمكن الاهتداءُ اليه والإجادة فيه بالتعلم والدرس . لان المجاز هو ثورة اللفظ على تلك الاجواء الضيقة التى خلقتها له القرارات والاصطلاحات، فكيف ينقاد اليها مرة اخرى . فهو يعتمد على الذوق والطبع، والبراعةُ فيه لاتعرف غيرهما، لانها ـ كما قال أرسطو ـ : ليست مما تتلقاه عن الغير بل هى آية المواهب الطبيعية، لان الإجادة فى المجازات معناها الاجادة فى ادراك الأشباه[٢٠١].

فالمجاز عصيان اللفظ على الوضع والاصطلاح، وتحطيم قيود القرارات والتحديدات، و وليد الأذواق والقرائح، فيتجلّى على أيدى مهرة البيان وأهل الخطابة والشعر، الذين يتوسعون فى الأساليب المعنوية، فينقلون الحقيقة الى المجاز . ولم يكن ذلك من واضع اللغة فى اصل الوضع، و لهذا اختص كلّ منهم بشىء اخترعه فى التوسعات المجازية .

هذا امرؤالقيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله، فمن ذلك انه اول من عبّر عن الفرس بقوله «قيد الاوابد» وقال :

وقد أغتدى والطيرُ فى وكُناتها بمُنجـردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

ولم يُسمع ذلك لاحد من قبله .

و روى عن النبى (ص) انه قال يوم حُنين : «الآن حَمِىَ الوطيسُ»، أراد بذلك شدة الحرب، فان الوطيس فى أصل الوضع هو التنّور ، فنقل

٢٠١ـ فن الشعر، ٦٤ .

الى الحرب مجازا، ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبى (ص)[٢٠٢].

اللفظ بين الحقيقة والمجاز :

اعلم انهم اختلفوا فى وقوع الحقيقة والمجاز، فذهب بعضهم الى ان اللغة كلها حقيقة وأنكروا وجود المجاز فى القرآن وغيره[٢٠٣]. نقل عن الاستاذ ابى اسحاق الاسفرائنى القول بنفى المجاز فى اللغة .

وحجته ان المجاز على ما يصفه من يقول به يستدعى منقولا عنه متقدما ومنقولا اليه متأخرا، وليس فى لغة العرب تقديم وتأخير بل كل زمان قُدّر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة فقد نطقت بالمجاز، لان الاسماء لاتدل على مدلولاتها لذاتها، اذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى فجعل هذا حقيقة و ذلك مجازا ضرب من التحكم وترجيح بلا مرجّح، فإن الاسد مثلا كما وضع للسبع وضع للرجل الشجاع[٢٠٤].

ويقال ايضا فى الاحتجاج على انكار المجاز : ان افادة اللفظ للمعنى المجازى اما بواسطة القرينة المخصوصة أو بدونها. فان أفاد المعنى بالقرينة كان اللفظ فيه حقيقة، لان اللفظ لا يفيد خلافه مع القرينة، فلا يصح عده مجازا، وبدون القرينة لا يفيد . فحصل ان اللفظ لا يكون مجازا لا مع القرينة ولا مع عدمها[٢٠٥].

ذهب بعض آخر الى ان اللغة كلها مجاز وأن الحقيقة غير محققة فيها[٢٠٦].

٢٠٢- المثل السائر ١/٦١ .

٢٠٣- الطراز ١/٤٤ .

٢٠٤- المزهر، ١/٢١٤ .

٢٠٥- الطراز ١/٧٣-٧٤ .

٢٠٦- المصدر السابق ١/٤٤ .

يرى ابن جنى أن اكثر اللغات مجاز يظهر ذلك بالتامل، فعامة الأفعال مثل قام زيد وقعد عمرو، وانطلق بشر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء مجاز عنده. ويستدل على رأيه بأن الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فاذا قيل: قام زيد، فمعناه: كان منه القيام، اى هذا الجنس من الفعل. ومعلوم انه لم يمكن منه جميع القيام، لانه من المحال ان يجتمع لانسان واحد جميع أنواع القيام الداخلة تحت الوهم. فاذا كان كذلك علمت ان «قام زيد» مجاز لاحقيقة، وانما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير.

ويدل على ان الفعل يفيد معنى الجنس ويتناول جميع أجزائه، اننا نقول: قمت قومةً، وقومتين، ومائة قومةٍ، وقياماً حسناً وقياماً قبيحاً، وقال مجنون ليلى:

فقد يجمعُ اللهُ الشتيتَيْنِ بعدَ ما يظنّانِ كلَّ الظنِّ أنْ لاتلاقِيا

فإعمالنا للفعل فى هذه الاجزاء، فى بعضه أو كله يدل على ان الفعل صالح بحسب الوضع لان يتناول جميع اجزائه.

وكذلك قولك: «ضربت زيدا» فهو مجاز من جهة الفعل، ومن جهة المفعول ايضا. اما من جهة الفعل، فلأنك انما فعلت بعض الضرب لاجميعه. واما من جهة المفعول فلأنك انما ضربت بعض جسمه، مثل يده، او اصبعه، او ناحية اخرى من جسده. ولهذا اذا احتاط الانسان واستظهر جاء ببدل البعض، فقال: ضربت زيدا وجهه او رأسه[٢٠٧].

والتحقيق أن انكار الحقيقة فى اللغة افراط، كما ان انكار المجاز

٢٠٧ـ راجع الخصائص ١/٤٤٧ـ٤٥٠.
٢٠٨ـ الطراز ١/٤٤.

تفريط[٢٠٨]، واللغة مشتملة على الحقيقة والمجاز كليهما[٢٠٩].

توارد الحقيقة والمجاز على لفظ واحد :

الالفاظ والكلمات خاضعة لنواميس التطور والارتقاء ، فهي تحيى و تعيش، وتتطور وتزدهر ثم تموت . فعلى هذا انها لاتجمُد أبدا على حالة واحدة بل تتحول وتتغير، فما كان حقيقة في معنىً اليومَ يمكن أن يُصبح استعماله غداً في ذلك المعنى مجازاً وبالعكس، ولهذا يقال : «فالحقيقة متى قلّ استعمالها صارت مجازا عرفا، والمجاز متى كثر استعماله صار حقيقة عرفا»[٢١٠]. وايضا ان الشيخ يرمز الى هذا التطور في تعبيره عن المجاز بقوله : «كلّ كلمة جُزْتَ بها ما وضعت له في وضع الواضع الى ما لم توضع له، من غير ان تستأنف فيها وضعا ...»[٢١١].

فهو ــ كما ترى ــ يشترط لاعتبار المجاز في اللفظ ان لايستأنف فيه وضع آخر اي لا يتفق الناس على استعماله في معنى جديد لانه اذا استؤنف فيه وضع آخر أصبح استعمال اللفظ في المعنى الجديد حقيقة لامجازا .

فعبدالقاهر ــ وكذا البلاغيون الآخرون ــ لم يتجاهلوا تطور الدلالة على مرّ العصور، ولم يحطّوا من شأنه، ولم يفرضوا ان اللفظ يتجمد إزاء معنى واحد ولايتعداه . فهم راعوا ذلك التطور والتغيير، فاعتبروه مرة حقيقة واخرى مجازا[٢١٢].

٢٠٩ــ المزهر ١/٢١٣ .

٢١٠ــ المصدر نفسه ١/٢١٦ .

٢١١ــ اسرار البلاغة، ٣٩٨ .

٢١٢ــ راجع الصور البيانية، ٢١٣ــ٢١٥ .

فالحقيقة والمجاز يمكن تواردهما على لفظ واحد، أمّا باعتبار المعنيين فهو ظاهر ولايتعلق به غرضنا ههنا، وأمّا باعتبار المعنى الواحد فهو يرجع الى وضعين، كاللفظ الموضوع في اللغة لمعنى وفي الشرع او العرف لمعنى آخر، فيكون استعماله في احد المعنيين بالنسبة الى ذلك الوضع حقيقة، وبالنسبة الى الوضع الآخر مجازا[٢١٣].

الفرق بين الحقيقة والمجاز :

تُعرَف الحقيقة من المجاز بطرق مختلفة :

منها ـ تبادر الذهن الى فهم المعنى الحقيقي لولا القرينة .

ومنها ـ ان الحقيقة تصرّف بتثنية وجمع واشتقاق بخلاف المجاز، و ذلك مثل كلمة «امر» فاذا استعملت في القول يقال فيها : هذان أمْرانِ ، وهذه أوامِرُ الله وأوامِرُ رسوله، وأمَرَ يأمُر أمراً فهو آمِر" .

واذا استعملت في الحال والشأن والافعال، صارت عارية من هذه الاحكام .

ومنها ـ عدم صحة النفي، فلايصح ان يقال للحيوان المفترس : هذا ليس بأسد . بخلاف المعنى المجازي، فانه يصح نفي الاسد عن الرجل الشجاع .

ومنها ـ تقوية الكلام بالتأكيد، فانها من علامات الحقيقة دون المجاز لان أهل اللغة لايقوّون المجاز بالتاكيد، فلايقولون: أرادَ الجدارُ إرادةً ولا قالت الشمسُ قولاً .

ومنها ـ الاطّراد فيما يدل عليه الكلمة، لان الحقيقة اذا وضعت

٢١٣ـ المزهر ٢١٦/١ .

لافادة شيء وجب اطرادها، والا كان ذلك ناقضا للغة . فامتناع الاطراد فيها يدل عليه الكلمة من دلائل المجاز، و ذلك كتسمية الجَدّ أباً وابن الإبن ابناً، فانها لا تطرد[٢١٤].

اقسام المجاز :

ينقسم المجاز في المرحلة الاولى الى قسمين، لان المعتبر في معرفة خروج اللفظ عن مجراه الاصلي، وعدم استقراره في موطنه الطبيعي إما الوضع والاصطلاح فيسمى لغويا ، او العقل فيسمى عقليا .

١ـ المجاز اللغوي : هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقي، وان شئت قلت : خروج اللفظ عن مجراه الاصلي من حيث معناه الذي عيّن له في اللغة والاصطلاح لغرض . و ذلك كقول النبي (ص) : «الآن حَمِيَ الوطيسُ» اراد بذلك شدة الحرب، فاستعمال الوطيس في الحرب مجاز، لانه لم يسمع من اهل اللغة استعمال الكلمة في هذا المعنى والقرارُ عليه . والنبي (ص) اول من عبّر عن الحرب بالوطيس .

فالمجاز اللغوي إما مفردٌ او مركبٌ ، وكل منهما إمّا مجازٌ استعاريٌّ أومجازٌ مُرْسَلٌ . فاقسام المجاز اللغوي اربعة :

١ـ مفرد استعاري .

٢ـ مركب استعاري .

٣ـ مفرد مرسل .

٤ـ مركب مرسل .

٢١٤ـ راجع جمع الجوامع ١/١٨٤م والمزهر ١/٢١٢ .

والمعتبر فى تقسيم المجاز اللغوى الى الاستعارى والمرسل كيفية العلاقة بين المعنى الاصلى والمجازى، فاذا كانت تلك العلاقة عبارة عن المشابهة فى شىء او صفة سُمّى المجاز استعاريا، وسيأتى الكلام عليه فى فصل يخصّه لأهميته .

واما اذا كانت العلاقة غير المشابهة فان المجاز حينئذ يسمى مرسلا، لاسترساله وعدم تقيده بعلاقة خاصة[٢١٥].

فالعلاقة فى المجاز المرسل مفرداً او مركباً كثيرة، نأتى فيما يلى بما هو معروف منها :

١ـ الكلية والجزئية، كقولك فى تسمية الكل بالجزء : نشَرت الحكّامُ الجائِرون عيونَهم فى الشوارع والأحياء والأسواق، محافظةً على عروشهم المتزلزلة بالكبتِ والإرهاق . فسمى الجواسيس بالعيون تسمية للكل باسم جزئه .

وشرطها ان يكون لذلك الجزء مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل، فلهذا لايصح إطلاق اليد اوالأصبع على الجاسوس[٢١٦].

واما تسمية الجزء بالكل فكقوله تعالى : «يجعلُون أصابعَهم فى آذانِهم مِنَ الصّواعق حذرَ الموتِ »[٢١٧] فالمراد من الأصابع الأنامل التى هى أجزاء من الأصابع .

ومنها قولهم : له الفُ رأسٍ من الغنمِ .

٢ـ السببية والمسببيّة ـ اما تسمية السبب بالمسبب، فكقوله تعالى:

٢١٥ـ حاشية الدسوقى ٢٩/٤ .

٢١٦ـ راجع المختصر، ٣٥/٣ـ٣٦ .

٢١٧ـ البقرة، ١٩ .

«يُنَزِّل لكم من السماء رِزقا»[٢١٨] ای المطر الذی هو سبب للرزق .

وقوله ایضا: «إنّما يأكلُون فی بطونِهم ناراً»[٢١٩] فعُبِّر عن أكل الحرام بالنار التی تُنشأ منه .

وقوله : «فاذا قرأتَ القرآنَ فاستَعِذْ باللهِ »[٢٢٠] ای اردت القراءة.

ومنها قولُهم : امطرت السماءُ نباتاً .

وامّا تسمية المُسبّب بالسبب، فكقوله تعالى : «فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمِثْلِ ما اعتدى عليكم»[٢٢١] سمی جزاء الاعتداء اعتــداء ، لانه مسبب عن الاعتداء .

وقوله ايضا : «وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها»[٢٢٢] فعبر عن الاقتصاص بالسيئة لتسببه عنها .

وقال الشاعر :

اكلتُ دمــاً إنْ لــم أرُعْكِ بضَـرّةٍ

بعيدةِ مهــوى القُرْطِ طيّبةِ النّشرِ

اراد من الدم الدية التی هی مسببة عن الدم[٢٢٣].

٣ــ الحالية والمحلّية ــ اما تسمية الحال باسم محله، فكقوله تعالى: «فليدع نادية»[٢٢٤] . ای اهــل ناديــة «فالنادی» اسم لمكان الاجتماع

٢١٨ــ المؤمن، ١٣ .

٢١٩ــ النساء، ١٠ .

٢٢٠ــ النحل، ٩٨ .

٢٢١ــ البقرة، ١٩٤ .

٢٢٢ــ الشوری، ٤٠ .

٢٢٣ــ راجع الايضاح مع شروح التلخيص ٤/٣٨ــ٣٩ .

٢٢٤ــ العلق، ١٧ .

ومجلس القوم وقد اطلق على اهله الذين يحلّون فيه[٢٢٥].

ومنها قولك : سرَق اللّصُ المنزلَ، تريد انه سرق ما في المنزل، و شربت كوباً مِن الشاى، اى شربت ما فى كوب .

واما تسمية المحل باسم حاله، فكقوله عزشأنه: «واما الذين ابيضّتْ وجوهُهم ففى رحمةِ الله»[٢٢٦] اى فى الجنة التى هى محل الرحمة .

٤ــ اعتبار ما كان ــ كقوله عزّوجل : «وآتوا اليتامى اموالهم»[٢٢٧] سُمّى البالغون باليتامى، تسمية للشيء بالاسم الذى كان هو عليه فى الزمان الماضى .

وكما يقال : مِنَ الناس من يأكلُ القمح ، و منهم من يأكل الذّرةَ والشعيرَ ، اى الخبز الذى كان فى الأصل قمحا او شعيرا او غيرهما .

٥ــ اعتبار مايكون ــ كقوله تعالى : «إنّك إنْ تَذَرْهُم يُضلّوا عبادَكَ، ولاتَلِدوا الا فاجراً كفاراً»[٢٢٨]. سمى المولود بالفاجر تسمية للشيء بما يؤول اليه فى المستقبل مجازا، لان المولود لا يتصف حين الولادة بالفجور اوالكفر .

وقوله ايضا : «إنّى أرانى أعصِرُ خمراً»[٢٢٩] اى عنبا يؤول بعد العصر الى الخمر .

٥ــ الآليّة ــ كقوله تعالى : «وما أرسَلْنا مِنْ رسولٍ الاّ بلسانِ قومه»[٢٣٠]، اى بلغة قومه، فعبر عن اللغة باللسان الذى هو آلة لها .

٢٢٥ــ المواهب ٤/٤١ .
٢٢٦ــ آل عمران، ١٠٧ .
٢٢٧ــ النساء، ٢ .
٢٢٨ــ نوح، ٢٧ .
٢٢٩ــ يوسف، ٣٦ .
٢٣٠ــ ابراهيم، ٤ .

وتقول : هو كاتبٌ له قلمٌ بليغ، تريد من القلم كلامه، فسميت الكلام باسم آلته .

٦ـ المجاورة ـ قال عنترة :

فشككتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّمِ

اراد قلبه او صدره، فعبّر عنه بالثياب تسمية للشيء باسم مجاوره .

فهذه الأمثلة كلها من باب المجاز المرسل في المفرد، وامثال مثال المرسل في المركب فكقول جعفر بن علبة الحارثي :

هَوايَ معَ الرَّكْبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ

جنيبٌ و جُثْماني بمَكَّةَ مُوثَقُ

فهذا المركب موضوع للاخبار بمفارقة المحبوب، ولكن الغرض منه اظهار التحزن والتحسر اللازم لذلك الاخبار[231].

وقال حارث بن وعلة :

قومي همُ قتلوا ـ أمَيْمَ ـ أخي فاذا رَمَيْتُ يصيبُني سَهْمي

اراد التحزن والتفجع اللازم لهذا الاخبار، لأن اميمة عالمة بان القاتلين لأخيه قومه .

وكقوله تعالى حكاية عن زكريّا (ع) : «ربّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ مني»[232].

وقوله ايضا : «هل يَستوي الّذينَ يعلمونَ والذين لا يَعْلمون؟»[233]

٢٣١ـ المطول، ٣٠٩، وحاشية عبدالحكيم ٥٠٥ .

٢٣٢ـ مريم، ٤ .

٢٣٣ـ الزمر، ١٩ .

فالمراد فى الاول اظهار الضعف والتخشع، وفى الثانى تحريك حمية الجاهل[٢٣٤].

المجاز فى ادوات الاستفهام و صيغ الامر والنهى :

اعلم ان استعمال ادوات الاستفهام فى معانى مثل الاستبطاء والتعجب والنفى، وكذا صيغ الأمر والنهى فى غير معناهما كالتهديد والتعجيز والإهانة، يُعَدّ مجازا الا ّ انّ تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان انه من اىّ نوع من أنواعه مما لم يحُم احد حوله، كما قال التفتازانى[٢٣٥].

وعلّل السيد فى حواشى المطول ترك المسألة من جانب القوم، بصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المجوّزة له، ثم قام نفسه ببيان هذه العلاقة فى اكثر استعمالات ادوات الاستفهام فى غير معناها . ويرجع خلاصة ما ذكره الفاضل المحشى الى أن نوع المجاز مرسل، وأن العلاقة عبارة عن الاستلزام[٢٣٦].

ويرى عبدالحكيم السيالكوتى أن استعمال أدوات الاستفهام فى غير معناها ليس مجازا دائما، بل هو متردد بين المجاز والكناية ومستتبعات الكلام . فقال فى بيان «ما لِىَ لا أرى الهُدْهُدَ» :

عدم الرؤية قد يكون لحال فى جانب الرائى، وقد يكون لحال فى جانب المرئى، فقوله : «مالى لا ارى الهدهد ؟» ان كان استفهاما عن حال فى جانب الرائى يوجب عدم الرؤية، فالاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته اذ لا معنى للاستفهام عن حال نفسه، فهو مجاز عن التعجب .

٢٣٤- راجع المطول، ٣٥-٣٦ .
٢٣٥- راجع المطول، ٢٣٥ .
٢٣٦- راجع حاشية السيد على المطول، ٢٣٥ .

وان كان استفهاما عن حال فى جانب المرئى يــوجب عدم الرؤيــة كالساتر، فيجوز ان يكون الاستفهام على حقيقته .

فان قصد منه التعجب ويكون ارادة المعنى الحقيقى لمجرد التصويــر والانتقال كان كناية، وان قصد منه المعنى الحقيقى مع التعجب كان التعجب من مستتبعات الكلام .

ثم أضاف :وبما ذكرنا ظهر الجمع بين كون الاستفهام على حقيقته و كونه للتعجب[٢٣٧].

بقيت ههنا نكتة وهى بيان نوع المجاز، بمعنى انه هل مفرد او مركب؟

فالظاهر من كلامهم أنه يُعدّ من المجاز المفرد، ولكن لا أرى منعا فى حمله على المجاز المركب ايضا* ، كما رأيت فى قولــه تعالى : «هــل يستوى الّذين يعلَمُونَ والّذينَ لايَعْلَمُونَ» .

وفى ختام البحث عن المجاز المرسل لا بأس ان يُعْرَف أن السكاكى وابن الأثير لم يأتيا بعنوان «المرسل» لهذا القسم من المجاز، بــل جــاء السكاكى بموارده تحت عنوان المجاز المفيد والمجاز الخالى عن الفائدة[٢٣٨].

واما ابن الاثير فانه يَرُدُّ مواردَه الى قسم سمّاه بالمجاز فى التوسع[٢٣٩].

٢ـ المجاز العقلى :

المجاز العقلى هو اسناد الفعل الى غير ما هو لــه لعلاقة، وان شئت قلت : خروج اللفظ عن مجراه الأصلى من حيث الرابطة او النسبة التى وقعت

٢٣٧ـ حاشية عبدالحكيم، ٣٥٩ .

٢٣٨ـ المفتاح، ١٧٢ .

٢٣٩ـ المثل السائر ١/٣٥٦ .

* وان كان الاستفهام لطلب التصور دون التصديق .

بين الكلمات، و ذلك كأن يقال : جِدّ جِدُك .

اذا تأملت فى هذا الكلام عرفت انه لم يجر مجراه الحقيقى، لان الجِدّ لايصلح لان ينسب اليه فعل الجدّ . ولاشك ان هذه المعرفة لم تتاتّ من ناحية اللغة و وضعها، بل الحاكم هنا هو العقل، ولهذا يسمى بالمجاز العقلى.

وليس من واجبات هذا المجاز ان يكون مكانُ الحكم الأصلى معلوما بنفس العقل مثل المثال المتقدم، بل اذا استعان العقل فى معرفة الحكم بشيء آخر غير الوضع جاز ولم يخرجه عن كونه عقليا، كما اذا قلت: هزمَ الأميرُ الجندَ. فالعقل هنا يحكم باستعانة العادة انّ الامير لايهزم الجند بنفسه[٢٤٠].

لما كان المجاز العقلى راجعا الى الرابطة والنسبة بين الكلمات كان من الطبيعى ان لايتحقق الا فى المركبات .

وجدير بالذكر ان النسبة التى توصف بالمجاز اعم من ان تكون تامة او ناقصة كما فى المركبات الاضافية، واعم من ان تتحقق بين الفعل والمفعول والسبب والزمان والمكان والمصدر، او بين ما فى معنى الفعل معها .

فالنسبة تكون مجازا عقليا فى الموارد الآتية :

١ــ نسبة الفعل ومعناه الى المفعول حال كونهما مبنيين للفاعل، و ذلك كأن تقول : بَرِى القلمُ . والاصل برى الكاتبُ القلم، لكن تُسْنِدُ الفعل المبنى للفاعل الى المفعول اشارة الى ان القلم للينته كانه يساعد على عمل البرى .

ومثل ما يقال : «عيشةٌ رَضيَتْ» و «عيشةٌ راضيةٌ» .

فالرّاضى فى الاصل الشخص لاالعيشة .

قال الحطيئة :

٢٤٠ــ المفتاح، ١٨٦ .

دع المكارمَ لا ترحَل لبُغْيَتِها
واقْعُدْ فإنّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسي

اراد انت المطعوم والمكسوّ . واصل النسبة هكذا : فانك الناسُ طاعمك وكاسيك، فأسند الوصف الى المفعول على سبيل التهكم، او للإشارة الى ان المفعول يُبْرِز نفسه في معرض الفاعل .

٢ـ نسبة الفعل ومعناه الى الفاعل حال كونهما مبنيَيْن للمفعول ، نحو : صاحبُ العشيةِ رُضيَ . والمرضيّ في الاصل العيشة لاصاحبها، لكن اسند الفعل المجهول الى الفاعل قصدا للمبالغة في الرضاء ، لانه اذا كان الشخص مرضيا للعيشة كانت تستسلم له وتدور معه، فكأنما خلقت له وخلق لها، فيحصل التراضي من الجانبين .

وجاء في القرآن الكريم : «واذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ و بين الذين لا يؤمنون حجاباً مستوراً»[٢٤١].

والمستور في الاصل القرآن او الرسول لا الحجاب الساتر، لكن اسندت الصفة الى الفاعل وهو الحجاب، مبالغة في انه حجاب يستر أنْ يُبصَر فكيف يُبْصر المحتجبُ به، كما قال الزمخشري[٢٤٢].

٣ـ نسبة الفعل ومعناه الى السبب، نحو قوله تعالى : «يُذبّح ابنائَهم»[٢٤٣].

والمُذبّح في الحقيقة أعوان فرعون لا نفسه، لكن اسند الفعل اليه اشارة الى انه هو السبب لتلك الجريمة .

٢٤١ـ الاسراء، ٤٥ .
٢٤٢ـ الكشاف ٢/٢٦٣ .
٢٤٣ـ القصص، ٤ .

وكقوله ايضا : «فما رَبِحَتْ تجارتُهم»[٢٤٤] والرابح فى الاصل هو اصحاب التجارة، فاسند الفعل الى السبب مجازا تحقيرا لشأنه وتاكيدا على الخسران الناشىء منه .

وكقولك : هذا سيفٌ قاتِلٌ .

والقاتل هو الشخص، لكن اسندت الصفة الى السبب وهو السيف مبالغة فى شأنه .

وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها . هُنَّ مُخْرِجاتى مِنَ الشام»[٢٤٥].

٤ـ نسبة الفعل ومعناه الى المصدر، اى المفعول المطلق[٢٤٦]، نحو : عظمَتْ عظمتُه وصالَتْ صولتُه .

والفاعل فى الحقيقة صاحب العظمة والصولة، لكن اسند الفعل اليهما للمبالغة .

وكما يقال : شِعرٌ شاعرٌ .

٥ـ نسبة الفعل ومعناه الى الزمان، كقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لكَ الايّامُ ما كنتَ جاهلاً
و يأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ[٢٤٧]

اراد ان الحوادث التى تقع فى الأيام تبيّن للانسان ما يجهله، لكن

٢٤٤ـ البقرة، ٦ .

٢٤٥ـ اسرار البلاغة، ٤٣٣ .

٢٤٦ـ حاشية عبدالحكيم، ٢٣ .

٢٤٧ـ اخذت بعض هذه الامثلة من كتاب البلاغة الواضحة، ١١٩ .

اسند الفعل الى الزمان الذى توطّنت النفسُ على وقوعه، ليطمئن السامع على ان الخبر واقع .

جاء فى القرآن الكريم : «يوم يجعلُ الولدانَ شيبا»[٢٤٨].

وكما يقال : يومٌ عاصِفٌ .

فاليوم لا يكون عاصفا، وانما العاصف الريح التى تعصف فيه، فاسندت الصفة الى الزمان مجازا .

٦ـ نسبة الفعل ومعناه الى المكان، كقوله تعالى : «واخرجَتِ الارضُ أثْقالَها»[٢٤٩].

والاخراج فى الحقيقة ليس فعل الأرض، لكن نسب اليها تجسيما للتسريع فى العمل، واشارة الى درجة انقياد الأرض فى عملية هذا الإخراج، فكأن نفسها هو المُخْرِج للاثقال .

وكما يقال : ذلك نهرٌ جارٍ . وتلك حديقةٌ غَنّاءُ .

ففى الحقيقة ان الجارى ماءُ النّهر وان الغَنّاء طيور الحديقة اوذبابُها، لكن اسندت الصفة فى المثالين الى المكان مبالغة فى الجرى والغنّ .

٧ـ نسبة الخبر الى المبتدأ الخارجةُ عن موضعها، نحو: زيدٌ أسدٌ، وانما هى اقبالٌ وادبارٌ .

قالت الخنساء :

تَرْتَعُ ما رتَعَتْ ، حتّى اذا ذّكَرتْ
فإنّما هى إقْبالٌ و إدْبارُ

فالحكم بالاتحاد بين زيد و اسد، وكذا بين الناقة والاقبال والادبار

٢٤٨ـ المزمل، ١٧ .

٢٤٩ـ الزلزال، ٢ .

خارج عن موضعه فى العقل[٢٥٠].

قال الشيخ فى دلائل الاعجاز : ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء : «وترتع ... البيت» . وذلك انها لم تُرِدْ بالاقبال والادبار غيرَ معناهما فتكون قد تجوّزت فى نفس الكلمة، وانما تجوّزت فى أنْ جعلتها لكثرة ما تُقبِل وتُدْبِر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها، وانه لم يكن لها حالٌ غيرهما، كانها قد تجسّمت من الإقبال والإدبار[٢٥١].

فالظاهر من كلام الشيخ هنا ومن كلامه فى اسرار البلاغة فى تعريف المجاز العقلى حيث يقول : «ان كلّ جملة أخرجتَ الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأويل فهى مجاز»[٢٥٢] هو ان النسبة المتصفة بالحقيقة اوالمجاز تشمل نسبة الخبر الى المبتدأ ايضا . فحصرُها فى نسبة الفعل او معناه الى ملابساته، واخراجُ النسبة الواقعة بين المبتدأ والخبر من الاتصاف بالحقيقة اوالمجاز كما فعله الخطيب القزوينى، تعسف[٢٥٣].

تلك أمثلة كانت للمجاز العقلى فى النسبة التامة، و اما المجاز العقلى فى النسبة الناقصة فكقوله تعالى : «وانْ خِفتُم شقاقَ بينهِما»[٢٥٤] و «مكرُ الليلِ والنهارِ»[٢٥٥].

واصل الكلام هكذا : وان خفتم شقاق الزوجين فى الحالة الواقعة

٢٥٠ــ راجع عبدالحكيم، ١٢٣ .

٢٥١ــ دلائل الاعجاز، ٢٣٣ .

٢٥٢ــ اسرار البلاغة، ٤٣٠ .

٢٥٣ــ التلخيص مع شروحه ١/٢٢٤، الايضاح على هامش شروح التلخيص ١/٢٤٦ .

٢٥٤ــ النساء، ٣٦ .

٢٥٥ــ سبأ، ٣٣ .

بينهما، ومكر الناس فى الليل والنهار . فاضيف المصدر فى الاول للمكـان لان البين اسم مكان، وفى الثانى للزمان، فهـو من اضافة المصدر لفاعلـه المكانى فى الاول والزمانى فى الثانى[٢٥٦]. ولا يخفى ما فى هذه الاضافة من تفخيم شأن الشقاق والمكر .

قال الشيخ فى اسرار البلاغة : «ومما يجب أنْ يُعلَم فى هذا الباب ان الاضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل، فكل حكم يجب فى اضافة المصدر من حقيقة او مجاز فهو واجب فى اسناد الفعل»[٢٥٧].

اجتماع المجاز العقلى مع اللغوى :

لما كان الاعتداد فى المجاز العقلى بالنسبة و فـى اللغوى بالمعانـى الموضوعة لها الالفاظُ ، جاز اجتماعهما فى جملة لاختلاف موردهمـا . فاذا شبَّهْتَ معنى بمعنى او صفة بصفـة واستَعَرْتَ لاحدهما اسـم الآخر، ثم أثبتّ حكما لما لا يصلح له، كان فى كلّ واحـد من الاثبـات والمثبت مجاز . و ذلك كأن تقول لصاحبك : احيَتنى رؤيتُك .

تريد آنستنى وسرّتنى ونحوهـما، فقـد جعلتَ الانس والمسـرة الحاصلة بالرؤية حياةً اولا، ثم جعلتَ الرؤية فاعلة لتلك الحياة .

ومثلُه قولُ المتنبى :

ويُحيِى له المالَ الصَّوارمُ والقنا ويقتلُ ما يُحيِى التبسمُ والجَدا

فالشاعر جعل الزيادة والوفور فى المال حياة له، وتفريقَه بالجـود والعطاء قتلا له، ثم اثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم

٢٥٦ـ الدسوقى ١/ ٢٤٠ .

٢٥٧ـ اسرار البلاغة، ٤٢٥ـ٤٢٦ .

بانه لايصح منهما هذه الافعال[٢٥٨].

رجوع المجاز العقلى الى اللغوى :

لقد انكر السكاكى المجاز العقلى و رأى ان جميع موارده يرجع الى المجاز اللغوى . فجعل المنسوب اليه فى تلك الموارد مستعملا فى غير معناه ادعاء على سبيل الاستعارة المكنية، وهى ان يُذْكَر المشبهُ ويراد منه المشبه به بواسطة قرينة، وقال :

«والذى عندى هو نظم هذا النوع - اعنى المجاز العقلى - فى سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع* استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الإستعارة كما عرفت، وجعل نسبة الإنبات اليه قرينة الاستعارة .

وبجعل** الامير المدبِّر لأسباب هزيمة العدوّ استعارةً بالكناية عن الجند الهازم، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة»[٢٥٩].

واعترض الخطيب القزوينى على نظرية السكاكى هذه، و ذكر فى نقضها وجوها لاتُمرّ ولاتحلى، ومن أراد الوقوف عليها فليراجع الايضاح والتلخيص مع شروحه[٢٦٠].

وتبع السكاكى فى الإنكار للمجاز العقلى وارجاعه الى اللغوى صاحبُ «الطراز» ، غير انه يعدّه من المجاز المركب الذى يفسره هكذا :

٢٥٨- اسرار البلاغة، ٤١٩ .

٢٥٩- المفتاح، ١٨٩ .

٢٦٠- شروح التلخيص على هامشه الايضاحُ ١/٢٦٦-٢٧١ .

* اى فى نحو : أنبت الرّبيع البقل .

** اى فى نحو : هزم الأمير الجند .

«وحاصل الامر فى ذلك هو ان يستعمل كلّ واحد من الالفاظ المفردة فى موضوعه الاصلى، لكن المجاز انما حصل فى التركيب لاغيـر، وهـذا كقوله :

أشـاب الصغيرَ و أفنـى الكبيرَ كـرُّ الـغَداةِ و مرُّ العَشـيّ

فكل واحد من هذه الالفاظ المفردة فيما ذكرناه مستعمل فى موضوعه الاصلى، لكن انما جاء المجاز من جهة اسناد الإشابة والإفناء الى كرّ الغداة والى مرّ العشى، وهو غير مطابق لما عليه الحقيقة . فان الإشابة والإفنـاء انما يحصلان بفعل الله لا بكرّ الغداة ولا بمرّ العشى»[٢٦١].

فهذا العالم الجليل مع اعترافه بان المجاز فى امثال هذه المركبـات جاء من جهة اسناد الشيء الى غير ما هو له، جعله لغويا وقال :

«اعلم ان هذه المجازات المركبة التى ذكرناهـا ومثلناهـا كلّهـا مجازات" لغوية استعملت فى غير موضوعاتها الأصلية»[٢٦٢].

ثم وجّه نظريته بما لايخلو من التعسف، وهو ان صيغ المنسوب او المسند فى الامثلة التى ذكرها لهـذه المجازات المركبة لـم تستعمل فـى موضوعاتها، لانها وضعت فى اللغة لان يسند الى الفاعل القادر لا الى غيره.

ويمكن بيان نظرية السكاكى وصاحب الطراز هكذا :

١ـ المجاز العقلى ـ مجاز مفرد لغوى عند السكاكى، ولكنه مركب لغوى عند صاحب الطراز .

٢ـ ان المستعمل فى غير معناه الحقيقى هـو المنسوب اليـه عنـد السكاكى، واما عند صاحب الطراز فهو عبـارة عـن نفس المنسوب . فـ

٢٦١ـ الطراز ٧٤/١ .

٢٦٢ـ المصدر نفسه ٧٥/١ .

«الإشَابة» مثلا وضعت فى اصل اللغة لصدورها مـن القادر الفاعل، فـاذا اسندت الى غيره لم تقع فى موقعها .

اطلاق آخر للمجاز العقلى :

قد عرفت ان المجاز العقلى هو المركب الذى أخْرِجَ الحكمُ المفادُ به عن موطنه فى العقل لعلاقة، وهذا المعنى هو المتبادر منه عند الاطلاق .

غير انه قد يطلق ويراد به المجاز الواقع فى الكلمة المستعملة فى غير معناها لعلاقة المشابهة، كأن تقول : دخلَتْ شرارةٌ فى قلبى مِنْ سماعِ ذلك الخبرِ الهائلِ .

فيقال للشرارة المستعملة فى معنى الهمّ والحزن أنهـا مجاز عقلـى، بمعنى ان المـُبـَرِّرَ لاستعمال الكلمة فى غير معناها الحقيقى هو الادعاء الذى صيـّر المشبه فردا من افراد المشبه به، فكأنه استعمل فى معناه الأصلى .

ولما كان هذا الادعاء راجعا الى التصرف فى امر عقلى، سمى ماجرت فيه هذه العملية مجازا عقليا لا لغويا، ولكن الجمهور لـم يقولوا بهـذه التسمية و ذهبوا الى ان استعمال اللفظ فى غير معناه لعلاقة المشابهة يسمى مجازا لغويا .

فعلم مما ذكرنا ان المجاز العقلى يطلق على أمرين : احدهما اسنـاد الشيء الى غير من هو له .

والثانى التصرف فى المعانى العقلية على خلاف ما فى الواقع[٢٦٣].

الملحق بالمجاز :

اعلم انه كثيرا ما نرى ان بعض اجزاء الجملة او الكلام لم يقع موقعه

٢٦٣ـ راجع المطول، ٢٨٨ـ٢٨٩، وحاشية الدسوقى ١/٥٨ .

ولم يحتفظ بما هو يستحقه، وجرى على شكل كان من حقه ان لا يجرى عليه . فنرى في الجملة نوعا من التجوز والتوسع، ولكن ليس ذلك في اللغة ولا في الاسناد بل في حكم خاص للكلمة اكتسبته بمقتضى اصول وقواعد قررها أهل فنّ خاص .

قال الشيخ ... «اعلم ان الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها الى حكم ليس هو بحقيقة فيها»[٢٦٤].

ويُعرف هذا التغير عندهم بالمجاز في الحذف او بالمجاز في الزيادة، و ذلك لان سبب هذا التوسع يرجع إمّا الى الحذف نحو : واسألِ القرية[٢٦٥]، وجاء ربّك[٢٦٦]. «فالحكم الاصلى لربك والقرية وهو الجرّ قد تغيّر في الاول الى الرفع وفي الثاني الى النصب»[٢٦٧].

وامّا الى الزيادة نحو ليس كمثله شيء . «فالحكم الاصلى لمثله هو النصب لانه خبر ليس وقد تغير الى الجرّ بسبب زيادة الكاف»[٢٦٨].

اما السكاكي فسمّى الاول المجاز بالنقصان والثاني المجاز بالزيادة ، ثم هو يعتقد ان اللفظ بعد الزيادة او النقص استعمل في غير ما وضع له، فغيّر معناه كما غير لفظه .

«وفيه نظر لان تغير المعنى واستعمال اللفظ في غير ما وضع له في هذا النوع من المجاز ممنوع»[٢٦٩].

٢٦٤– اسرار، ٤٥٧ .
٢٦٥– يوسف، ٨٢ .
٢٦٦– الفجر، ٢٢ .
٢٦٧– المطول، ٣٢٦ .
٢٦٨– المصدر نفسه، ٣٢٦ .
٢٦٩– المصدر نفسه، ٣٢٧ .

بلاغة المجاز :

لما كان الاصل في اللفظ ان يجرى فى موضعه ويستقر فى موطنه، فإنه لا يُعْدَل عنه الا لأغراض ولطائف، منها :

١ـ ان الفاظ المجازات قد تكون اشدّ الفة واكثر أنْساً بها من كلمات الحقيقة، و ذلك لخفتها على اللسان والسمع . فمثلا ان كلمة «العين» المراد بها الربيئة ـ اى الرقيب ـ اخف على السمع واللسان، وأسهل لدى السامع والقارىء من الربيئة[٢٧٠].

جاء فى مقدمة تلخيص البيان : «لم يورد ـ الحكيم سبحانه ـ الفاظ المجازات لضيق العبارة عليه، ولكن لانها أحلى فى اسماع السامعين وأشبه بلغة المخاطبين»[٢٧١].

٢ـ انها قد تكون أصلح للقافية فى الشعر اوالسجع فى النثر[٢٧٢].

و ذلك كما مرّ فى قول الحُطَيئة :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها
فاقعُدْ فإنّكَ انْتَ الطّاعِمُ الكاسى

لعل اقتضاء القافية كان مما دعى الشاعر للعدول من «المكسوّ» الى الكاسى .

٣ـ افادة الايجاز الذى هو مقصد هام فى البلاغة، و ذلك فان قولنا: «بنو فلان يطأهم الطريق» أوجَزْ من «بنو فلان يطأهم اهل الطريق» و كذا «قر المجلس» اقلّ مؤنةً مِنْ «قرّ أهْلُ المَجلِس» .

٢٧٠ـ علم البيان، ١٥٨، الطراز ١/٧٩ .

٢٧١ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن، ١ .

٢٧٢ـ الطراز ١/٧٩ .

٤ـ أنه من شأن المجاز أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النّباهة والمبالغة، فان قوله : «فنام ليلى وتجلّى همّى» ليس حال المعنى وموقعه فيه كما اذا تركت المجاز وقلت : فنمتُ ليلى وتجلّى همّى . وكذا الحال فى رأيتُ اسداً[٢٧٣].

٥ـ أن العبارة المجازية قد تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الاحوال، فترى البخيلَ عند سماعها يسمح، والجبانَ يشجع، والطائشَ المتسرعَ يحكم . فاذا زالت تلك الحالُ العارضة عن السامع و رجع الى نفسه تجده نادما على ما كان منه من بذل مال او ترك عقوبة، او اقدام على امر مخوف، وهذا هو فحوى السحر الحلال، المستغنى عن إلقاء العصا والحبال[٢٧٤].

ولهذا قال القيروانى: «والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، واحسن موقعا فى القلوب والاسماع»[٢٧٥].

٦ـ انه قد يُتْرَكُ التعبيرُ بما يدل على المعنى الأصلى لما فيه من الثقل على النفس والرّوح، و ذلك لانه يحكى عن شىء موحش او مؤلم، فيُعْدَل الى ما يدل على شىءٍ يستأنس ويتفاءل به، و ذلك كتسمية اللّديغ بالسليم، والبريّة المُهْلكة بالمَفازة .

٧ـ انّ المجاز كما قال العقاد: «هو الأداة من أدوات التعبير الشعرى"، لانه تشبيهات وأخيلة وصُوَر" مستعارة واشارات ترمزُ الى الحقيقة المجرّدة بالأشكال المحسوسة، وهذه هى العبارة الشعرية فى جوهرها

٢٧٣ـ دلائل الاعجاز، ٢٢٨ .

٢٧٤ـ المثل السائر ١/٦٣ .

٢٧٥ـ العمدة ١/٢٦٦ .

الاصيل»[٢٧٦].

٨ـ التوسعُ في اللغة وفتحُ آفاق جديدة من التعبير امام الشاعر او الأديب، فيستطيع ان يعبّر عن تجاربه واخيلته مهما كثرت وعظمت .

تلك أغراض يتضمنها المجاز، ويهدف اليها اللفظ الخارج عن مجراه الاصلي . وليس من واجبات المجاز ان تجتمع تلك الاغراض واللطائف في كل موردٍ من موارده، بل يجوز اجتماعها كما يجوز افتراقها. لكن ابن جني حينما قنص أغراضا كثيرة للمجاز بالفاظ قليلة كالاتساع والتوكيد والتشبيه ، رأى أن المجاز يدور معها جميعا وجودا وعدما، فقال : «و انما يقع المجاز ويُعدَل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع والتشبيه والتوكيد . فان عدم هذه الاوصاف كانت الحقيقة البتة»[٢٧٧].

ثم اكدّ على نظريته هذه بانه جاء بامثلة كثيرة من المجاز وسعى في اثبات احتوائها على تلك الأغراض .

فمثلا ذكر في قوله تعالى : «وأدْخَلْناه في رَحْمَتِنا»[٢٧٨] انه مجاز و فيه الأوْصاف الثلاثة .

اما السعة فلأنه كأنه زاد في أسماء المَحالّ والجهات اسما آخر و هو الرحمة .

واما التشبيه فلانّه شبّه الرّحمة التي لم يصح دخولها بما يجوز ان يدخل فيه، فلذلك وضعت موضعه .

٢٧٦ــ اللغة الشاعرة، ٣٧ .

٢٧٧ــ الخصائص، ٤٤٢ .

٢٧٨ــ اللغة الشاعرة، ٣٧ .

وامّا التوكيد فلأنه اخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر، ويعدّ هذا نوعا من التعالى بالعرض والتفخيم لشأنه، اذ صُيِّر الى حيّز ما يُشاهَد ويُلمَس ويعاين[٢٧٩].

فاذا كان وجود جميع الأوصاف الثلاثة واجبا فى كل مجاز فمن البدهى أن المجاز عنده لايخلو على اى حال من التشبيه، ولذلك قال فى قوله تعالى : «وَاسْأَلِ القرية التى كُنّا فيها»[٢٨٠] الذى يُعْرَف بالمجاز فى الحذف، فيه المعانى الثلاثة .

اما الاتساعُ فلأنّه استعمل لفظ السؤال مع مالايصح فى الحقيقة سؤاله .

واما التشبيه فلأنها شبّهت بمن يصح سؤاله لمّا كانَ بها ومُؤلفاً لها .

واما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة . فكأنهم تضمنو لأبيهم عليه السلام انه ان سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم . وهذا تناه فى الخبر. اى لو سألتها لانطقها الله بصدقنا فكيف لو سألت من عادته الجواب[٢٨١].

الفصل الثالث فى الاستعارة

المراد منها :

وهى كما مرّ قسم من المجاز بُنِى على التشبيه، ويقال فى تعريفها :

٢٧٩ـ الخصائص، ٢ ٤٤٣ .

٢٨٠ـ يوسف، ٨٢ .

٢٨١ـ الخصائص، ٢ ٤٤٧ .

استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الاصلى والفرعى، مع قرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقى[٢٨٢] . و ذلك كقول تعالى :

«كتابٌ أنزلناه إليكَ لتُخرِجَ الناسَ مِنَ الظلمات إلى النور»[٢٨٣].

اى من الضلالة الى الهداية .

وقول المتنبى لما قابله ممدوحه وعانقه :

فلم أرَ قبلى مَنْ مشى البَحرُ نحوَه
ولا رجلاً قامَتْ تُعانِقُه الأُسْدُ

فاستعمال البحر والاسد فى الرّجل الممدوح استعارة، واسناد المشى والمعانقة إليهما قرينة .

واركان الاستعارة على ما قال الرّمانى[٢٨٤] ثلاثة :

١ــ المستعار منه، وهو المعنى المنقول عنه، او المعنى الأصلى .

٢ــ المستعار له، وهو المعنى المنقول إليه، او المعنى الفرعى. و يسمى المستعار منه والمستعار له طرفى الاستعارة، وهذان الطرفان لا يذكران معا، بل يحذف احدهما دائما بحيث لا يحتاج اليه فى التركيب الكلامى كما رأيت .

٣ــ المستعار، وهو اللفظ الدال على المعنى المنقول عنه .

ثم المستعار لا يقع فى الجملة على صورة الخبر او ما ينوب منابه كالحال ،بل يأتى اما فاعلا، اومفعولا، او مجرورا، او مبتدأ .

ليست آراء القدماء ونظراتهم فى المراد من الاستعارة سواء ، إذ أن

٢٨٢ــ جواهر البلاغة، ٣٠٣ .

٢٨٣ــ ابراهيم، ١ .

٢٨٤ــ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن، ٨٦ .

منهم من يقصد بها ما يتعارفه الناس فى معنى العارية وان لم يكن طريق نقله التشبيه .

فهذا ابن قتيبة (٢١٣–٢٧٤) يعنى من الإستعارة وضع كلمة مكان اخرى لعلاقة السببيّة او المجاورة او المشاكلة، و ذكر فى امثلتها قول مُعَوِّد الحكماء ، معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب :

إذا سَقَطَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ   رَعَيناهُ وإنْ كانوا غِضابا*

فعدّ السماء المستعمل فى المطر بعلاقة السببية او المجاورة استعارة[٢٨٥].

وقد حذا حذوه ابو بكر بن دريد (– ٣٢١ هـ، ف) فانه ذكر فى باب الاستعارة قولهم «رَعَينا الغَيْث» وما هو أبعد من ذلك[٢٨٦].

وقال الآمدى : (– ٣٧٠ هـ) : «وانما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه او يناسبه او يُشبِهه فى بعض أحواله، او كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له وملائمة لمعناه»[٢٨٧]. وفى ضوء هذا الرأى سمى استعمال المجلس فى أهله بعلاقة المحلية استعارة فى قول المهلهل :

نُبِّئْتُ أنّ النّارَ بعدكَ او قدَتْ
واستَبَّ بعدكَ يا كليبُ المَجلِسُ[٢٨٨]

وقال ابو هلال (– ٣٩٥ هـ) فى تفسير الاستعارة : نقل العبارة عن موضع استعمالها فى اصل اللغة الى غيره لغرض . ثم ذكر لها امثلة كثيرة منها قوله تعالى :

٢٨٥– تاويل مشكل القرآن، ١٠٢ .
٢٨٦– راجع اسرار البلاغة، ٤٤٢ .
٢٨٧– الموازنة، ١/٢٥٠ .
٢٨٨– اسرار البلاغة، ٢٤٣ .
* و روى البيت لجرير ايضا ، راجع ٢٤٧ من هذا الكتاب .

«ذرنى ومن خلقت وحيداً»[٢٨٩] فالأصل : ذر بأسى وعذابى.
وقول الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا[٢٩٠]

ومنهم من يحصر آفاق الاستعارة على التعبير عن المعقول بالمحسوس، كما فعل اسامة بن منذر (٤٤٨-٥٣٠ ؟) فقال : «اعلم ان الاستعارة هو أن يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول، كما قال الله تعالى : «لا تظلمون فتيلا»[٢٩١].

ومنهم من أراد من الاستعارة استعمال اللفظ فى غير ما وضع له بعلاقة المشابهة، فهؤلاء اما صرحوا بهذه المشابهة كالقاضى الجرجانى (٣٦٦ هـ) فانه قال : «وانما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الاصل، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه، و مناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين فى احدهما إعراض عن الآخر»[٢٩٢].

وكالشيخ عبدالقاهر الجرجانى (ف ٤٧٤) فانه صرح فى مواضع متعددة من كتابيه القيمين بأن مبنى الاستعارة التشبيه، فقال :

الف ــ «اما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه»[٢٩٣].

ب ــ «اعلم ان الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبدا»[٢٩٤].

٢٨٩ــ المدثر، ١١ .

٢٩٠ــ الصناعتين، ٢٧٢، ٢٧٦ .

٢٩١ــ البديع فى نقد الشعر، ٤١ .

٢٩٢ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه، ٤١ .

٢٩٣ــ اسرار البلاغة، ٢٦ .

٢٩٤ــ اسرار البلاغة، ٦٣ .

ج ـ «فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[٢٩٥].

أولم يصرحوا بها، ولكن هناك أشياء تدل على انهم راعوا علاقة المشابهة في الاستعارة . و ذلك كما ترى الجاحظ (٢٥٥ هـ، ف) يعنى من الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه، فهو لا ينص على رعاية المشابهة بين الطرفين في هذه التسمية، لكنه لما طبّق مراده من الاستعارة على جعل المطر بكاء في قول الشاعر :

و طَفِقَتْ سحابَةٌ تغشاها تبكي على عِراصِها عيناها[٢٩٦]

علمنا ان الظاهر من كلامه هو رعاية المشابهة في الاستعارة .

وكما ترى الرماني (٢٧٤ هـ، ف) يكتفي في تعريف الاستعارة بقوله : «تعليق العبارة على غير ما وُضِعَت له في اصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[٢٩٧]. فهو ايضا لا يصرّح برعاية المشابهة في الإستعارة، ولكن نعلم أن المشابهة ملحوظة عنده في هذا التعليق . و ذلك لأن الرّماني فرّق الاستعارة من التشبيه بأن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه باق على اصله، لم يغير عنه في الاستعمال، بخلاف الاستعارة[٢٩٨]. فهو يرى أن الاستعارة مبنيّة على التشبيه الا انه لم يبق على اصله .

وكذلك ترى ابن المعتز (٢٩٦ هـ، ف) لا يزيد على قوله في بيان المراد منها : «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها، من شيء قد عرف

٢٩٥ـ دلائل الاعجاز . وفيه يشير الى ان من الاستعارة نوعا آخر وان كان الناس يضمونه الى الاول الا ان التحقيق هو غيره .

٢٩٦ـ البيان والتبيين ١/١٥٣ .

٢٩٧ـ ثلاث رسائل، ٧٩ .

٢٩٨ـ المصدر نفسه، ٧٩ .

بها»[٢٩٩] كلمة او كلاما يدل على رعاية المشابهة في الاستعارة ، ولكنه لما عدّ الاستعارة فى كتابه من اقسام البديع بلا شرط علمنا ان المشابهة معتبرة عنده فيها. فلو لم تكن معتبرة فيها لكانت الاستعارة حينئذ تساوى المجاز، وليس كلّ مجاز بديعا، فلم يصح عدّها بلاشرط فى اقسام البديع[٣٠٠].

والدليل الآخر على رعاية المشابهة عند ابن المعتز، انه اورد امثلة كثيرة للاستعارة لا يخلو واحد منها عن المشابهة .

فالاستعارة عند من يشترط بناءها على التشبيه لا تساوى المجاز، بل المجاز اعم منها، فكل استعارة عنده مجاز وليس كلّ مجاز استعارة .

والمذهب المرضى او الصواب عند الشيخ فى هذا المقام هو ان تقتصر الاستعارة على نقل تشبيهى للمبالغة . وقال : «انا نرى كلام العارفين بهذا الشأن، اعنى علم الخطابة ونقد الشعر، والذين وضعوا الكتب فى اقسام البديع يجرى على ان الاستعارة نقل الاسم عن اصله الى غيره للتشبيه على حد المبالغة»[٣٠١].

الفرق بين التشبيه والإستعارة

لما كان المذهب المرضى هو بناء الاستعارة على التشبيه واتصالها به وجدنا من المناسب ان نشير الى الفرق بينهما واختلاف آفاقهما فنقول :

التشبيه والاستعارة يتفاوتان فى الشكل والمعنى والمورد .

٢٩٩ــ البديع، ١٧ .

٣٠٠ــ راجع اسرار البلاغة، ٤٤٢ .

٣٠١ــ المصدر نفسه، ٤٤٢ــ٤٤٦ .

اماالتفاوت فی‌الشکل فهو ان‌المشبه والمشبه بـه لایجتمعان فـی الاستعارة ولایفترقان فی‌التشبیه، بمعنی‌انه یُکْتفی باحدهمافی‌الاستعارة کما مرّ بخلاف‌التشبیه . نعم، قد یحذف احدالطرفین فـی‌التشبیه ایضـا کقوله تعالی : «صُمٌّ بکمٌ عمیٌ فهم لایعقلون» الا ان‌الحذف لایتجاوز درجةالتلفظ، ولهذا لایُستَغنی عن‌المحذوف من حیث‌الترکیب‌الکلامی .

وایضا ان‌المشبه به فی‌التشبیه یأتی موضع‌الخبر او ما هو فی حکمه، واما فی‌الاستعارة فهویقع موقع‌المبتدأ، اوالفاعل، اوالمفعول، اوالمجرور بالحرف اوالاضافة[۳۰۲].

واما التفاوت فی‌المعنی فهو :

الف ـ ان‌التشبیه استعمال‌اللفظ فی ما وضع له واحتفاظٌ للمشبـه والمشبه به معناهماالحقیقیَ، وکلّ ما یفعله‌التشبیه هو ربط‌الصلة بینهما . ولکن‌الاستعارة استعمال‌اللفظ فی غیر ما وضع له، وبناءٌ علـی تناسـی التشبیه وتدمیجُ احدالطرفین فی‌الآخر وجعلهما شیئا واحدا . ففرق بین ان یقول‌الشاعر :

وأسبلَتْ لؤلـؤاً مِنْ نـرجسٍ فسقت
َورْداً ، و عضَّتْ علی‌العُنّابِ بـالبَرد

وبین ان یقول : واسبلت دمعا کاللؤلؤ من‌عین کالنرجس ، و سقت خدا کالورد، وعضّت علی انامل کالعناب بأسنان کالبرد .

فالتشبیه ُاقربُ الی تصویرالواقع، ولکن‌الاستعارةُ أمْعَنُ فی الخیال لانها تطمس‌الأشیاء طمسا وتستبدل بها أشباهها ، فالفتاةالباکیة فی البیت‌لم تُمْطِرْ من‌عینهادمعاکاللؤلؤ، بل‌أمطرت لؤلؤا. فالاستعارةاعظم‌شأنا

۳۰۲ـ اسرارالبلاغة، ۳۷۰ـ۳۷۱ .

في مواضع التهويل والتجسيم والتشخيص، وأجلّ قدرا من حيث ادعاء الاتحاد وافادة المبالغة. ولهذا نرى أنّ التشبيه اكثر شيوعا في العصور «الاتباعيّه» التي يكون فيها الشعراء اقل جِـدّة في الخيال واكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق، وكانت الاستعارة اكثر شيوعا من التشبيه في العصور «الابتداعية» التي يشطح فيها الخيال ويجمح، فلا يكون العقل عليه ضابطا[٣٠٣].

ب ـ كلّ استعارة تصلح لان تتحول او ترجع الى التشبيه بخلاف العكس، فلا يصح ان تجرى الاستعارة في ايّ تشبيه أردته . بل أنما يجوز ذلك اذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ويكون في الحال دليل عليه وفي العرف شاهد له، حتى يمكن المخاطب إذا اطلقت له الاسم ان يعرف الغرض ويعلم ما اردت .

ألا ترى قول النبى (ص) : «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لاتَجِدُ فيها راحِلةً» وقول النابغة : «فانّكَ كاللّيلِ الذى هو مُدْرِكى» فانه لا يجوز فيهما حذف المشبه والاداة و وجه الشبه، وتحويلهما الى الاستعارة لغموض وجه الشبه وصعوبة فهم المراد .

فالاصل في صحة التحويل أن يرجع التشابه بين الطرفين الى صفة يكون المشبه به اصلا فيها ومعروفا عند الناس بها، فكلما تحقق ذلك الاصل صحّ تحويل التشبيه الى الاستعارة بلا اشكال[٣٠٤].

واممّا التفاوت في المورد فهو ان التشبيه اكثر دورانا في النثر العلمي، وفي الموضوعات التي تخاطب العقول، لان المراد من هذه المسائل ان تكون واضحة دقيقة محددة، سهلةَ الإدراك، بعيدةً مِنْ وثبات الخيال ، و

٣٠٣ــ فنون الأدب، ٩٤ــ٩٥ .

٣٠٤ــ اسرار البلاغة، ٢٧٩ــ٢٨٥ .

طفرات التصوير، وترف الألفاظ، واناقة الصياغة . والاستعارة ألصق وآنسب بالنثر الأدبى والشعر، واكثر اهميّة فيهما من التشبيه[٣٠٥].

« زيد أسد » بين الاستعارة والتشبيه

اعلم أنّه لاخلاف فى أنّ «زيد كالاسد» تشبيه وأنّ «رأيتُ اسداً يرمى» استعارة، ولكنهم اختلفوا فى «زيدٌ اسدٌ» : فقال قوم هو تشبيه بليغ، وقال الآخرون هو استعارة، ولكلٍ أدلّة يتمسكون بها .

استدل القائلون بالاستعارة بوجوه : الاول ــ أن «الأسد» فى هذا المثال قد اُجْرِىَ على «زيد» و اُخبِر به عنه، ومعلوم ان الانسان لايكون اسدا مع ان مقتضى الحمل والإجراء كون المحمول عين الموضوع فى المعنى .

الثانى ــ ان المشبه به فى نحو المثال المتقدم كثيرا ما يتعلق به الجار والمجرور كقول عمران بن الحطّان السدوسى يهجو الحجّاج ويستهزىء به:

(اسدٌ علىّ) وفى الحروب نَعَامةٌ
فَتخاءُ تنفِرُ مِنْ صفيرِ الصّافِرِ

وقول ابى العلاء المعرّى فى رثاء والد الشريف الرّضى :

(والطَيْرُ أغرِبَةٌ عليه) بأسرِها :
فُتخُ السَّراةِ و ساكِناتُ لَصافِ[٣٠٦]

والتعلق دليل على أنّ المشبه به مؤول بالمشتق ومنقول الى غير ما

٣٠٥ـ فن التشبيه ١/٥١ .

٣٠٦ـ والسراة ولصاف : جبلان .

وضع له، اذ لو كان مستعملا فى معناه الاصلى لم يكن لتعلق الجار وجه .

الثالث ـ أن المراد من هذا الكلام اجراءُ الأسد على زيد قضاءً لحق المبالغة المقصودة ، فيلزم ان يكون الاسد منقولا الى معنى المشبه، لانه لو استعمل فى معناه الحقيقى وبُنِيَ الكلامُ على تقدير الأداة ، لزم انتفاء المبالغة وخلوّ الكلام من الغرض المراد منه .

فعلى هذا كان «زيد اسد» استعارة وتقديره «زيد رجل شجاع او ذات متصفة بالشجاعة كالأسد» فحذف المشبه والأداة وتنوسى التشبيه ، ثم استعمل المشبه به فى معنى المشبه على سبيل الاستعارة .

فالمشبه هو الرّجل الشجاع او الذات المتصفة بالشجاعة لازيد، لانه لايصلح لأن يكون مشبّها الا ّ من حيث كونه ذاتا صدقت عليها الشجاعة ، ولايخفى انه بهذه الحيثية يعتبر مخبرا به لامخبرا عنه .

وامّا من حيث انه شخص تعيّن بهذا العلم فلايقع مشبها لفقدان وجه الشبه بينه وبين الأسد .

الرابع ـ ان الاستعارة تمتاز عن التشبيه بصحة وضع المشبه فيها موضع المشبه به من غير ان يحصل خلل فى الكلام الا ّ انتفاء المبالغة، فكل ماصح فيه هذا الوضع كان استعارة لاتشبيها . فجملة «زيد اسد» استعارة، لانه يصح ان يجعل فيها موضع المشبه به الذى هو خبر لزيد المشبه المقدّر، و يقال : زيد رجل شجاع كالأسد .

اما القائلون بالتشبيه فاستدلوا على صحة رأيهم بوجود المشبه والمشبه به معا فى اللفظ، واستعمال المشبه به فى المعنى الاصلى . وقالوا إن جملة «زيد اسد» تشبيه بليغ بحذف الوجه والأداة وادّعاء الاتحاد بين الطرفين، وان الكلام مبنى على تقدير الاداة[٣٠٧].

٣٠٧ـ راجع شروح التلخيص وحواشيها ٤/٥٠ـ٥٤ .

قال القاضی الجرجانی : «فقد رأیت بعض اهل الأدب ذکر انواعا من الاستعارة عدّ فیها قول ابی نواس :

والحبّ ظهر انت راکبه فاذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أری هذا وما اشبهه استعارة، وانما معنی البیت ان الحب مثل ظهر، اوالحب کظهر تدیره کیف شئت اذا ملکت عنانه، فهو اما ضرب مثل، اوتشبیه شیء بشیء»[٣٠٨].

واستدلوا ایضا بأنه لو کانت جملة «زید اسد» استعارة لکان لفظ الأسد مستعارا، وأنت خبیر بأن المستعار لایقع فی الکلام علی شکل الخبر او ما فی حکمه[٣٠٩].

ولهذا یری الشیخ عبدالقاهر ان فی اطلاق الاستعارة علی مثل «زید اسد» مما کان المشبه به خبرا او راجعا الیه بعضَ شبهة، ویُرجّح ان یعدّ تشبیها علی حد المبالغة لا استعارة . وبیان ذلك ان جعل المشبه المشبه به علی ضربین :

احدهما ـ أنْ تنزله منزلة الشیء فتذکره بامر قد ثبت له ولا تحتاج الی ان تعمل فی اثباته، و ذلك حیث تسقط ذکر المشبه من الشیئین ولا تذکره بوجه من الوجوه، کقولك : رأیت اسدا .

الثانی ـ ان تجعل ذلك کالامر الذی یحتاج الی ان تعمل فی اثباته وتحصیله، و ذلك حیث تجری اسم المشبه به بالصراحة علی المشبه فتقول: زید اسد، و زید هو الأسد . او تجیء به علی وجه یرجع الی هذا، کقولك: ان لقیته لقیت به اسدا، وان لقیته لیلقینّك منه الأسد . فانت فی هذا کله تعمل فی اثبات کونه اسدا وتضع کلامك له، ولهذا یأتی المشبه به علی

٣٠٨ـ الوساطة، ٤١ .

٣٠٩ـ نهایة الإیجاز، ٨٨ .

شكل الخبر او ما في حكمه[٣١٠].

اما في الصورة الاولى فانت تـُخْرِج قولك مخرج مالا يحتاج فيه الى اثبات وتقرير، فيأتي المشبه به فيها على شكل الفاعل، اوالمبتدأ، او المفعول، اوالمجرور .

والقياس يقتضي ان يقال في الصورة الثانية : انها تشبيه على حد المبالغة، ويقتصر على هذا القدر ولاتسمى استعارة[٣١١].

وايضا استدلوا بأن التشبيه يمتاز عن الاستعارة بحسن اظهار الاداة فيه وقبحه فيها، فاذا قيل في «زيد اسد» : زيد كالأسد، ما عرض فيه قدح وما زالت عنه الفصاحة والبلاغة ولذلك يعدّ تشبيها . وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول دون المنقول اليه، فانه لايحسن فيه ظهور اداة التشبيه، و متى ظهرت زالت عن ذلك الكلام ما كان متصفا به من الفصاحة والبلاغة ونحوهما، وهذا هو الاستعارة[٣١٢].

وفي نهاية هذا البحث جدير بالذكر ان حجة القائلين بالاستعارة قابلة للمناقشة على مايلي :

١ـ ان اقتضاء الحمل كون الموضوع عين المحمول واتحادهما في المعنى امر مسلم، لكن هذا الكون والاتحاد اعم من ان يكون حقيقيا او ادعائيا . وايضا اذا صح نقل الأسد الى معنى الرّجل الشجاع هربا من ذلك المحظور، فلم لايصح تقدير الأداة لنفس تلك القضية .

٣١٠ـ اما وقوع المشبه به فاعلا او مفعولا في نحو : ان لقيته ليلقينك منه الاسد، وان لقيته لقيت به اسدا، فلا بأس فيه لانه في الحقيقة يرجع الى اجراء اسم المشبه به على المشبه .

٣١١ـ راجع اسرار البلاغة، ٣٦٦ـ٣٧٨ و دلائل الاعجاز، ٥٣ـ٥٤ .

٣١٢ـ المثل السائر ٣٥٧/١ .

٢ـ ان تعلق الجار بالاسد ليس الاّ باعتبار تضمنه لمعنى الاجتراء او ما يشابهه، ومعلوم ان المشبه الذى نقل اليه لفظ المشبه به ليس ذلك المعنى بل هو ذات مستلزمة لمعنى الاجتراء، ضرورة ان الاجتراء الذى هو وجه الشبه لا يكون احد طرفى التشبيه او جزءه، والاّ لزم الحاجة الى وجه شبه اخر. فاذا صحّ تعلق الجار بالأسد المستعمل فى معنى المشبه باعتبار استلزامه لمعنى الاجتراء او تضمنه ايّاه، فلما ذا لا يصح التعلق بالأسد المستعمل فى المعنى الاصلى باعتبار استلزامه للبسالة ونحوها، او التعلق بما يستفاد من معنى الأداة المحذوفة؟

٣ـ ان انتفاء المبالغة فى «زيد اسد» اذا اعتبر تشبيها لا استعارة ممنوع، لان ادعاء الاتحاد بين المشبه والمشبه به المنصوص عليه فى اللفظ ينادى على تلك المبالغة.

٤ـ نحن لا نسلم ان «زيد» باعتبار انه ذات متصفه بالشجاعة يعتبر مخبرا به فلا يكون مشبها، لان هذا الاعتبار مبنى على تأويل مدّعى الاستعارة. واما على رأى من يقول بالتشبيه فالمخبر به هاهنا هو «الأسد» على سبيل الادعاء، فحينئذ كان «زيد» المراد به الذات المتصفة بالشجاعة مشبها ومخبرا عنه بلا اشكال.

مايحتمل الاستعارة والتشبيه بحسب اعراب المشبه به

قد يرد الكلام على صورة يجوز حمله على الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة معا، كما اذا وقع المشبه به فى جملة يجوز بناؤها على ضمير من تقدم ذكره واجراء المشبه به على ذلك الضمير، اوقطعها عما يربطها بما قبلها وبناؤها على المشبه به كجملة مرتجلة. كقول البحترى فى قصيدة يمدح

بها احمدِ وابراهيم ابنى المدبر :

ُألامُ علَى هوى الحسناءِ ظُلماً
و قلبى فى يدِ الحسناء عانِ
إذا انصرفَتْ ، (اضاءَتْ شمس َدجْنٍ)
و مالَ مِن َالتعطُّفِ غصن بانِ [٣١٣]

فإذا بنيت جملة «اضاءت شمس دجن» على ضمير الحسناء واجريت كلمة الشمس على ذلك الضمير ونصبتها، جاء الكلام تشبيها لاشتماله على المشبه والمشبه به معا، كانه قال : «اضاءت الحسناء شمسَ دجنٍ» اذ الضمير المستتر الرّاجع الى الحسناء فى حكم المذكور .

اما اذا قطعت الجملة عما قبلها ونقلتها الى غير ضمير الحسناء كجملة مرتجلة، و رفعت كلمة الشمس وبنيت الجملة عليها، فالكلام استعارة لاشتماله على ذكر المنقول فقط .

وهذا الموضع كما قال ابن الاثير : «فيه دقة غموض، وحرف التشبيه يحسن فى الاول دون الثانى» [٣١٤].

الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى

اختلف القوم فى الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى، فمنهم من ذهب الى انها مجاز لغوى واحتج بان لفظ المستعار المستعمل فى معنى المشبه لم يوضع له فى اصل اللغة ولا لأعم منه ومن المشبه به فالأسد مثلا فى

٣١٣- ديوان البحترى .

٣١٤- المثل السائر ١/ ٣٦٠-٣٦١، و رواية البيت فيه: (اذا سفرت... ومالت فى التعطف...) .

قولنا : «للإسلام أسود" تهتف بمجده» وضع في اللغة للحيوان المفترس لا للرجل الشجاع ولا لأمر يعمهما ،فاستعماله في الرجل الشجاع تجوز في اللغة وإخراج للفظ من المعنى الحقيقي الى المجازي .

ومنهم من ذهب الى أنها مجاز عقلي، بمعنى ان التصرف فيها او العملية المسوِّغة لها ترجع الى امر عقلي لا أن المجاز وقع في الاسناد .

وهؤلاء يحتجون بان اللفظ المستعار لم يخرج من موطنه ولم يُنْقَل الى غير موضعه الا بعد ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وجعله فردا من افراده، لان مجرد النقل خاليا عن الادعاء والجعل لا يُبرر الاستعارة ولا يسوّغها، والا كانت الأعلام المنقولة والمشتركات اللفظية استعارة مع انه لم يقل به احد . وايضا لو كانت الاستعارة مبنية على مجرد النقل لما صح لنا القول بأنها أبلغ من الحقيقة، ولما صح التعجب في قول ابي الفضل بن العميد :

قامَتْ تُظَلِّلُني مِنَ الشمسِ نفس" أعزُّ عَليَّ مِنْ نَفْسي
قامَتْ تُظَلِّلُني ومِنْ عَجَبٍ شمس" تُظَلِّلني مِنَ الشمس

او النهي عنه في قول الشريف ابي الحسن محمد بن احمد ... بن علي بن ابي طالب :

لا تعجَبوا مِنْ بِلى غِلالتِه قد زُرَّ أزْرارهُ علىَ القمَرِ

ويمكن انْ تُناقِش احتجاجَهم بمايلي :

١ـ انا لا نسلم اذا كان النقل في الاستعارة عاريا من الإدعاء ان لا يبقى فيها الا مجرد الاطلاق، وان لا يكون بينها وبين الاعلام المنقوله والمشتركات اللفظية فرق، لاننا نعلم ان النقل في الاستعارة لا يتحقق الا بواسطة التشبيه بخلاف غيرها من الاعلام المنقولة والمشتركات اللفظية، فلا تساوي بان الاستعارة

٢ـ ان انتفاء الادعاء والجعل لا يستلزم مساواة الاستعارة للحقيقة

فی الأبلغية وعدمها، لانه ليس المراد من عبارة «ابلغ من الحقيقة» اكثر مبالغة، حتى يقال إنها تتحقق بادعاء الاتحاد وتنتفى بانتفائه . بل المراد بها ان الاستعارة ادل واقوى واوضح فی بيان الغرض من الحقيقة، فليس بواجب ان تشتمل كل استعارة على المبالغة .

٣ــ ان ادعاء دخول المشبه فی جنس المشبه به لا يُخْرِجُ اللفظ عن كونه مستعملا فی غير ما وضع له بحسب اللغة، لضرورة العلم بان «الأسد» مثلا لم يوضع فی اللغة ابتداءً الا للحيوان المفترس لا للرّجل الشجاع ولا لأعم منهما .

٤ــ ان التعجب والنهی عنه قضاء لحق المبالغة بتناسی التشبيه فی الاستعارة .

والتحقيق فی هذا المقام ان النزاع لفظی يدور حول التعبيرات والألقاب والاعتبارات، فلا يترتب عليه تنائج متناقضة اومتخالفة . و ذلك لان من جعل الاستعارة مجازا لغويا لم ينكر الادعاء والجعل فيها، ومن جعلها مجازا عقليا لم ينكر استعمال اللفظ فی غير معناه الحقيقی بالوضع الاول فيها[٣١٥].

تَوارد الإستعارة والمَجاز المُرسَل على محلّ واحد :

اعلم ان اللفظ الواحد بالنسبة الى المعنى الواحد يجوز ان يكون مجازا مرسلا واستعارة، لكن باعتبارين مختلفين . و ذلك إذا كان بين المعنى الاصلی والفرعی نوعان من العلاقة : احدهما المشابهة والآخر غيرها، كما ترى فی استعمال «المِشْفَر» فی شفة الانسان . فانه يصح ان يعتبر استعارة على قصد المشابهة بينها وبين شفة البعير فی الغلظة، وان يعتبر

٣١٥ــ راجع المواهب، ٤/٦٠ــ٦٢ .

مجازا مرسلا باعتبار استعمال مشفر البعير فى مطلق الشفة ثم فى شفة الانسان[٣١٦].

صُوَر الإستعارة

الاستعارة باعتبار الأركان المُكَوِّنَةِ لها والعوامل المؤثرة فيها تنقسم إلى اقسام متعددة، وتتلون بألوان مختلفة . ولسنا هاهنا بصدد استقراء تلك الأقسام و دراسة تلك الصور بكمالها، لأن ذلك العمل لافائدة فيه غير تكثير الأقسام وازدياد المُحْتَمَلات، لكن نقف فى هذا المجال عند بعضها قليلا او كثيرا على حسب حظه من الأهمية . فنقول من تلك الصور :

١- المفردة والمركبة

ان الشبه اذا كان موجودا فى الشيء على الانفراد من غير ان يكون منتزعا منه ومن اشياء اخرى، ثم انتهى ذلك الشبه الى عملية الاستعارة كما ترى فى استعارة النور للعلم، والظلمة للجهل، والشمس للوجه الجميل ، فالاستعارة فى هذه الصورة تسمى مفردة .

واذا لم يكن الشبه موجودا فى الشيء على الانفراد بل اعتُبِر معه غيره، فليس الاسم الذى وقع موقعا يقتضى كونه مستعارا بمستعار . و ذلك مثل قول داودبن على عم ابى العباس السفاح تاييدا له : وقد أخَذَ القَوْسَ باريها .

٣١٦- المطول، ٢٩٩ .

فالمراد من «القوس» هاهنا الخلافة ومن «باريها» الخليفة، لكن الشبه لم يقع بين القوس والخلافة على الانفراد بدون ان يعتبر معهما شيء آخر ، فلهذا لا يقال الخلافة قوس كما يقال هى نور . وانما الشبه مؤلف من حال الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى بَراها، والقوس على الانفراد ليس بمستعار ولكن مجموع الكلام، فالاستعارة فى هذه الصورة تسمى مركبة كما تسمى مثلا[٣١٧]، وتسمى ايضا مماثلة[٣١٨] وتمثيلا، او تمثيلا على سبيل الاستعارة[٣١٩].

وظهر مما تقدم ان الاستعارة التمثيلية لا تجرى فيما كان وجه الشبه فيه مركبا والمشبه والمشبه به مفردين، لانه لا يبقى فى الاستعارة غير لفظ المستعار فاذا كان مفردا والوجه مركبا كما لو قيل : «رأيتُ عُنْقوداً ملاحيّةً فى السّماء» لم يعرف من ذلك اللفظ تركيب الوجه وانتزاعه من متعدد . وهذا بخلاف تشبيه التمثيل، فان تقارن المشبه والمشبه به فيه ممّا ينمّان عن تركيب الوجه فضلا عن ذكره فى بعض الأحيان[٣٢٠].

و «التمثيل» ضربٌ من ضروب الإستعارة كما عرفت، ويقال فى تعريفه ايضا : هو ان تمثل شيئا بشيء فيه اشارة[٣٢١]، او هو ان تقصد الاشارة الى معنى فتأتى بالفاظ تدل عليه وتكون مثالا له[٣٢٢]. و ذكره بعضهم فى اقسام الكناية، ولكلّ منهم وجه : فمن عده من الاستعارة جعل

٣١٧- اسرار البلاغة، ٢٩٢-٢٩٥ .

٣١٨- اعجاز القرآن، ١١٩ .

٣١٩- راجع التلخيص مع شرحه المطول، ٣٨٠ .

٣٢٠- حاشية عبدالحكيم، ٥٠٣-٥٠٤ .

٣٢١- العمدة ٢٧٧/١ .

٣٢٢- اعجاز القرآن، ١١٩ .

العلاقة بين المعنى الحقيقى والفرعى المشابهة، ومن ذكره فى اقسام الكناية جعل العلاقة الملازمة .

فممّا هو من التمثيل :

١ـ قول النبى (ص) : «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته».

٢ـ قول المتنبى :

ومَنْ يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ الماءَ الزُلالا

٣ـ ما كتبه الوليدبن زيد لما بويع بالخلافة الى مروان بن محمد و قدبلغه انه يتوقف فى بيعته له : «اما بعدُ فإنى اراكَ تُقدّمُ رِجْلاً و تُؤخّرُ أخرى فاذا اتاك كتابى فاعتمِدْ على أيّهما شئتَ . والسلام».

فالمشبه الصورة العقلية المأخوذة من كون الانسان مترددا فى البيعة فيُقدم عليها بالعزم تارة ويُحجم عنها بالاستخارة مرة اخرى، والمشبه به الصورة الحسية للإنسان القائم للذهاب فيُقدّم رجلا تارة للذهاب و يؤخرها أخرى للاحجام عنه، فاستعمل الكلام الدّال بالمطابقة على الصورة الثانية فى الصورة الاولى على سبيل الاستعارة . و وجه الشبه هاهنا هو ما يترتب على الصورتين من الانبعاث للامر والانصراف عنه .

والظاهر أن المستعار هو عبارة «تقدم رجلا وتؤخر اخرى» لاغير، وان «اراك» لادخل فى النقل والتجوز لاننا اذا قلنا: «فلان يقدم رجلا...» حصل التمثيل ايضا[٣٢٣].

ومعنى «تؤخر اخرى» : تُؤخّر تلك الرّجل المقدّمة، فعلى هذا كانت كلمة «اخرى» نعتا لموصوف محذوف اعنى «المرة» لا «الرجل» وتقدير الكلام : تؤخرها مرة اخرى . وانما لم يُجْعَل اخرى نعتا للرّجل على ان يكون المعنى وتوخر رجلا أخرى، لان هذا ليس صورة تردد

٣٢٣ـ شروح التلخيص ٤/١٤٣ـ١٤٤ .

الانسان فى الذهاب وغيره، فانه «اذا اراد الذهاب رمى رجله أما ماً واذا احجم عنه ردّ تلك الرجل الى موضعها، ويسمّى ردّها لموضعها تاخيرا باعتبار ما انتهت اليه اولا»[٣٢٤].

لقد سبق انه يمكن ان يتوارد المجاز المرسل والاستعارة على محل واحد باعتبارين مختلفين كما رأيته فى «المِشْفَر»، فعلى هذا لا بأس فى القول بالمجاز المرسل فى «انى أراك تقدم رجلا ...» كما رآه عصام الدين حيث يقول : «ومما يختلج فى الصدر ولا تجده فى صدر بعد الصّدر انّ قوله : انى اراك تقدم رجلا ... مسبب عن التردد فيحتمل ان يكون التجوز باعتباره، فيتحقق المجاز المرسل فى المجموع من غير تصرّف فى الأجزاء كالاستعارة»[٣٢٥].

٢ـ التهكمية والتمليحيّة

وهى ما استعمل المشبه به فى ضدّ معناه الحقيقى او نقيضه، كقوله تعالى : «فبشِّرْهُم بعذابٍ اليم»[٣٢٦] فاستعير «التبشير» وهو الإخبار بما يسّر المُخْبَر «للإنذار» وهو التخويف والتهديد، بعد ادعاء دخوله فى جنس البشارة على سبيل التهكم والإنذار .

والفرق بين التهكمية والتمليحية هو أنه ان كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ فى ضد معناه الهزء والسخرية بالمقول فيه كانت الاستعارة تهكمية، وان كان الغرض الحامل على ذلك بسط السامعين وإزالة السآمة عنهم من طريق الإتيان بشىء مليح مُستَظرَف كانت الاستعارة حينئذ

٣٢٤ـ الدسوقى ٤/١٤٣ .

٣٢٥ـ عصام الدين، العقد الاول، الفريدة السادسة، مخطوط .

٣٢٦ـ آل عمران، ٢١ .

تمليحيّة[۳۲۷].

۳ـ المرشحة و المجرّدة و المطلقة

الاستعارة باعتبار ما يلائم الطرفين، مع قطع النظر عن القرينة اللازمة فيها الدالة على أن المستعار لم يستعمل فی معناه الأصلی، تنقسم الی ثلاثة اقسام : مُرَشّحة، مُجرّدة و مُطلَقة .

فالمرشحة : استعارة اقترنت بصفة او تفريع مما يلائم المستعار منه، و ذلك كقولك : بَيْنِ فكيّه حسامٌ لا يُفَل .

وقوله تعالی : «اولئكَ الّذينَ اشتروا الضلالةَ بالهُدی، فما رَبِحَتْ تجارتُهم» .

فا «لحُسام» و «والإشتراء» استعارة و «بين فكيه» و «الضلالة» قرينتها، وعبارة «لا يُفلّ» و «فما رَبحتْ تجارتُهم» ترشيح .

ومن امثلة المرشّحة ايضا قول بعضهم فی وصف الكتاب :

لنا جُلساء لا نملّ حديثَهم ألِبّاءُ مأمونونَ غيباً و مشهدا

وقول البحتری :

وأری المنايا إنْ رأتْ بكَ شيبةً جعَلتْك مرمی نبلِها المُتواتِرِ

وقولك : تلطّخ فلانٌ بعارٍ لن يُغسَلَ عنه أبدا[۳۲۸].

والفرق بين الصفة والتفريع ان الملائم ان كان من بقية الكلام المشتمل علی الاستعارة يعتبر صفة، وان كان كلاما مستقلا وقع بعد ما فيه الاستعارة وبنی عليه كما رأيت فی آية «اولئك الذين ...» يسمی تفريعا، سواء كان

۳۲۷ـ الدسوقی ۷۸/٤ .

۳۲۸ـ الامثلة من «البلاغة الواضحة» ، ۸۹، ۹۳ .

بحرف التفريع اولا[٣٢٩].

وانما سميت هذا النوع من الاستعارة مرشّحة، لان الترشيح بمعنى التقوية والتزيين، وانك اذا بنيت الاستعارة على تناسى التشبيه و ذكرت ملائمات المستعار منه فقد سعيت فى تقويتها وتزيينها .

والمجرّدة : استعارة اقترنت بما يلائم المستعار له، و ذلك كأن تقول : بين فكيه حسامٌ ينطِق بالحقّ .

وكقول كُثيّر يمدح عبدَ العزيز بن مروان :

غَمرُ الرِّداءِ إذا تبسَّم ضاحكاً غَلِقَتْ بضحكتِه رقابُ المال[٣٣٠]

استعار الشاعر «الرّداء» للعطاء لانه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه، ثم وصفه با«لغمر» الذى يناسب العطاء دون الرداء تجريدا للاستعارة، والقرينة سياق الكلام، اعنى قوله : اذا تبسم ...[٣٣١]

ومعنى البيت : ان السائلين يأخذون اموال الممدوح من غير علمه و يأتون بها الى حضرته، فيعرف ذلك ويبتسم فى وجههم ولا ياخذها منهم، فضحكه سبب لتمكن المال فى أيديهم وأمارة على الإباحة لهم[٣٣٢].

وقال عبدالحكيم : «فى «غلقت» اشارة الى انه يعلم ان للسائلين حقا عليه بواسطته صارت الأموال مرهونة عندهم، وانه عاجز عن اداء ذلك الحق . فلذلك لم يقدر على انفكاك الأموال عنهم»[٣٣٣].

٣٢٩ــ الدسوقى ١٢٧/٤ .

٣٣٠ــ الغمر من الثوب : السابغ الواسع. غلق الرهن فى يد المرتهن اذا لم يقدر الراهن على انفكاكه .

٣٣١ــ المطول، ٣٧٧ .

٣٣٢ــ الدسوقى، ١٢٩/٤ .

٣٣٣ــ السيالكوتى، ٥٠٢ .

وكقولك : نَفِّضْ صدرَكَ مِنَ الغِلّ والحقدِ ، اى فَرِّغ صدرَكَ . والتنفيض فى الأصل تحريك الثوبِ ليزول عنه الغبارُ او الشجرِ ليسقط ما عليه من الورق وغيره، ثم استعير لمعنى التفريغ والإخلاء ، فصدرك هاهنا قرينة ومن الغل والحقد تجريد . وما أحسنَ قولَ المعرّى فى هذا المعنى :

ماالخَيْرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ لـه
و لا صلاةٌ ، ولا صوفٌ على الجَسَدِ
و انّما هو تركُ الشَّرِّ مُطَّرِحاً ،
و نفضُكَ الصّدرَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسَدِ [٣٣٤]

والمطلقة : استعارة خلت مما يلائم المستعار منه والمستعار لـه، او اقترنت بما يناسبهما سواء . و ذلك كقول المتنبى :

أحِنُّ الى أهلى و أهْوى لقاءَهم
وأيْنَ مِنَ المُشْتاقِ عنقاءُ مُغْرِبُ ؟[٣٣٥]

استعار العنقاء لأهله، وسياق الكلام اعنى : «احِنُّ الى اهلى ...» قرينة، ولم يذكر فى البيت اضافة على القرينة صفة او تفريعا مما يناسب المشبه او المشبه به .

وكقولك : فى صَدْره حديدٌ لايلين بالنّار ولايتأثر بالكلام، اى فى صدره قلب .

وقولك ايضا : بيننا جِبالٌ لاتتزلزلُ للرّياح ولاترْكَعُ للصّياح .

٣٣٤– لزوم مالا يلزم ١/٣٧٥ .

٣٣٥– شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ١/٣٠٧ .

بلاغة المرشحة :

والمرشحة بين هذه الاقسام أقوى من غيرها لاشتمالها على تقوية المبالغة وتحقيقها، فيُبنى الكلام فيها على تناسي التشبيه . ولهذا يدعى المتنبى حينما قابله ممدوحه وعانقه، انه لم ير قبله مشيَ البحر نحوَ رجل ومعانقةَ الأسد معه، فيقول :

فلم أرَ قبلى مَنْ مشَى البحرُ نحوَه
ولا رجلاً قامَتْ تُعانِقُه الأُسْدُ

ويضع ابو تمام الكلام فى علّو المنزلة وضعَه فى علو المكان ، فقال:

و يصعَد حتى يظنَ الجهولُ بأنّ له حاجةً فى السماء

فلولا ان قصده أن يتناسى التشبيه، ويصرّ عَلى انكاره فيجعله صاعدا الى السماء من حيث المسافة المكانية، لما كان لهذا الكلام وجه[٣٣٦].

اعلم ان الترشيح لا يختص بالاستعارة بل يجرى فى التشبيه والمجاز المرسل ايضا، و ذلك بذكر ما يلائم المشبه به او ما يناسب المنقول منه .

الاول ــ كقول المعرى فى رثاء والده :

كأنّ دُعاءَ الموت باسمك نكزةٌ
فرَتْ جسَدى، والسُمُّ يُنْفَثُ فى أذُنى[٣٣٧]

فان «فرت جسدى» وكذا «ينفث ...» فى البيت مما يناسب المشبه به اعنى «النكزة» او «السمّ» لا المشبه .

والثانى ــ كقول النبى (ص) لأزواجه الطاهرات : «أسْرعُكُنّ لحوقاً بى أطْولُكُنّ يداً» . فان اليد مجاز مرسل عن النعمة لحصولها

٣٣٦ــ المطول، ٣٠٨ .

٣٣٧ــ سقط الزند، ١٦، النكزة اللدغة . فرت : قطعت .

عن اليد، و «اطولكن» ترشيح لهذا المجاز لملاءمتها لليد لا للنعمة[٣٣٨].

٤ـ المُصَرَّحةُ والمكنيّةُ

تنقسم الإستعارة بإعتبار ذكر المشبه اوالمشبه به إلى قسمين : مصرّحة ومكنية .

المصرّحة :ما اكتفى فيها من أركان التشبيه بذكر المشبه به ، كقول على (ع) في وصف القرآن : «لاتُكشَفُ الظلماتُ إلاّ بـه» . استعار الظلمات للشبهات بجامع عدم الاهتدا فيهما من غير دليل، ولم يذكر من أركان التشبيه في هذه الاستعارة غير الظلمات التي هي المشبه به .

وقول الشَنْفرى :

(ولى دونَكُم أهلونَ) : سيدٌ عَملَّسٌ
و أرقطُ زهلولٌ ، و عرفاءُ جَيْأَلُ
همُ الأهلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِرِّ ذائعٌ
لدَيهِم ، ولا الجاني بما جَرَّ يُخذَلُ

استعار الأهل للوحوش بجامع عدم ذيوع الأسرار وعدم خذلان المُذْنِب لديهم .

والمكنية : ما لم يذكر فيها من أركان التشبيه غير المشبه، و ذلك كقوله تعالى : «واخفِضْ لهما جناحَ الذُلِّ مِنَ الرّحمة»[٣٣٩] جُعِل التذلل والتواضع أمام الوالدين طائرا يحنو على أفراخه بجامع اللين والرحمة، فلم يُذكَر من اركان التشبيه إلاّ «الذل» وهو المشبه .

٣٣٨ـ راجع المطول، ٣٠٥، والمواهب ٤/١٥٦ـ١٥٧ .

٣٣٩ـ الاسراء، ٢٤ .

وكقول علي (ع) : لقد رجعتْ فيهم أبصارُ العبر، وسمعتْ عنهم آذانُ العقول . فكلٌ من العبر والعقول هاهنا استعارة مكنية .

وقال تأبّط شراً :

إذا هَزّه في عظمِ قِرْنٍ ، تَهلّلتْ
نَواجِذُ أفواهِ المنايا الضَّواحِكِ [٣٤٠]

جعل المنايا سَبُعا بجامع الإهلاك والإعدام، ولم يذكر من أركان التشبيه سوى المشبه، اعني «المنايا» .

وانما سمى هذا النوع من الاستعارة بالمكنية لانه لم يُصرّح فيه بذكر المستعار، بل اقتصر على ذكر لازمه لينتقل منه الى المقصود كما هو شأن الكناية . و ذلك اللازم في الامثلة المذكورة كان : الجناح، والابصار، والآذان، والأفواه .

٥ـ التحقيقية والتخييلية

والاستعارة باعتبار أن المستعار له موجود في الواقع ام لا، تنقسم إلى قسمين : تحقيقية وتخييلية .

التحقيقية : ما كان المراد بالمستعار له امرا معلوما بحيث يمكن ان يُنَصّ عليه ويشار إليه اشارة حسية او عقلية[٣٤١]، و ذلك نحو قوله تعالى: «وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيثَ بالطيّبِ»[٣٤٢]. استعير الخبيث للمال الحرام والطيّب للمال الحلال، وهما امران متحققان حسا .

٣٤٠ـ هزّه : الضمير للسيف . النواجذ : أقصى الأضراس .
٣٤١ـ المطول، ٢٩٢ .
٣٤٢ـ النساء، ٢ .

وقوله تعالى : «الر، كتاب" انزلناه إليك لتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلمات إلى النّور»[٣٤٣]. استعير الظلماتُ للجهل والنور للعلم، وان شئت فقل للضلالة والهداية، ولا يخفى انهما متحققان عقلا .

ويجرى هذا المجرى قولُه عزّ من قائل: «إنما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطهّركم تَطْهيرا»[٣٤٤] استعير الرّجس للذنب والعصيان الذى هو امر عقلى[٣٤٥].

والتخييلية: ما لم يكن لمعنى المستعار له وجود فى الواقع، فلا يمكن النص عليه ولا الاشارة إليه فى الحس والعقل، وإنما يتجلّى فى الوهم والخيال ولهذا يذوب فى غيرهما .

ومن امثلتها «أبصارُ العبر» و «آذان العقول» فيما سبق من قول على (ع) ، فإنه استعير كلّ من الأبصار والآذان لما يتصور فى الوهم من طرق الإدراك للعبر والعقول، ومن البدهى أن المستعار له لم يكن له وجود فى غير الوهم والتخيّل، وانه ليس فى الواقع ما تشير إليه حسا او عقلا وتُجرى عليه لفظ الأبصار والأذان .

آراء حول الاستعارة المكنية والتخييلية

اعلم أنّ القوم لم يتفقوا على المراد من الاستعارة المكنية والتخييلية وتفسيرهما، فذهبوا هاهنا مذاهب شتى، وسلكوا مسالك مختلفة .

٣٤٣- ابراهيم، ١ .

٣٤٤- الاحزاب، ٣٣ .

٣٤٥- تفسير البيضاوى ١٦٣/٤ .

فنعرض فيما يلى هذه الآراء والنظرات على ضوء من التحقيق والتدقيق، فنقول ومن الله التوفيق :

المعروف عند الناس ان المذاهب هنا اربعة :

الف ــ مذهب السلف ــ يراد منه من تقدم السكاكى[٣٤٦].

ب ــ مذهب السكاكى .

ج ــ مذهب صاحب التلخيص .

د ــ مذهب عصام الدين .

الأوّل ــ ان المأخوذ من كلام السلف هو ان الاستعارة المكنية ما لا يصرّح بذكر المستعار، بل بذكر رديفه ولازمه عليه[٣٤٧]. فالمراد مثلا بقول تابط شرا : «تهللتْ نواجذُ أفواهِ المَنايا» استعارة السبع للمنايا، إلاّ انه تُركِ التصريح بذكر «السبع» المستعار و دُلّ عليه بذكر لازمه و هو «الأفواه» .

قال صاحب الكشاف فى بيان تسمية العهد بالحبل على سبيل الاستعارة فى قوله تعالى : «ينقضُون عهدَ الله»[٣٤٨] «وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا اليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه . ونحوه قولك : «شجاعٌ يفترسُ أقرانه وعالِمٌ يغترِفُ منه الناسُ»[٣٤٩].

ومعنى هذا الكلام هو انه وقعت فى «العهد» و «الشجاعِ» و «العالِم» استعارة استعير فيها شيء كالحبل للاول، والأسد للثانى،

٣٤٦ــ عصام الدين، الفريدة الأولى من العقد الثانى .

٣٤٧ــ المطول، ٣٨٢ .

٣٤٨ــ البقرة، ٢٧ .

٣٤٩ــ الكشاف ١/٢٠٧ .

والبحر للثالث، غير انه لم يذكر لفظ المستعار بل دُلَّ عليه بلازمه وردفه على سبيل الإشارة والرمز . وهذا الردف واللازم هو النقض للحبل ، والافتراس للأسد، والإغتراف للبحر.

ولما كان هذا النوع من الاستعارة يلتقي مع الكناية في ذكر لازم الشيء والإشارة به على مكان ذلك الشيء، ناسب أن يسمى استعارة مكنية او بالكناية وان كان السلف لم يصرّحوا بهذه التسمية .

وجدير بالذكر أن الشيخ ـ وان كان من السلف ـ لا يقول في موطن الاستعارة بالكناية الا بتشبيه وتقدير في النفس حَذْفِ المشبه به فيه، ثم ذُكِر ما يلائمه واستعير للمشبه على طريق ادعاء معنى شيء لشيء . فقال عند تفسير الاستعارة وبيان مَغْزى التشبيه في قول لبيد :

وغَداةِ ريحٍ قد كشفتُ وقِرّةٍ إذ أصبَحَتْ بيد الشمالِ زمامُها:

«بل ليس اكثر من أن تخيل الى نفسك ان الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبّر المُصرِّف لما زمامه بيده، ومَقَادتُه في كفه»[٣٥٠]، و ذكر أنّ هذا التشبيه لا يأتيك عفوا بل يحتاج إلى إعمال الفكر والتأمل، وانه لا يلقاك من استعارة اليد للشمال بل يُستنبَط من الشمال نفسه[٣٥١].

فالشيخ لا يرى في الشمال استعارة على معنى انه استعير له لفظ المشبه به المحذوف بل كلّ ما يعتبره هناك لا يتعدى دائرة تشبيه مقدّر في النفس، فعلى هذا انما يُسمى بالمكنية استعارة" بالمعنى المصطلح عند غيره من السلف، وتشبيه مقدّر في النفس لا يتأتى عفوا بغير التأمل عنده. ثم انه لا يسمى هذا التشبيه استعارة ولا مكنية، ومن رأى مذهبه وسمّى

٣٥٠ـ اسرار البلاغة، ٥٢ـ٥٣ .
٣٥١ـ المصدر نفسه، ٥٣ـ٥٥ .

التشبيه بالمكنية فلعل أنه نظر الى خفاءالتشبيه وعدم ظهوره، واماالتسمية بالاستعارة فالظاهر انه لايرى له وجه .

ذلك هو ما جاء ونُقِل من السلف فيالاستعارةالمكنية .

وامّا رأيهم فيالتخييلية فالمنقول انهم سوى صاحبالكشاف يرون انالاستعارةالتخييلية هى إثبات لازمالمشبه بهللمشبه[٣٥٢]، و ذلك كإثبات الجَناح للذُّلّ، والأبْصار للعِبَر، والآذان للعُقول فيما تقدم من الأمثلة.

قالالشيخ فى دلائلالاعجاز : «لاخلاف فى اناليد – من قول لبيد : بيدالشمالِ زمامُها – استعارة" ثم انك لاتستطيع أنْ تزعم أنّ لفظ اليد قد نُقِل عن شيء الى شيء ، و ذلك انه ليسالمعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك ان تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه . وانماالمعنى على أنه اراد أن يثبت للشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها شبهالإنسان قد أخذ الشيء بيده يقلّبه ويصرّفه كيف يريد، فلما اثبت لها مثل فعلالانسان باليد استعار لها اليد»[٣٥٣].

فكلامه هاهنا وفى «أسرارالبلاغة»[٣٥٤] صريح فى أن نحوَ «يد الشّمال» استعارة" لكن لا بمعنى نقلاللفظ عن شيء الي شيء بل بمعنى اثباتاليد للشمال مبالغة فى تحقيق ذلكالتشبيهالمقدّر فىالنفس . ولا يخفى انالشيخ وان كان يدّعيالاتفاق على وجودالاستعارة فى امثال يدالشمال غير انه لايشير الىالتقييد بالتخييلية، ولعلالتسمية بالاستعارة التخييلية، جاءت من غيره .

امّا التسمية بالاستعارة – مع أنّ مبناها ليس على نقلاللفظ عن

٣٥٢– عصامالدين، الفريدةالاولى منالعقدالثالث .

٣٥٣– دلائلالاعجاز، ٣٣٤ .

٣٥٤– راجع اسرارالبلاغة، ٥١–٥٣ .

معنى إلى معنى آخر بل على أخذ الاسم عما يليق به واثباته لغيره ـ فهي بملاحظة الاشتراك اللفظي، او ان شئت فقل باعتبار المعنى اللغوي للاستعارة لا المصطلح لها .

وبالتخييلية ـ فلعل أنها جاءت بسبب تفرّع هذه الاستعارة وتلازمها للتشبيه الذي «لا يتعدى التخيّل والوهم، والتقدير في النفس»[٣٥٥].

والتخييلية عند صاحب الكشاف هي اثبات لازم المشبه به للمشبه بشرط ان لا يكون للمشبه لازم مثله في الواقع والخارج، و ذلك مثل : أفْواه المَنايا، يَد الشِّمال ِ، جَنَاح الذّل ِ، وما يجري مجراها . اما إذا وجد للمشبه ردْف في الواقع كردف المشبه به ولازمه فالاستعارةُ تحقيقية، كما «في ينقضُون عهدَ الله» وشجاعٌ يفترسُ أقْرانَه، وعالِمُ يَغْترِفُ منه الناسُ .

فإنّك تجد في الواقع للعهد ردفا ولازما كالإبطال، وللشجاع مثل الفتك والبطش وللعالم مثل الانتفاع والاستفادة، ويمكنك الإشارة الى ذلك الرّدف واللازم واستعمال لازم المشبه به فيه على طريق الاستعارة التحقيقية[٣٥٦].

قال صاحب الكشاف : «شاع استعمال النقض في ابطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوُصْلة بين المتعاهدين»[٣٥٧] هذا كلّ ما ذكره الزمخشري ههنا، لكن فسره الآخرون بما رأيت، وقال التفتازاني بعد نقله ما ذكره : «ولكنا قد استفدنا منه ان قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب ان تكون استعارة تخييلية، بل قد تكون

٣٥٥ـ المصدر نفسه، ٥٣ .

٣٥٦ـ راجع حاشية الدسوقي ١٥٩/٤ .

٣٥٧ـ الكشاف ٢٠٧/١ .

تحقيقية، كاستعارة النقض لإبطال العهد»[٣٥٨].

فعلى هذا ان المكنية لا تستلزم التخييلية عند صاحب الكشاف بخلاف العكس، واما عند غيره من السلف فهما متلا زمان، فلا يتحقق احدهما بدون الآخر .

الثانی ــ ان المكنية عند السكاكی عبارة عن ذكر المشبه و ارادة المشبه به منه على عكس الاستعارة المصرّحة، فمثلا فی «مخالبُ المنيّة نَشِبت بفلان» أنّ ذكر المنية و ارادة السبع بها استعارة مكنية بقرينة إضافة شیء من لوازم المشبه به الی المشبه . فقال فی المثال المذكور : «ندعی هاهنا اسم المنيّة اسما للسبع مرادفا له بارتكاب تأويل، وهو ان المنية تدخل فی جنس السباع لاجل المبالغة فی التشبيه»[٣٥٩] فهذا الادعاء الذی يحمله ذكر المشبه المضاف اليه شیء من لوازم المشبه به، هو نتيجة دعوی السبعية للمنية واستعارة المشبه به للمشبه على الطريق المعروف فی الاستعارة. ولما لم تجر الصورة التی تنم عن تلك الإستعارة على ما هی تقتضيه ــ اعنی ذكر المشبه به وإرادة المشبه، منه ــ سميت مكنية، لان تلك الاستعارة لم تحصل من منطوق الصورة بل جاءت من طريق الاستلزام .

هذا، اذا أردنا من المكنية «المكنی بها» اعنی ما يتوسل به للحصول على المراد من الكناية، امّا اذا اردنا منها «المكنی عنها» فالاستعارة المكنية عند السكاكی عبارة عن استعارة المشبه به للمشبه، التی لم يَدُلّ عليها صراحة بذكر المشبه به وقصد المشبه منه بل رمز إليها بذكر المشبه وادعاء اسمه للمشبه به . وهذا الادعاء كما عرفت متفرع على استعارة المشبه به للمشبه، لأن دعوی دخول جنس آخر تستلزم صحة تلبس كلّ منهما بلباس

٣٥٨ــ المطول، ٣٠٦ .

٣٥٩ــ مفتاح العلوم، ١٧٩ .

الآخر. فعلى ما فسرت رأي السكاكي في المكنية لاتناقض بين قوله : «ندعي ههنا اسم المنية اسما للسبع ...»[٣٦٠] وقوله الآخر : «ويسمي المشبه به سواء كان هو المذكور او المتروك مستعارا منه، واسمه مستعارا، والمشبه، به مستعارا له»[٣٦١] فلا او افق الدسوقي وصاحب مواهب الفتاح في ادعائهما التناقض والخبط في كلام السكاكي»[٣٦٢] .

والفرق بين المكنية عند السلف والمكنية عند السكاكي، ان السكاكي يرمز إليها بذكر المشبه وادعاء اسمه للمشبه به، واما السلف فهم يرمزون اليها بذكر لازم المشبه به واثباته للمشبه[٣٦٣].

والتخييلية عنده ان يكون المشبه المتروك شيئا وهميا لاتحقق له إلاّ في مجرّد الوهم، و ذلك مثل : لسانُ الحالِ الشبيه بالمتكلم ناطقٌ بكذا . فانك لما شبّهت الحال بالمتكلم اخذ الوهم في اختراع ما به قوام الكلام في الإنسان للحال، فيجعل له صورة مثل صورة اللسان للإنسان، ثم يطلق على تلك الصورة المخترعة في الوهم اسم اللسان المتحقق. وكذا الحال في مخالب المنية الشبيهة بالسبع نَشِبْت بفلان[٣٦٤].

ولا تلازم بين المكنية والتخييلية عند السكاكي، لانه يرى تحقق كل منهما بدون الآخر[٣٦٥]. اما تحقق التخييلية بدون المكنية فكما رأيت في الأمثلة السابقة التي جاء بها في المفتاح، وان كان صاحب التلخيص ادعى

٣٦٠- المصدر نفسه، ١٧٩ .

٣٦١- المصدر نفسه، ١٧٤ .

٣٦٢- شروح التلخيص ٤/١٨٤ .

٣٦٣- مفتاح العلوم، ١٧٦ .

٣٦٤- مفتاح العلوم، ١٧٨ .

٣٦٥- المختصر مع شروح التخليص ٤/١٩٦ .

انه بعيد لا يوجد له مثال فى الكلام[٣٦٦]..

أمّا تحقّق المكنية مع غير التخييلية فانه قال : «والمكنى عنها ـ ينقسم ـ إلى ما قرينتها امرٌ مقدّرٌ وهميٌّ كا«لأنْياب» في قولك : أنياب ُالمنية، و «كنطَقَتْ» في قولك : نطقت الحالُ بكذا، او امرٌ محقّق كا«لإنبات» في قولك : «أنبتَ َالربيع ُالبقل»[٣٦٧].

ولا يغرنّك ما جاء فى المفتاح مثل قوله : «وقدظهر أنّ الاستعارة بالكناية لا تنفك عن الاستعارة التخييلية»[٣٦٨] فانه بناء على مساق كلام غيره من الأصحاب وليس برأيه .

بقيت ههنا نكتة وهى ان التخييلية وان كانت تتحقق بدون المكنية عند السكاكى، لكن لا تنفك عن تشبيه بين أمرين متحققين حسا او عقلا ، فهذا التشبيه قد يتحول الى الاستعارة المكنية فتحقّقُ معها التخييلية ، كقولك : «لسانُ الحال نطقَتْ بكذا» وقد يبقى على حاله فتحققُ التخييليةُ بدون المكنية، و ذلك كأن تقول : لسانُ الحال الشبيه بالإنسان نطقَتْ بكذا .

الثالث ـ ان المكنية والتخييلية عند صاحب التلخيص امران معنويان من افعال المتكلم، لانه يفسر «المكنية» بالتشبيه المضمر فى النفس و «التخييلية» باثبات شيء من لوازم المشبه به للمشبه . فعلى هذا التفسير أنّ لفظى «الاظفار» و «المنية» فى قولك : أظفارُ المنية... ليسا داخلين فى المجاز اللغوى، بل كلاهما حقيقة لغوية .

والمكنية والتخييلية على تفسيره متلازمان لا يتحقق احدهما بدون

٣٦٦ـ شرح المفتاح الشريفى، مخطوط بدون رقم الصفحة .

٣٦٧ـ المفتاح، ١٨٩ .

٣٦٨ـ المصدر نفسه، ١٧٩ .

الآخر، إذ التخييلية يجب ان تكون قرينة للمكنيــة والمكنيــة يجب ان يُدَلَّ عليها بالتخييلية .

و وجه تسمية التشبيه المضمر با«لكناية» أنه لم يُصرَّح به، بل دُلَّ عليه بذكر الخواص واللوازم، وبا«لاستعارة» مجرد تسمية خاليــة عــن المناسبة .

واما الوجه في تسمية ذلك الإثبات بالاستعارة التخييلية، فلأنّه قــد استعير للمشبه الامر الذى يخص المشبه بــه ليخيّل ان المشبه مــن جنس المشبه به[٣٦٩].

لقد سبق ان الشيخ قال في موطن الإستعارة المكنية بتشبيه مقــدر في النفس، وجعل اثبات شيء من لوازم المشبه به المتروك للمشبه استعارة، غير انه لم يسم ذلك التشبيه استعارة مكنية ولا الاثبات تخييلية . فعلى هذا كان كلام الشيخ المَعينَ الاول لنظرية صاحب التلخيص، والمورِدَ الــذى استقى منه مذهبه . فتنبه العلامة التفتازانى لهذا المطلب، فانّه لما اشــار الى مفاد كلام الشيخ في امثال «اظفار المنية» اضاف قوله : «وهذا قريب مما ذكره المصنف في التخييلية»[٣٧٠] وليته لم يقصر مفاد كلام الشيخ ههنــا على الاستعارة بمعنى اثبات شيء لشيء، بل اشار ايضا إلى ذلك التشبيــه المقدر في النفس عنده[٣٧١]، حتى يتأتّى له القول بان كلام الشيخ في موطن التخييلية والمكنية قريب من كلام المصنف فيهما .

الرابع ــ ان الاستعارة بالكناية من فروع التشبيه المقلــوب، فكمــا يُجْعَلُ المشبهُ مشبها به مبالغة في شأنه وكماله فــي وجه الشبه بحيث

٣٦٩ــ المطول، ٣١٠ــ٣١١ :

٣٧٠ــ المصدر نفسه، ٣١٢ .

٣٧١ــ اسرار البلاغة، ٥٢ــ٥٣ .

يستحق ان يلحق به المشبه به، كقول محمد بن وهب :

و بـدا الصباحُ كـأنّ غـرّتـه   وجهُ الخليفةِ حيـن يُمتَدَحُ

فشبه غرّة الصباح بوجه الخليفة، فكذلك يستعار اسم المشبه للمشبه به لنفس تلك المبالغة كما فى اظفار المنية، فيراد بالمنية ههنا السبع ويجعل الكلام حينئذ كناية عن تحقيق الموت بلاريبة . فعلى هـذا لاتجوز فـى اضافة الاظفار الى المنية، ولا اشكال فى جعل المنية استعارة[٣٧٢].

المكنيّة بين « المكنى بها » و «المكنّى عنها »

لقد سبقت الاشارة الى انه يمكن ان يراد من المكنية «المكنى بها» اعنى ما يتوسل به فى الدلالة على عملية الكناية وما يُرمـز بـه عن الشيء المسكوت، او يراد بها «المكنى عنها» وهو الشيء المسكوت عنه والأمر المرموز اليه . فمثلا فى قوله تعالى : «كانا يأكُلان الطعامَ»[٣٧٣] المكنى بها هو العبارة وما دلت عليه بالمنطوق والمباشرة، واما المُكنى عنهـا فهو ما يترتب على اكل الطعام وقد تُرِكَ ذكره فى الآية .

فإذا حملنا المكنية على المعنى الأول، كانت الاستعارة المكنية علـى قول السلف الشيء المذكور من لوازم المستعار المسكـوت عنـه، اعنـى «الأظفار» المضافة الى المنية فى المثال المعروف، إذ بهـا يتحقق الرمـز والإشارة إلى المستعار المحذوف وهو السبع .

و كانت الاستعارةُ المكنية عند السكاكى المشبهَ المذكور المستعمـل

٣٧٢– عصام الدين، الفريدة الثالثة من العقد الثانى .

٣٧٣– المائده ٧٨ .

فى معنى المشبه به، لانه بهذا الطريق يرمز الى استعارة المشبه به للمشبه، فكل من اضافة الاظفار الى المنية واستعمال المنية فى السبع هو ما يتطلبه استعارة المشبه به للمشبه المسكوت عنها .

وكانت الاستعارة المكنية عند صاحب التلخيص ذكر لازم المشبه به او اثباته للمشبه، إذ به يدل على التشبيه المضمر فى النفس المتروك ذكره .

ولا يخفى ان المكنية بهذا المعنى مع صحتها لا يلائمها ظاهرُ ما نقل عن السلف فى معناها، اعنى : «هو ان لا يصرّح بذكر المستعار بل بذكر رديفه ولازمه الدال عليه»[٣٧٤]. ولا يؤيدها نصُّ عبارة صاحب التلخيص حيث قال : «قد يُضمر التشبيهُ فى النفس فلا يُصرَّحُ بشىء من اركانه سوى المشبه ويُدَلُّ عليه بان يثبت للمشبه امر مختص بالمشبه به، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية او مكنيا عنها»[٣٧٥].

فترى ان بناء ما نُقِل عن السلف على المستعار المسكوت عنه لا على ذكر الرديف واللازم، وان صاحب التلخيص ينص على ان التشبيه المضمر هو الاستعارة بالكناية، ثم انه يقيد المكنى بكلمة «عنها» ليشير الى ان المراد بالكناية هاهنا الامر المسكوت عنه لا ما يُرمَز به .

أما كلام السكاكى فهو تارة يشير الى أنه يريد من الكناية المكنى بها، وذلك حيث يقول «هى ـ الاستعارة بالكناية ـ كما عرفت ان تذكر المشبه وتريد به المشبه به»[٣٧٦] او يقول فى إرجاع التبعية الى المكنية : لو جعلوا «الحال» فى نطقت الحالُ بكذا استعارة بالكناية عن المتكلم ... كما يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ... لكان اقرب الى الضبط[٣٧٧].

٣٧٤ــ المطول، ٣١١ .

٣٧٥ــ المصدر نفسه، ٣١٠ .

٣٧٦ــ المفتاح، ١٧٩ .

٣٧٧ــ المفتاح، ١٧٤ .

فظاهر كلامه ههنا لا يلائم حمل الكناية على المكنّى عنها، لأن استعارة المشبه للمشبه به كما يراه تستفاد من متن العبارة ومنطوقها وأن ليس المستعار مسكوتا عنه، فلا يبقى فرق بين المكنية والمصرّحة من هذه الناحية .

وتارة أخرى يشير الى انه يعنى من الكناية الشيء المسكوت عنه والامر المرموز إليه، و ذلك حيث يضع مقابل المصرّح بها «المكنى عنها» وحيث يذكر ان المشبه به سواء كان هو المذكور اوالمتروك مستعار منه، واسمه مستعار، والمشبه، به مستعار له[٣٧٨].

فحيثما فسّر الكناية بذكر المشبه وإرادة المشبه به منه وجعل «المنية» ونظائرها استعارة بالكناية، اراد من «الكناية» ما يرمز به الى الشيء المسكوت عنه . وحيثما جعل المشبه به هو المستعار منه سواء كان مذكورا او متروكا، اواستعمل عبارة «المكنى عنها» اراد من الكناية الأمر المسكوت عنه . ومن لم يدرس كلام السكاكى على ضوء هذين الوجهين اعترض عليه واتهمه بالخبط والتناقض فى القول .

هل المكنية من اقسام الاستعارة فى المفرد ؟

اعلم ان الظاهر من كلام القوم هو ان المقسم فى التقسيم الى المصرّحة والمكنية والتحقيقية والتخييلية عبارة عن الاستعارة فى المفرد، وايضا ان الامثلة المذكورة لتلك الاقسام لاتخرج من هذه الدائرة . لكن جاء فى تفسير الكشاف عند قوله تعالى : «أفمَنْ حقّ عليه كلمةُ العذابِ، أفأنتَ

٣٧٨ـ المصدر نفسه، ١٨١ .

تُنقِذُ مَنْ فى النارِ ؟»[٣٧٩] ما يُبَرِّرُ جريان المكنية فى المركبة حيث قال : «و وجه آخر وهو ان تكون الآية جملتين : ١ـ أفمن حق عليه العذاب فأنت تُخَلِّصُه ؟ ٢ـ أفأنت تنقذ من فى النار ؟

وانما جاز حذف فأنت تُخلِّصه لأن أفأنت تنقذ يدل عليه . نَزَّل استحقاقهم العذاب وهم فى الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزل اجتهاد رسول الله(ص) وكدّه نفسه فى دعائهم الى الايمان منزلة انقاذهم من النار»[٣٨٠] .

فأنت ترى ان تنزيل استحقاقهم العذاب وهم فى الدنيا منزلة دخولهم النار يجرى مجرى الاستعارة بالكناية فى ذكر المشبه وحذف المشبه به، ثم ان تنزيل اجتهاد الرسول وكدّه فى الدعوة الى الاسلام منزلة الانقاذ من النار يسلك مسلك قرينة المكنية فى «ينقضون عهد الله» فتكون قرينة المكنية ههنا ايضا استعارة مصرّحة تحقيقية .

اجتماع المكنية مع المصرّحة

لاشبهة فى ان المشبه فى صورة الاستعارة بالكناية لايكون مذكورا بلفظ المشبه به كما فى المصرّحة، وانما الكلام فى وجوب ذكره بلفظ الموضوع له . والحق عدم الوجوب لجواز ان يشبه شىء بأمرين و يستعمل لفظ احدهما فيه ويثبت شىء له من لوازم الآخر، ففى هذه الصورة تجتمع المكنية والمصرحة فى محل واحد ولكن باعتبارين، كما ترى فى قوله

٣٧٩ـ الزمر، ١٩ .

٣٨٠ـ الكشاف ٢/٢٩٦ .

تعالى : «فاذاقها الله لباس الجوع والخوف»[٣٨١].

فيجوز ان يعتبر فيه انه شبّه ما غشى الانسان عند الخوف والجوع من الضرر والألم من حيث الاشتمال باللباس فيستعار له اسمه، ومن حيث الكراهة بالطعم المرّ البشيع فيضمر التشبيه فى النفس . فعلى هذا يكون اللباس استعارة مصرحة فى الصورة الأولى ومكنية فى الصورة الثانية، و يكون الاذاقة تخييلا[٣٨٢] .

٦ـ الأصلية والتبعية

الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار تنقسم الى قسمين : اصلية وتبعية .

الاصلية ــ ما كان اللفظ المستعار اسم جنس حقيقةً ، كالكوكب فى قول التهامى يرثى ابنه :

يا كوكباً ما كان أقصَرَ عمرَهُ و كذاك عمرُ كواكبِ الأسحارِ

اوتأويلا، كما فى الأعلام المشتهرة بصفة . قال المتنبى يمدح ابن العميد:

مَنْ مُبلِغُ الأعرابِ أنّى بعدها شاهَدْتُ رسطاليسَ والإسكندرا[٣٨٣].

والمراد باسم الجنس هنا غير ما اصطلح عليه النحاة الشامل للمشتقات والجوامد والمقابل لعلم الجنس ، والايلزم ان يدخل استعارة المشتقات فى الأصلية واستعارة علم الجنس فى التبعية مع ان الامر بالعكس، بل المراد به ما دل على ذات صالحة لان تصدق على كثيرين من غير اعتبار وصف من الاوصاف دلّ عليه ببناء الكلمة، او ان شئت فقل : ما دل على ماهية كلية من غير...

٣٨١ــ النحل، ١١٢ .

٣٨٢ــ عصام الدين، الفريدة الرابعة من العقد الثانى، والمواهب ١/١٨٦.

٣٨٣ــ «فرسطاليس» ـ ارسطو ـ معروف بالحكمة ، والاسكندر بالقدرة وسعة الملك .

سواء كانت ماهية المعنى كالضرب، او ماهية العين كالأسد .

اعلم ان اسم الجنس له اطلاقات مختلفة : يُطلَق عند النحاة على مفهوم يلتقى مع النكرة ويتصل بها، فيشمل المشتقات النكرة كما يشمل الجوامد .

ويطلق عند الوضعيين على ما يقابل المصدر والمشتق، فلا يدخلان فى مصاديق اسم الجنس عندهم .

واما عند البيانيين فهو يطلق على معنى كلّى غير معتبر فيه وصف من الأوصاف كما عرفت . فيخرج منه المشتقات ويدخل فيه المصدر وعلم الجنس[٣٨٤].

والتبعية ــ ما كان اللفظ المستعارُ شيئا كالفعل او ما يُشتَق منه او الحرف . قال خالد بن صفوان لرجل : رحم الله اباك، فانه يُقْرِى العينَ جمالا والأذن بيانا[٣٨٥]. اى يُرى العين جمالا ويُسمع الأذن بيانا .

وتقول : البطل هو الكابح لنفسه . اى الحاكم والمسلط على نفسه . قال الله تعالى على لسان فرعون : «ولأصلّبنكم فى جُذوع النخل»[٣٨٦] اى على جذوعه .

و وجه التسمية بالتبعية على ما قالوا أن الاستعارة تعتمد التشبيه والتشبيه يقتضى كون المشبه موصوفا بوجه الشبه اوبكونه مشاركا للمشبه به فى وجه الشبه، وانما يصلح للموصوفية الحقايق ــ أى الامور المتقررة الثابتة ــ مثل الجسم والبياض، دون معانى الافعال والصفات المشتقة فانها

٣٨٤ــ راجع عصام الدين، الفريدة الثانية من العقد الاول، وحاشية صاحب الرسالة الوضعية على نفس الرسالة .

٣٨٥ــ البديع ابن المعتز، ٢٣ــ٢٤ .

٣٨٦ــ طه، ٧١ .

متجددة وغير متقررة لدخول الزمان فى مفهوم الافعال وعروضه للصفات، و دون الحروف .

ولا يخفى ان هذا الدليل كما قال التفتازانى لايتناول اسم الزمان والمكان والآلة، لانها صالحة للموصوفية فيجب أن تكون الاستعارة فيها اصلية وليس الامر كذلك، للقطع بانا اذا قلنا: «هذا مقتل فلان» للموضع الذى ضُرِب فيه ضربا شديدا، و «مرقد فلان» لقبره، كان المعنى على تشبيه الضرب بالقتل والموت بالرقاد وكانت الاستعارة واقعة فى المصدر لا فى نفس المكان . وأضاف التفتازانى أنّ الاولى فى تعليل الاستعارة التبعية فى المشتقات ان يقال : «ان المقصود الأهم فى الصفات واسماء الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات لا نفس الذات وهذا ظاهر، فاذا كان المستعار صفة او اسم مكان مثلا ينبغى ان يعتبر التشبيه فيما هو المقصود الا همّ، اذ لو لم يقصد ذلك لوجب ان يذكر اللفظ الدال على نفس الذات»[٣٨٧].

ولما لم تكن معانى الأفعال والصفات المشتقة منها والحروف صالحة للموصوفية قدروا التشبيه والاستعارة فى الاولين للمصدر، وفى الحروف لمتعلق معناها .

والمراد بمتعلق معنى الحروف عند السكاكى ما يفسر به معناها فى الظاهر، كأن يقال : «من» معناها ابتداء الغاية، و «إلى» انتهاء الغاية، و «كى» معناها الغرض. فهذه الاشياء ليست معانى الحروف فى الحقيقة، والاّ كانت الحروف اسماء لإفادتها المعانى المستقلة حينئذ[٣٨٨]. واما عند صاحب التلخيص فمتعلق معانى الحروف عبارة عمّا يجرّ بها، و ذلك مثل كلمة

٣٨٧ـ المطول، ٢٩٩ .

٣٨٨ـ المفتاح، ١٨٠، والمطول، ٢٩٩ .

«جذوع» فى قوله تعالى : «ولأصلبنكم فى جذوع النخل» .

فيقدّر التشبيه والاستعارة في الامثلة المذكورة هكذا :

الف ــ شبهت الإراءة مثلا بالإقراء ــ اى فعل الضيافة ــ بجامع الإفادة فيهما، ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى هذا التشبيه والاستعارة من المصدر الى الفعل، او ان شئت فقل : ثم اشتق من المصدر المستعار ــ اعني المشبه به ــ الفعل المضارع وهو «يقرى» ، و ذكرُ العين ههنا قرينة الاستعارة .

ب ــ وشبه الحكم والتسلط على الشيء بكبحه بجامع القدرة والتفوق فيهما ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى التشبيه والاستعارة من المصدر الى الصفة، او اشتق من المصدر المستعار لفظ «الكابح» فعلى هذا تجرى الاستعارة فى «يقرى» و «الكابح» تبعا للمصدر لا لنفس الفعل والصفة .

ج ــ وشبه الاستعلاء على الشيء بالظرفية فيه بجامع الاقتران بذلك الشيء فيهما، ثم استعير المشبه به للمشبه فسرى ذلك العمل من متعلق معنى الحرف الى نفس الكلمة الدالة على المشبه به اعنى «فى» واستعيرت للمشبه .

هذا عند الجمهور والسكاكى، واما عند صاحب التلخيص فيقال: شبه جذوع النخل المستعلى عليها بما يستقرّ فيه، ثم سرى ذلك التشبيه الى تشبيه تلبس المستعلى بالجذوع بتلبس الظرف بالمظروف، فاستعيرت الكلمة الموضوعة للمشبه به وهى «فى» للمشبه[389].

فالاستعارة فى الحرف تابعة للتشبيه عند صاحب التلخيص، واما عند غيره فهى تابعة لاستعارة اخرى اصلية كما فى الفعل والمشتقات .

٣٨٩ــ راجع حاشية الدسوقى ١٢٢/٤ .

تحقيق معنى الاستعارة التبعية

اعلم ان ما تقدم من تفسير الاستعارة التبعية وتخريجها هو ما ذكره القوم ههنا، ولى فى هذا المجال ملاحظات اقدّمها كما يلى :

ان معانى الافعال والمشتقات والحروف ليست بسيطة بل تتشكل من اجزاء متعددة وعناصر مختلفة تنحل اليها عند التجزئة . فهذه العناصر فى الفعل النسبة والزمان والمعنى المصدرى، وفى المشتقات الذات والوصف . «قال الامام فى المحصول فى باب الاشتقاق : مدلول المشتق مركب، والمشتق منه مفرد»[٣٩٠]. وفى الحروف المطلق مع القيد، كالاستعلاء على الجذوع مثلا .

فاذا جاءت الاستعارة فيها جرت غالبا فى بعض من تلك الاجزاء لا فى جميعها، او بعبارة اخرى جرت فى المعنى التضمنى لا المطابقى، فاطلاق الاستعارة على الفعل والمشتق والحرف الموضوعة لمجموعة تلك العناصر من باب التوسع، او بالتبع لاستعارة جزء من مدلولها .

فمثلا فى قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا»[٣٩١] يراد به ابيض الرأس ... ، فاستعملت كلمة «اشتعل» الدالة على الاشتعال والزمان الماضى والنسبه الى الفاعل فى معنى «ابيضّ» الموضوعة للحدث المخصوص و زمن المضىّ والنسبة الى الفاعل ايضا، واستعيرت تلك الكلمة لذلك المعنى . فترى ان فعل اشتعل لم يخرج تماما عما وضع له لان الزمان والنسبة لم يتغيرا فى الفعلين، فالزمان فيهما هو الماضى والفاعل هو الرأس.

٣٩٠– عروس الافراح ١٠٩/٤ .

٣٩١– مريم، ٢ .

وانما جاء التغيير والتحويل فى المعنى المصدرى فقط، فاطلاق الاستعارة على «اشتعل» بناء على استعارة جزء منه وتسمية الشيء باسم جزئه .

هذا فى استعارة الفعل باعتبار المعنى المصدرى الذى هو جزء من معناه، أما الاستعارة فيه باعتبار الزمان فكقوله تعالى : «ونُفِخ فى الصور»[٣٩٢] فان المراد به ينفخ فى الصور، لكن عبرّ عن المضارع بما يدل على المضى تحقيقا لوقوع الفعل. فانت ترى أن فعل «نفخ» استعمل موضع «ينفخ» واستعير لمعنى المضارع ولم يتغير فى هذا الاستعمال والاستعارة غير الزمان، لان المعنى لمصدرى فى كلا الفعلين هو «النفخ» والمسند اليه فيهما هو «الصور» بلاتفاوت، فجاءت هذه الاستعارة فى الفعل ايضا باعتبار جزء من أجزائه وبالتبع لذلك الجزء .

وأما الاستعارة باعتبار النسبة التى هى جزء مفهوم الفعل فمنعها السيّد فى حواشى المطول، واستدل بأن تلك النسبة مطلقة غير مقيدة بشيء فلا يوجد خصوصية حتى يعتبر التشبيه بملاحظتها . فعنده أن النسبة فى جميع مصاديق الفعل واحدة لاتتغير ولاتتفاوت فلايجرى فيها التشبيه، لانه لايقع بين شيئين متحدين[٣٩٣].

وقيل بجريان الاستعارة فى النسبة وبمنع عدم شهرتها بمايخصها اويجعلها صالحة لطرفى التشبيه، لأن النسبة الى الفاعل الحقيقى المباشر للفعل والقائم به الحدث غير النسبة الى الفاعل المجازى[٣٩٤]. فنسبة الفعل مثلا فى قوله تعالى: «ياهامانُ ابنِ لى صَرْحا»[٣٩٥] الى هامان المـُدبر للأمر والمـُحرّض

٣٩٢– مريم، ١٠٠ .

٣٩٣– المطول، ٣٧٥ .

٣٩٤– راجع الدسوقى ١١٦/٤ .

٣٩٥– المؤمن، ٣٦٠ .

على العمل، غير نسبته الى من يباشر نفس العمل ويقوم به .

واعترض عبدالحكيم عليه وقال : وما قيل انه يمكن ان يعتبر النسبة الى المحرّض كالنسبة الى الفاعل فيقال «ضرب زيد» لكونه محرضا عليه، وكذا نسبة الفعل الى الآلة والظرف، فليس بشيء . لأنه إن اعتبر تشبيه المحرّض بالفاعل فهو استعارة بالكناية فلامجاز فى النسبة، وان لم يُعتبر فهو مجاز عقلى نسب الفعل الى غير ما هُوَ لَه لملابسة بينهما من غير قصد المبالغة فى النسبة فلا استعارة[٣٩٦] .

أقول وما ذكره عبدالحكيم قابل للمناقشة من وجهين : الاول ـ أن اعتبار المكنية فى المحرض لاينافى ان نسبة الضرب اليه لم تقع موقعها، و ان «ضرب» جرت فيه الاستعارة بملاحظة تلك النسبة، ألا ترى ان الفعل ههنا قرينة المكنية وهى دائما استعارة تحقيقة او تخييلية .

الثانى ـ أن انتفاء الاستعارة فى النسبة اذا اعتبرت مجازا عقليا ممنوع، اذ لاتضاد بينهما حتى يمكننا القول بارجاع المجازات العقلية الى الاستعارة التبعية فى النسبة .

والحق أن النسبة فى جميع الافعال ليست سواء بحيث لاترى فيها من تفاوت يبرّر جريان التشبيه والاستعارة فيها، لأن الفعل ـ اضافة على ان نسبته الى الفاعل الحقيقى غير نسبته الى الفاعل المجازى ـ قد يوضع للنسبة الانشائية بقوله تعالى : «فاستَقِمْ كما أمِرْتَ»[٣٩٧] فهى مشتهرة بصفات تصلح لان تشبه بها كالوجوب والإرشاد وغيرهما . وقد يوضع للنسبة الإخبارية وهى مشتهرة بالمطابقة واللاّمطابقة وغيرهما، فيستعار الفعل من أحديهما للأخرى كاستعارة «رحمه الله» للفظ «ارحمه» ، و

٣٩٦ـ السيالكوتى، ٤٩٩ .

٣٩٧ـ هود، ١١٣ .

استعارة «ليتبوأ» في قوله (ص) «مَن كذب عليَّ فليَتبوّأ مقعدَه مِن النار» للنسبة الاستقبالية الخبرية، لان الحديث على معنى يتبوأ مقعدَه ...[٣٩٨].

فالاستعارة التبعية تجرى في النسبة والزمان من أجزاء مدلول الفعل كما تجري في المصدر. ذكر العلامة المحقق عضد الملة والدين في الفوائد الغياثية: ان الفعل يدلّ على النسبة ويستدعى حدثا و زمانا في الاكثر والاستعارة متصورة في كل واحد من الثلاثة.

ففي النسبة: كهزم الامير الجند.

وفي الزّمان: ک «وَنادى أصحابُ الجنّة أصحابَ النار»[٣٩٩] وفي الحدَث: مثل «فبشّرهم بعذابٍ اليم»[٤٠٠].

بقيت ههنا نكتة وهي ان الاستعارة التبعية وان كان يمكن اجرائها في الزمان والنسبة من مدلول الفعل الا انهم لم يصرحوا بها في غير المصدر كما ادعى عبدالحكيم[٤٠١]، او لم تشتهر اشتهارها في المصدر.

ولا فرق بين الفعل والمشتقات في أن الاستعارة فيها ايضا تقع غالبا باعتبار جزء من مدلولها، فمثلا قوله تعالى: «مَنْ بعثَنا مِنْ مرقَدِنا»[٤٠٢] شبه الموت بالرقاد بجامع السكون والإنقطاع عن الحركة والعمل ثم استعير

٣٩٨- عصام الدين، ويمكن حمل أمثال «رحمه الله» على الاستعارة التبعية في المصدر بتأوّل، او المجاز المرسل بعلاقة التضاد الشبيه بالمجاورة، راجع المواهب والدسوقي ١/٤٨٤-٤٨٥.

٣٩٩- الاعراف، ٤٤.

٤٠٠- عصام الدين.

٤٠١- السيالكوتي، ١٨٧.

٤٠٢- يس، ٥٥.

اسم المشبه به للمشبه، فسرى ذلك التشبيه والاستعارة من المصدر الى اسم المكان، وان شئت فقل : ثم اشتق من المصدر المستعار كلمة «مرقد» ، فترى ان الاستعارة فيها جرت تبعا لمفهومها التضمنى وهو الصفة المجرّد من الذات .

وقد يكون التشبيه والاستعارة في المشتقات بحسب الزمان الخارج من مدلولها، و ذلك كإطلاق «الضارب» على من وقع منه الضرب في الماضى لا بعلاقة ما كان عليه فان ذلك مجاز مرسل، بل باعتبار تشبيه حالته بعد الضرب بحالته ضاربا[٤٠٣].

امّا اذا وقعت الاستعارة في المشتقات باعتبار مفهومها المطابقى -اعنى الصفة والذات معا- فهى اصلية لا تبعية . و ذلك كان تقول حينما ترى طفلا يقرأ القرآن ويُحسن الترتيل : «عندنا مُغَرِّد"» تريد شخصا قراءته كالتغريد ونفسه في الصغر والخفّة كالطير . فاعتبر التشبيه بين الطفل والطير كما اعتبر بين حسن القراءة والتغريد، فجاءت الاستعارة المبنية على هذا التشبيه فى كلّ مفهوم المغرّد ولهذا نسميها اصليه لا تبعية .

ويجرى مجرى الفعل والمشتقات في اعتبار الاستعارة بحسب أجزاء المعنى الحروف، فان الموضوع له فيها عند أهل التحقيق عبارة عن المعانى الجزئية . فمثلا ان المعنى الذى وضع له حرف «فى» هو الظرفية الجزئية كظرفية الكوز او الجذوع او غير ذلك، وان المعنى الحقيقى لكلمة «على» الاستعلائات الجزئية مثل الاستعلاء على السطح او على الجذوع وأغصان الأشجار او غيرها . فعلى هذا ان معانى الحروف مركبة من جزئين مطلق مع قيده، والذى يتغير او يقبل التحول هو الجزء الأول اعنى المطلق بدون القيد .

٤٠٣- عروس الأفراح ٤/١١٠ .

ففى قوله تعالى : «لأصلبنّكم فى جذوع النخل» شبه الاستعلاء المطلق بالظرفية المطلقة بجامع الاستقرار والتمكن فيهما ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى ذلك التشبيه الى استعلاء الجذوع وظرفيتها فاستعير اللفظ الدال على الظرفية الخاصة اعنى «فى» للاستعلاء الخاص .

فالاستعارة ههنا فى الحقيقة جرت فى جزء من معنى «فى» وهو الظرفية لأن الجزء الآخر وهو الجذوع فى المشبه والمشبه به واحد لم يتغير، فجاءت الاستعارة فى الحرف تبعا لجزء معناه وهو المقيد او المطلق .

رأى السكاكى فى الاستعارة التبعية

يرى السكاكى أن الأولى والأقرب الى الضبط إرجاع الاستعارة التبعية الى المكنية، وذلك بان يجعل ما يسميه القوم قرينة التبعية كالفاعل أعنى «الضمائر والقلوب» فى قول المتنبى يصف الكلام :

إذا ما صافَحَ الأسماعَ يوما (تبسَّمتِ الضمائرُ والقلوب)

والمفعولِ اعنى «لهذميّات» فى قول القطامى :

(نقُريهم لَهْذميّاتٍ) نَقدُّ بها ما كان خاطَ عليهم كلُّ زرّاد

استعارة بالكناية ويعامل معها نفس المعاملة فى : «واذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها» فعلى هذا تكون نسبة التبسم الى الضمائر والقِرى الى اللهذميات قرينة الاستعارة المكنية[404].

واعترض عليه صاحبُ التلخيص بأن الفعل والمشتقات والحروف فى هذه الصورة اما مستعملة فى معانيها الأصلية أو لا، فعلى الاول يلزمه القول بانفكاك المكنية من التخييلة على عكس ما رأه من الاستلزام بينهما، اذ

404– المفتاح، 181 .

التخييلية عنده مجاز وقسم من أقسام الاستعارة المصرحة فلا معنى لها عند استعمال الكلمات فى معانيها الاصلية .

وعلى الثانى يلزمه الكرّ على ما فرّ منه، فلم يكن ماذهب اليه مُغنيا عما ذكره غيره[٤٠٥].

لقد عرفت من تحقيقنا انه لا استلزام بين المكنية والتخييلية عند السكاكى، وان قرينة المكنية عنده يمكن ان تكون امرا مقدرا وهميّا كالانياب فى قولك أنيابُ المنيّة ...، وكنطقت فى نطقَت الحالُ بكذا، او امرا محققا كالإنبات فى قولك : أنبت الربيعُ البقل[٤٠٦]. لكن لامحيص من الاشكال عليه اللهم الاّ ان يقال انه لايجعل قرينة المكنية استعارة حتى يلزمه القول باستعمال الفعل والمشتقات والحرف فى غير معناها .

التبعية فى المكنية والتمثيلية

اعلم أن ظاهر كلام القوم يشعر بأن تقسيم الاستعارة الى الاصلية والتبعية يرجع الى المصرّحة فى المفرد، بمعنى انه لايجرى هذا التقسيم فى غيرها . لكن يمكن أن يُعتبر ايضا فى المكنية والمركبة، فيُمثّل للتبعية فى المكنية بقولنا : «أراقَ الضاربُ دمَ فلان» ففيه شبه الضرب بالقتل واستعير القتل فى النفس للضرب ثم اشتق من الضرب الذى استعير له القتل صفة الضارب بمعنى القاتل، فطوى ذكر المشبه به وهو القتل و رمز اليه بذكر شىء من لوازمه وهو الإراقة على سبيل الاستعارة المكنية[٤٠٧].

٤٠٥ـ راجع التلخيص مع شروحه ٤/٢١٧ .

٤٠٦ـ المفتاح، ١٨٩ .

٤٠٧ـ الدسوقى ٤/١٠٨ .

وفي المركبة او التمثيلية بقوله تعالى : «اولئك على هدىً من ربهم»[٤٠٨] قال صاحب الكشاف : «ومعنى الاستعلاء في قوله : «على هدى» مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارِهم عليه وتمسكِهم به، شُبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء و ركبه»[٤٠٩] فمعنى هذا الكلام كما قال التفتازاني ان الاستعارة هنا تمثيلية تبعية، اما التبعية فلجريانها اولا في متعلق معنى الحرف ثم في الحرف بتبعيتها، واما التمثيل فلكون كل من طرفي التشبيه حالة منتزعة من عدة امور[٤١٠] .

لقد خطا عصام الدين في هذا المجال خطوة اخرى وادعى ان التمثيل على سبيل الاستعارة كله استعارة تبعية فقال : ولا يذهب عليك انه لا يمكن الحكم على مفهوم الجملة كما لا يصح على مفهوم الفعل والحرف، فلا يصح فيه التشبيه الذي هو مبنى الاستعارة بل لا بد من التشبيه فيما يسري التشبيه منه الى التشبيه في مفهوم ذلك المركب، كما يعتبر التشبيه في مضمون[٤١١] الجملة او في الهيئة المنتزعة منها، فيكون الاستعارة فيها ايضا تبعية، وقد خلى عن الإيماء اليه كلام القوم»[٤١٢].

نوع آخر من الاستعارة التبعية

ذكر صاحب عروس الافراح ان الضمائر واسماء الاشارة لها حكم ما

٤٠٨- البقرة، ٥ .

٤٠٩- الكشاف ٢٤/١ .

٤١٠- راجع الدسوقي ١٤٧/٤ .

٤١١- والفرق بين المضمون والمفهوم في الجملة، ان المضمون هو ←

يكنى بها من المرجع والمشار اليه، فاذا جاءت الاستعارة فيهما جرت فى الضمير واسم الاشارة ايضا بالتبع . فمثلا اذا قلت فى وصف كتبك : لنا جلساءُ لا نملّ حديثَهم، او لنا جلساء لا نملّ حديث هؤلاء كان ضمير «هم» واسم اشارة «هؤلاء» استعارة تبعا لاستعارة المرجع او المشار اليه وهو «جلساء» . ولا يخفى ان التبعية على ما ذكره غير ما مر من تبعية الاستعارة فى كلّ الكلمة لبعض أجزاء مدلوله . ويمكن إجراء الاستعارة بهذا المعنى ايضا فى اسم الاشارة، كما اذا استعملت ما هو موضوع للاشارة الى البعيد فى الاشارة الى القريب . لان التحقيق فى وضع اسماء الاشارة انها موضوعة للاشارات الجزئية اى للمطلق مع المقيد، ففى قوله تعالى: «ذلك الكتابُ لا َريْبَ فيه»[٤١٣] لما استعمل ما وضع للاشارة الى الكتاب البعيد فى الاشارة الى الكتاب القريب لم يتغير غير المقيد لان المشار اليه فى كلتا الصورتين هو الكتاب لا غير .

ثم اضاف صاحب العروس بعد قوله بالتبعية فى الضمائر واسماء الاشارة بذلك المعنى : «او يقال انها لا يتجوز بها فان وضعها ان تعود على ما يراد بها من حقيقة ومجاز، فاذا قلت : رأيت اسدا يرمى فاكرمته، فضمير المفعول حقيقة لعوده على مفسره ، و ذلك وضعه . واذا قلت : يا ايها الاسد الرامى بالنبل، مشيرا الى الانسان فالضمير فى قولك الرامى حقيقة»[٤١٤].

→

المصدر المضاف الى الفاعل والمفعول اوغيرهما، والمفهوم هو النسبة التامة. «رسول» .

٤١٢– عصام الدين، الفريدة السادسة من العقد الاول .

٤١٣– البقره، ٢ .

٤١٤– عروس الافراح ٤/١١١ .

بلاغة الاستعارة

الاستعارة اتساع فى الكلام جاء بالاختيار والاقتدار زيادةً فى إفادة المعنى، فليست عملا اقتضته الضرورةُ فيقع كيفما اتفق، فلهذا لا يعدل الى الاستعارة الا اذا اشتملت على نُكَت وبلاغة توجب حسنَ بيانٍ وفضلَ مزيةٍ وقلةَ مؤونة. فان خلت من هذه الاغراض عدت مسيئة و كانت الحقيقة أولى منها. والاستعارة افضلُ المجاز و أول ابواب البديع، و ليس من حلى الشعر أعجبَ منها، واذا وقعت موقعها و نزلت موضعها تُعدّ من محاسن الكلام[٤١٥].

وأغراض الاستعارة كثيرة فنشير الى طائفة منها مشهورة :

١ــ شرح المعنى وفضل الإبانة، وانك ترى بها المعانى الخفية جلية، كقوله تعالى : «وانه فى أمّ الكتاب لدينا»[٤١٦] وحقيقته أصل الكتاب ، فاستعير كلمة الأمّ للأصل لأنها أجمع وأظهر فيما يرد اليه مما يُنشأ عنه[٤١٧].

وقوله ايضا: «حتّى يَتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ من الفجرِ[٤١٨]» والمراد حتى يتبين بياض الصبح من سواد الليل فعبر عنهما بالخيط الابيض والاسود[٤١٩]، ولا يخفى ما فى هذه الاستعارة من الايضاح وحسن البيان، و ذلك انه يجب ان يكتفى فى تبين بياض الصبح من سواد

٤١٥ــ العمده ١/٢٦٨ .

٤١٦ــ الزخرف، ٤ .

٤١٧ــ النكت، ٨١ .

٤١٨ــ البقره، ١٧٨ .

٤١٩ــ تلخيص البيان، ١٣ .

الليل باقلّ ما يعرف به ذلك وانه اشتهر الخيط بين الناس بالدقة والرقة، فكان أحسنَ كلمة تُعبر عن المراد ههنا . وجدير بالذكـــر ان الزمخشرى يرى ان عبارة «من الفجر» أخرج الآية من باب الاستعارة[٤٢٠].

وقال النبى (ص) لما دخل على علىّ وفاطمة (ع) و رآهما فى البيت فردّ الباب : جدَع الحلالُ أنفَ الغيرة[٤٢١].

٢ــ افادة المعنى الكثير بالقليل من اللفظ، كقوله تعالى : «مَنْ قتلَ نفسا بغير نفس او فسادٍ فى الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميـــعا، ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا»[٤٢٢] .

قال الشريف الرضى : و «أحيا» ههنا استعارة لان احياء النفس بعـــد موتها لا يفعله الا الله تعالى، وانما المراد من استبقاها وقد استحقت القتـــل او استنقذها وقداشرفت على الموت»[٤٢٣] فاستعمل «احياها» مكان احدى الجملتين، وافاد مع قلة حروفه معناهما الكثير .

وكقوله ايضا : «فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التـــى فى الصدور»[٤٢٤] وحقيقته ولكن تذهل القلوب عن التفكير فى الأدّلة التـــى تؤدّى الى العلم مع سلامة الجسم وصحة الرؤية و زوال الموانع الظاهرة ، والاستعارة ههنا أبلغ لإفادتها ذلك المعنى بالقليل من اللفظ، وفيها ايضـــا اشارة الى ان القلوب بمنزلة العيون لان بالقلب يوصل الى المعلومات كمـــا أن بالعين يوصل الى المرئيات[٤٢٥].

٤٢٠ــ الكشاف ١/١١٦ .

٤٢١ــ الصناعتين، ٢٧٧ .

٤٢٢ــ المائدة، ٤١ .

٤٢٣ــ تلخيص البيان، ٣٠ .

٤٢٤ــ الحج، ٤٧ .

٤٢٥ــ تلخيص البيان، ١٥٠ .

وخير مورد لافادة المعنى الكثير بالقليل من اللفظ في الاستعارة الامثال، فانك ترى فيها أوجزَ عبارة يؤدي مقاصد كثيرة ومعاني وفيرة، بحيث لو لم يكن هناك المثلُ لاستغرقت تلك المقاصد جملا وعبارات طويلة .

والاستعارة تفيد المعنى الكثير بالقليل من اللفظ من وجه آخر، وهو أن كل استعارة ترجع عند التحليل الى التشبيه الكامل الأركان وتفيد معناه، غير انها أوجز وأخصر للاكتفاء فيها بذكر احد طرفي التشبيه فقط .

٣ـ التصوير والتجسيم، و ذلك لانها تبرز المعقولات في صورة المحسوسات فتجعلها ملموسا ومشاهداً كما تجعل الاوصاف الجثمانية روحانية وتلونها بلون المعقولات والمعنويات . كقوله تعالى : «فنبذوه وراءَ ظهورهم»[٤٢٦] بيّن حال الذين غفلوا عن ذكر الكتاب المنزل عليهم وتشاغلوا عن فهمه، في صورة من أخذ شيئا وألقاه خلفَ ظهرِه بحيث لا يراه فيذكره ولا يلتفت اليه فينظره[٤٢٧].

وكقوله تعالى ايضا : «ولا تجسّسوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضا ، أيحب أحدُكم أن يأكلَ لحمَ اخيه ميتا فكرهتموه»[٤٢٨] اذا اعتبر استعارة[٤٢٩]، لا كناية، اوتشبيها ضمنيا .

٤ـ التشخيص، و ذلك باعطاء الحركة والنطق والحياة للجماد ولما لا يكون أهلا لتلك المعطيات . كقوله تعالى : «يومَ نقول لجهنم هل امتلاتِ وتقول هل مِن مزيد»[٤٣٠] وقولِه «ثم استوَى الى السماء وهي

٤٢٦ـ آل عمران، ١٨٧ .

٤٢٧ـ تلخيص البيان، ٢٣ .

٤٢٨ـ الحجرات، ١٢ .

٤٢٩ـ تلخيص البيان، ٢٢٧ .

٤٣٠ـ ق، ٣ .

دخان" فقال لها وللأرض ائتيا طائعين»[٤٣١] والاستعارة فى هذه الآيات ترجع الى المكنية[٤٣٢].

لقد سمّى البلاغيون الاستعارة المكنية «التشخيص» حيث تمثل فيه المعانى والجمادات الى أشخاص تكتسب صفات الكائنات الحية أيّاً كانت، وتقوم مقامها فى صدور أفعالها . وهم يعدون هذا النوع من الاستعارة من أجمل الصور البيانية لما فيه من التشخيص والتجسيد وبث الحياة والحركة فى الجمادات وتصوير المعنويات فى صورة حية مملوسة[٤٣٣]. و كفاك شاهدا على منزلة المكنية وحظّها الوفير من البلاغة قول الشيخ حيث يقول : «الاستعارة بالكناية أقوى من التصريحية فى اقتضائها من الفصاحة والمحاسن التى تظهر به والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق واعجب»[٤٣٤].

٥ــ المبالغة والتأكيد، و ذلك كقوله تعالى : «إنّا لما طغى الماءُ حملناكم فى الجارية»[٤٣٥] والمراد لما علا الماء قاهرا، فاستعمل «طغى» مكان «علا» للمبالغة فى عظم الحال[٤٣٦].

وكقوله ايضا : «فاصدَعْ بما تُؤمَر»[٤٣٧] وحقيقته فاعمل بما تؤمر، لكن الاستعارة ابلغ لما فى الصدع الذى يكون فى الزجاج ونحوه من افادة معنى المبالغة فيما امر به، حتى يؤثر فى النفوس من تأثير الصدع فى الزجاج

٤٣١ــ السجدة، ١١ .

٤٣٢ــ راجع نقد النثر، ٦٥ــ٦٦ .

٤٣٣ــ علم المعانى، ١٧٠ .

٤٣٤ــ دلائل الاعجاز، ٣٥٥ .

٤٣٥ــ الحاقة، ١١ .

٤٣٦ــ النكت، ٨٧ .

٤٣٧ــ الحجر، ٩٤ .

و امثاله[٤٣٨].

وقال امروءالقيس :

و قد أغتدي والطيرُ في وُكناتها بمُنجَرد قيدِ الأوابدِ هيكلِ

وحقيقته مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلغ لان القيد اعلى مراتب المنع عن الانطلاق والتخلص وأعرفُها عند الناس، وانك تشاهده على تلك الصفة والحالة فلا تشك فيه[٤٣٩]. والاستعارة تفيد المبالغة والتاكيد من وجه آخر، و ذلك بادّعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وتناسي التشبيه بينهما، حتى كان المشبه صار فردا من افراد المشبه به .

٦ـ تحسين المعرض الذي يبرز المعنى والمطلب فيه، و ذلك كقول النبي (ص) لحادي مطيه : «يا أبخشة، رِفْقاً بالقَوارير» فانت ترى هذه العبارة الموجزة كيف يتجلى فيها ضعفُ المرأة وعدمُ صلابتها بدون ان يجرح عزتها وينال كرامتها، و ذلك بسبب شرف اللفظ وعفته[٤٤٠].

٧ـ ابراز البيان ابدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا، فإنّك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت في الاستعارة فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع ولكن لها في كل من تلك المواضع شأن مفرد ومزية خاصة[٤٤١]. و ذلك كقول ابي الفضل ابن العميد :

قامَتْ تُظلّلُني ومِنْ عَجَبٍ شمسٌ تُظلّلُني مِنَ الشمسِ

فهذه الاغراض والفوائد يمكن اجتماعها كما يمكن افتراقها، ولكن

٤٣٨ـ بيان اعجاز القرآن، ٤٤ .

٤٣٩ـ الصناعتين، ٢٧١ .

٤٤٠ـ علم البيان، ١٩٧ .

٤٤١ـ اسرار البلاغة، ٣٩، ليراجع في الاغراض المذكورة «كتاب الصناعتين» ٢٦٨ .

منها مالا يجوز خلو الاستعارة ابدا منه ولا يصح الافتراق فيه، كالمبالغة والايجاز المعتبرين بالنسبة الى التشبيه وشرح المعنى، ولما كانت هذه الأغراض الثلاثة الآتية الصق بالاستعارة وجودا وعدما اقتصر بعضهم عليها. قال ابن ابى الاصبع : «ان مطلوبات الاستعارة واغراضها ثلاثة : المبالغة فى التشبيه، والظهور، والإيجاز»[٤٤٢].

الاستعارة فى ميزان النقد

لما كانت الاستعارة مبنيّة على التشبيه كان حسنها وإصابتها فى المرحلة الاولى برعاية جهات حسن التشبيه، مثل اشتراك الطرفين فى وجه الشبه و وفاء التشبيه بالأغراض المسوق لها وعدم ابتذال وجه الشبه . فكلما كان الشبه بين الطرفين قويا والتناسب بينهما جَليا، كانت الاستعارة أولى بالقبول و أوقع فى النفس . ولهذا قال القاضى الجرجانى (ـ ٣٦٦ هـ) : «وملاكُها تقريبُ الشبه ومناسبةُ المستعار له للمستعار منه وامتزاجُ اللفظ بالمعنى، حتى لا يُوجدَ بينهما منافرةٌ ولا يتبيّن فى احدهما إعراضٌ عن الأخر»[٤٤٣] فاذا استوفت الاستعارةُ هذه الشروطَ وَصَفُوها بِمِثْلِ «قريبة مختارة وحسنة مصيبة»، وان خلت منها عبّروا عنها بمِثْل «بعيدة مطروحة وردئية قبيحة»[٤٤٤].

فمن الاستعارة المحمودة قول أرطاة بن سُهيّة :

٤٤٢ـ بديع القرآن، ٢٠ .

٤٤٣ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه، ٤١ .

٤٤٤ـ سرّ الفصاحة، ١٤٠، الصناعتين ٣٠٠ـ٣٠٢، العمدة ١/ ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤، الوساطة، ٣٩ .

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء : إنّني هُريقَ شَبابي واستَشَنَّ أديمي

فالمراد ذهب شبابي، ولكن استعمل مكانه «هُريقَ شَبابي» لما في الشباب من الرّونق والطراوة المقرّبة له من الماء، واستعمل أيضا «استَشَنّ أديمي» مكان يبس أديمي، لأن الشن هو القربة اليابسة، فكان اديمه صار شَنّاً لما هريق ماء شبابه، فصحت له هاتان الاستعارتان من كل وجه[٤٤٥].

ومنها قولُ ابي نصر بن نباته :

حتّى اذا بَهَرَ الأباطحُ والرُّبا نَظَرَتْ اليكَ بأعيُنِ النُّوّارِ

فنَظرُ أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها، لأن النوار يشبه العيون، واذا كان مقابلا لمن يجتاز فيه ويمرّ به كان كأنه ينظر اليه . اما اذا تأملت في استعارة «عين الدّين» وعيون الشرك في قول ابي التمام :

قرّت «بقرّانَ» عينُ الدّين وانْتَشَرتْ

بالأ«شترينِ» عيونُ الشِرْكِ فاصْطَلما

فرأيتها من اقبح الاستعارات، لانك لاتجد وَجْهاً للشاعر في جعله للدين والشرك عيونا . ومن نظر في هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة ، لان النوّار والشرك لاعيون لهما على الحقيقة، غير انّ الاستعارة حسنت في احدهما وقبحت في الآخر، و ذلك لان النوار يشبه العيون، والدّين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا ما يقاربها[٤٤٦].

ومن الاستعارة المذمومة قول أبي نواس

بُحَّ صوتُ المالِ ممّا مِنْكَ يشكو و يَصيحُ

قال القيرواني : «فايّ شيء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف

٤٤٥ــ العمدة ١/٢٧٤ .

٤٤٦ــ سرّ الفصاحة، ١٤١ .

حتى بُحَّ من الشكوى والصياح مع ما انّ له صوتا حين يوزن او يوضع؟ ولم يرده ابو نواس فيما اقدّر، لان معناه لايتركب على لفظه الا بعيدا»[٤٤٧].

ومنها ايضا قول خويلد الهذلي او غيره :

تُخاصم قوما لا تلقّى جوابَهم وقد اخذتْ من أنف احيتك اليدُ

اى تقبض على مقدّم لحيتك كما يفعل النادم اوالمهموم، وأنف كلّ شيء : مقدّمه،وانوف القوم : سادتهم . والأنف في هذاالبيت قبيح لم يقع موقعه[٤٤٨]، لانه لا وجه لان يجعل الانف لعضو آخر من الانسان او لما يتعلق به كما للحية مثلا . وكفاك شاهدا هذه النماذج من الامثلة للاستعارة الحمودة والمذمومة .

واما حسن الاستعارة في المرحلة الثانية، فهو انه يجب ان لايُلمّ لفظ ما اشتمل على الاستعارة بشيء من التشبيه ولا يُشمّ منه رائحةُ التشبيه، لان الالمام والإشمام يبطلان الغرض من الاستعارة «أعنى دخول المشبه في جنس المشبه به والحاقة به، لما في التشبيه من الدلالة على كون المشبه به أقوى في وجه الشبه»[٤٤٩] ولهذا لم يجعل الزمخشريّ قوله تعالى: «حتّى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ مِنَ الخيطِ الأسودِ مِنَ الفجرِ »[٤٥٠] من باب الاستعارة، لان عبارة «من الفجر تنبىء عن التشبيه»[٤٥١].

ويمكن أن يخطرَ على البال ههنا أن الاستعارة «المجردة» لا تدخل في المحمودة منها، لضعف الادعاء فيها وانتفاء التاكيد على الاتحاد بين المشبه

٤٤٧ـ العمدة، ١/ ٢٧٠ .
٤٤٨ـ الصناعتين، ٣٠١ .
٤٤٩ـ المطول، ٣٢٥ .
٤٥٠ـ البقرة، ١٨٧ .
٤٥١ـ الكشاف ١/ ١١٦ .

والمشبه به، نعم، ان الادعاء او التاكيد على الاتحاد ضعيف فى «المجرّدة» بالنسبة الى «المرشحة» التى هى من أحسن انواع الاستعارة، وأما ضعفه مطلقا فممنوع[٤٥٢].

فان قلت : اذا كان من حسن الاستعارة رعايةُ جهات حسن التشبيه التى من جملتها ان يكون وجه الشبه بعيدا غير مبتذل، فقربه وجلاؤه ينافى ذلك . قلنا : الجلاء والخفاء مما يقبل الشدة والضعف، فيجب ان يكون من الجلاء بحيث لا يصير الغازا ومن الغرابة والخفاء بحيث لا يصير مبتذلا[٤٥٣].

اعلم انه اذا خفى وجه الشبه بين الطرفين لم تحسن الاستعارة فيهما و يتعين التشبيه، و ذلك كقول النبى (ص) «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لاتَجِدُ فيها راحِلةً» فلايحسن فيه التحويل الى الاستعارة وأنْ نقولَ : رايتُ إبلا مائةً ... ، لخفاء وجه الشبه فان المعروف من الابل غاية الصبر اوقلة الفهم مع عظم الجثة، لاعزة الكمال مع كثرة افراد الجنس .

وكقوله ايضا : «مثل المؤمن كمثل النخلة» او «كمثل الخامة»[٤٥٤] فلو قلت فيه رأيت نخلة او خامة، كنت كالمُلْغِزِ التارك لما يُفْهَم .

واذا قوى وجه الشبه بين الطرفين حتى اتحدا كالعلم والنور والشبهة والظلمة، لم يحسن التشبيه و تعينت الاستعارة[٤٥٥] .

ومِنْ حسن الاستعارة ايضا عند بعضهم ان تكون مستقلة غير مبنية على استعارة اخرى أو على مقدمة او عبارة سائرة عند الناس، فلهذا عاب الخفاجى قول امرىء القيس :

٤٥٢ــ المطول، ٣٢٥ .

٤٥٣ــ المختصر، ٤/٢٢٨ .

٤٥٤ــ الغضّة من النبات .

٤٥٥ــ ليراجع التلخيص مع شروحه ٤/٢٢٨ــ٢٢٩ ونهاية الأرب ٧/٥٢.

فقلتُ لــه لمّا تَمطّى بصُلْبِـهِ وأرْدَفَ أعجازاًوناءَ بِـكَلْكَلِ

و وضعه فى حدّالوسط وعلل بان هذهالاستعارة مبنية على أخرى ، بمعنى انه لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسمالصلب وجعله متمطيا من اجل امتداده، و ذكرالكلكل من اجل نهوضه، فكل هذا انما يحســن بعضه لاجل بعض[٤٥٦].

والمنزلةُ التى تبلغالاستعارة عندها غايةالشرف والحسن عندالشيخ هى أن يكون مأخذالاستعارةالصورةالعقليةالاعتبارية، وذلك كالاستعارة النور للبيان والحجةالكاشفة عنالحق ... فى مثل قولهتعالى : «واتّبعُوا النورَ الذى ُانزِلَ معه»[٤٥٧] فالاشتراك بينالنور والحجة لايرجع الــى عمومالجنس، مثل ما بين طيرانالطائر وجرىالفرس فــى قولــه (ص) : «كلما سَمِعَ هَيْعَةً طارَ اليها» ولايرجع ايضا الىالاشتراك فىطبيعة معلومة تكون فىالحيوان، مثل ما بينالاسد والرّجلالشجاع، بلالشبــه صورة عقلية تحصل عليها من انالقلب اذا وردت عليهالحجة صار فى حالة شبيهة بحالالبصر اذا صادفالنور وُوجِهَتْ طلائعُه نحوه[٤٥٨].

الفصلالـرّابع

فىالكناية والتعريض

إن طبيعةالبيان والتعبير هىالكشف عما يخطر بالبال ويُركّز فــى الذهن ويُستمَدّ منالإحساس والعاطفة، والإبانةُ عمــا يعترىالإنسانَ

٤٥٦- سرالفصاحة، ١٣٩-١٤٠ .

٤٥٧- الاعراف، ١٥٧ .

٤٥٨- أسرارالبلاغة ٧٣-٧٤ .

من الحاجات النفسية والعقلية، والنقل لما يُجرّ به الشخص او يتلقاه فى حياته اليومية . وليس معنى هذا ان اللون الوحيد للتعبير دائما هو التصريح بالمراد وابرازه فى المعرض المكشوف، وصوغه فى قالب هو أقرب نسباً له وأمسّ رحما . فإنّ هناك «ما ينبغى ستره او ما يُحمَد أنْ يُصانَ عنه السمعُ واللسانُ ، او ما يحسن الابهام فى التعبير عنه»[٤٥٩] او ان الإبهام يزيد فى قدره وشرفه بحيث ترى التسترّ والإبهام هالةً من القداسة تعطى المراد أبعادا مختلفة وتُبرزه فى صورة رائعة فتقع فى النفس موقع الحسن والقبول، و ذلك لانه «كان من المركوز فى الطباع والراسخ فى غرائز العقول انه متى اريد الدلالة على معنى فترِك ان يصرّح به ويذكرَ باللفظ هو له فى اللغة، وعمد الى معنى آخر فاشير به اليه وجُعِل دليلا عليه، كان للكلام بذلك حسنٌ ومزيّة لايكونان اذا لم يصنع ذلك وذُكِر بلفظه صريحا»[٤٦٠].

فهذه الموارد تستدعى لونا آخر من التعبير غير التصريح، حتى يتأتى للانسان اذا استخدمه ان يمرّ باللغو مرّاً كراماً، ويَجِدَ فى المعاريض لمندوحةً عن الكذب ويرمىَ الغرض بلا رمية، ويَرى الأزهارَ من غير أن يذبلَها بالمس واللمس، ولاشك فى أن الكناية والتعريض يُعدّان من صميم هذا اللّون، فيَحمِلان كثيرا من النُكَت واللطائف اللائقة بهذه المجالات، وينتجان ما لم ينتج فى التصريح بالمراد .

٤٥٩ــ الاصول الفنية للادب، ١٨٢ .

٤٦٠ــ دلائل الاعجاز، ٣٤١ .

آفاق الكناية

الكناية فى اللغة :

هى ان تتكلم بشىء وتريد غيره، ويقال كنيت عن الأمر وكنوت عنه، اذا وَرَّيْتَ عنه بغيره . قال ابوعبيده : «كنيتُ» و «كنوتُ» لغتان فيها، انشد ابوزياد الكلابى :

وانّى لأكنو عن «قَذورَ»[٤٦١] بغيرها
وأعربُ أحياناً بها، فأصارحُ

وانشد الآخر[٤٦٢]:

وقد أرسلت فى السرِّ أنْ قد فضحتَنى،
وقد بُحْتَ باسمى فى النسيبِ وماتكنى[٤٦٣]

الكناية فى الاصطلاح :

لقد عبَرت الكنايةُ فى الاصطلاح كغيرها بالأجواء المختلفة، وجاز بالسهول والأودية المتنوعة، فثقلت حمولتها حينا وحينا خفّت، وضاقت دائرة ما عُنى بها مرّة واخرى اتسعت، وترى انها فى بعض هذه الأطوار تتناول أقساما تحتاج الى نوع من التكهن عند ارجاعها الى اصل واحد .

٤٦١ــ «قذور» اسم امرأة .

٤٦٢ــ والبيت لعمربن ابى ربيعة، و رواية الديوان : «ولم تكن»، ص ٣٩٨ .

٤٦٣ــ لسان العرب، مادة «كنى» .

واليك بعضا من هذه الاطوار :

الف ــ استعمل الفراء (ف ٢٠٧ هـ) في مواضع من كتابه ــ معاني القرآن ــ لغة الكناية ويعني منها ترك التصريح بالمعنى، إما لانه شيء كان الاولى التعبير عنه بما لايكون صريحا، مثل قوله تعالى : «ولكِنْ لا تواعدوهُنَّ سرّا»[٤٦٤] وقوله ايضا: «اوجاء احدٌ منكم مِنَ الغائِط»[٤٦٥] فكلمة السرّا والغائط كناية عما لايكون ذكره صريحا مطبوعا .

او لأن في ترك التصريح بالمراد غرضاً لايتاتى في التصريح به، وذلك مثل التعبير بالضمير الغائب عن الأشياء، كقوله تعالى : «وان جَنَحوا للسلم فاجنَحْ لها»[٤٦٦]. قال الفراء : «ان شئت جعلت «لها» كناية عن السلم، لانها مؤنثة»[٤٦٧].

ب ــ جاءت كلمة الكناية في «مجاز القرآن» لابي عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ف ٢١٠ هـ) وأراد منها نفس ما اراده الفراء، فقال في قوله تعالى : «يسألونكَ عن الشهر الحرام قتالٍ فيه»[٤٦٨]: «فيه» كناية للشهر الحرام . وفي قوله : «اوجاء احد منكم ...» : كناية عن حاجة ذي البطن[٤٦٩].

ج ــ لقد اورد ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) الكناية في مبحث المجاز واسلوب الكلام، وأراد منها ترك التصريح بالمراد لأغراضٍ كقصد التعظيم ، او

٤٦٤ــ البقرة، ٢٣٥ .

٤٦٥ــ النساء، ٤٢ .

٤٦٦ــ الانفال، ٦٢ .

٤٦٧ــ معاني القرآن، ٢٤٣، ١٥٣، ٣١٦ .

٤٦٨ــ البقرة، ٢١٧ .

٤٦٩ــ مجاز القرآن، ٧٣، ١٢٨ .

الإيجاز، اوالتعبير بما يكون ألطف واحسن . فعدّ من انواع الكناية ما تُكنّى به عن اسم الرّجل تعظيما له في المخاطبة بالكنية، كابى طالب، و ابى ذرّ وابى هريرة .

وما تترك التصريح فيه بالمراد زيادةً في الدلالة وقصداً للايجاز ، كقوله تعالى : «يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا»[٤٧٠] فكان «فلان» كناية عن اشخاص لو ذُكِرَت اسماؤهم لطال الكلام ولم يدخل فيه من تأخّر بعد نزول القرآن من هذا الصنف .

وما تُعبِّر به ويكون أحسن وألطف من الكشف والتصريح، كقوله تعالى : «إنّ هذا اخى له تسع وتسعون نعجةً ولى نعجةٌ واحدة»[٤٧١] فورّى عن النساء بذكر النعاج . والكناية عند ابن قتيبة تتناول التعريض والتورية ايضا[٤٧٢].

د ـ تعرّض المبرّد (٢٨٥ هـ) في كتابه «الكامل» للكناية وقسّمها الى ضروب مختلفة و ذكر لها امثلة متعددة، فهو وان لم يفسر الكناية لكنه يظهر من تلك الامثلة والأقسام أنّ الكناية عنده عبارة عن ذكر الشيء بغير لفظه الصريح قصداً الى التعمية وإخفاء الشيء، اوتحرزاً عن استعمال عبارةٍ وضيعةٍ، او ارادةً للتفخيم والتعظيم بترك التصريح باسم الشيء .

وأحسن انواع الكناية عنده الرغبةُ عن اللفظ الخسيس المُفْحِش الى ما يدل على معناه من غيره، قال الله ـ جلّ وعزّ ـ في المسيح بن مريم و امه : «كانا يأكلانِ الطّعامَ»[٤٧٣].

٤٧٠ـ الفرقان، ٢٨ .

٤٧١ـ ص، ٢٣ .

٤٧٢ـ ليرجع تاويل مشكل القرآن، ١٩٩ـ٢١٢ .

٤٧٣ـ المائدة، ٧٨ . ليرجع الكامل، ٢/٦٧٤ـ٦٧٧ .

هـ ـ لقد ذكر ابن المعتز (٢٩٦ هـ) في جملة محاسن الكلام الكنايةَ والتعريض ولم يفسرهما على عادته في الاكتفاء بالمثال، ولكن يظهر من كلامه والامثلة التي اوردهما أنهما مترادفان وحاصلان بترك التصريح باللفظ الدّال على المعنى المراد والاتيان بعبارة أخرى تؤدي المراد من بعيد او قريب.

فمن الامثلة التي ذكره في هذا المقام انه قال: «كان عروة بن الزبير اذا اسرع اليه انسان بسوء لم يجبه، ويقول: إني لأتركك َرفْعا لنفسي عنك. فجرى بينه وبين علي بن عبدالله بن عبّاس كلام" فأسرع اليه عروةُ بسوءٍ، فقال: اني اتركك لما تتركُ الناسَ له: فاشتدَّ ذلكَ على عروة[٤٧٤].

و ـ وقال العسكري (٣٩٥ هـ): «وهو أن يُكنى عن الشيء ويُعرّض به ولا يصرح، على حسب ما عَمِلوا باللّحن والتورية من الشيء»[٤٧٥]. والظاهر من كلامه انه لا يفرّق بين الكناية والتعريض.

ز ـ لقد تصفحت كتاب تلخيص البيان للشريف الرّضي (ف ٤٠٦ هـ) وتتبعتُ لغةَ الكناية واستعمالَها والمرادَ منها عنده، فوجدت ان الكلمة وردت في مواضع متعددة واريد بها الاستعارة، وبعبارة اخرى أن الكناية في هذا الكتاب جاءت مرادفة للاستعارة. فمثلا قال في تفسير قوله تعالى: «إنّ هذا اخي له تسع" وتسعون نعجةً ولي نعجة" واحدة" ... : «ان هذا الكلام داخل في حيّز الاستعارة، لان النعاج ههنا كناية عن النساء»[٤٧٦].

ح ـ وجعل صاحب سرّ الفصاحة (ف ٤٦٦هـ) الكناية من باب الإرداف

٤٧٤ـ البديع، ١١٥.

٤٧٥ـ الصناعتين، ٣٦٨.

٤٧٦ـ تلخيص البيان، ٢٠٤.

والتتبع الذى هو ترك التصريح باللفظ الخاص بالمعنى المراد، وارادته بلفظ تابع وردف له فيه من المبالغة والشرف والحسن[٤٧٧].

ط ــ اما الشيخ عبدالقاهر (٤٧٤ هـ) فهو ذكرها فى دلائل الاعجاز و عدّها قسما هامّاً من اللفظ الذى يُطلَقُ ويُرادُ به غير ظاهره. والكناية عنده «أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع فى اللغة، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيومىء به اليه ويجعله دليلا عليه» و ذكر فى امثلتها قولهم: «هو طويل النجاد» و قال: «أفلا ترى ان القامة اذا طالت طال النجاد»[٤٧٨].

ى ــ وجاء ابن الرشيق (ف ٤٥٦ هـ) وتعرض للكناية، فتارة يعدّها من المجاز[٤٧٩]، وتارة من انواع الاشارة التى فسرها بقوله: «وهى فى كلّ نوع من الكلام لمحة" دالّة، واختصار وتلويح يُعرَف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه»[٤٨٠].

س ــ وفرّق اسامة بن منقذ (ف ٥٢٨ ؟) بين الكناية والاشارة، فعنده ان الاشارة ما هو الى كلّ شىء حسن، كقوله عزوجل «فيهن قاصِرات الطَرْف»[٤٨١] اشارة الى عفافهن، والكناية ما هو عن كلّ شىء قبيح، كقوله سبحانه: «كانا يأكلان الطعام» كناية عن قضاء الحاجة. فعدّ امثال جبان الكلب، وطويل النجاد من الإشارة[٤٨٢].

٤٧٧ــ سر الفصاحة، ٢٧٠ــ٢٧٢.

٤٧٨ــ دلائل الاعجاز، ٥٢ــ٥٥.

٤٧٩ــ العمدة ١/٢٦٨.

٤٨٠ــ المصدر نفسه ١/٣٠٢، ٣٠٥.

٤٨١ــ الرحمن، ٥٦.

٤٨٢ــ البديع، ٩٩.

ع ـ وقال الزمخشري : (ف ٥٣٨ هـ) الكناية ان تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك : طويل النجاد والحمائل، لطول القامة، وكثير الرماد، للمِضْياف»[٤٨٣].

ف ـ و ذكر ابن ابي الاصبع (ف ٦٥٤ هـ) الكناية في كتابه وفسرها من ناحية الغرض والفائدة المترتبة عليها، فالكناية عنده التعبير باللفظ الحسن عن المعنى القبيح والسخيف لقصد نزاهة الكلام عن العيب، وقد تأتي للتعبير عن الصعب بالسهل، اوالبسط بالايجاز، او تأتي للتعمية والالغاز، او للستر والصيانة[٤٨٤].

فترى الكناية عندهم وفي هذه الأطوار معروفة ومعهودة، و استعملت في كلامهم وتكررت وعَبَّرَت من المعاني المختلفة وتلوّنت بها، لكنها لم تصل الى المرحلة التي وصلها عند الآخرين . كابن الاثير (ف ٦٣٧) والسكاكي (ف ٦٢٦) فإن الكناية عندهما ادقّ حدوداً وأبينُ آفاقا .

الكناية وأقسامها عند ابن الاثير :

الكناية عنده «كلّ لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»[٤٨٥]. و ذلك كقوله تعالى : «أيُحِبّ احدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً»[٤٨٦] فانّه كنى عن

٤٨٣ـ الكشاف ١/١٤٣ .

٤٨٤ـ بديع القرآن، ٥٣ .

٤٨٥ـ المثل السائر ٢/١٩٤ .

٤٨٦ـ الحجرات، ١٢ .

الغـيبة بأكل الانسان لحم انسان آخر، لان الغيبة ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم كما ان الاكل فى الحقيقة تمزيق المأكول، فالوصف الجامع بين المعنى الحقيقى والمجازى هو التمزيق غير انه حسى فى الاكل ومعنوى فى الغيبة .

وتنقسم الكناية عند ابن الاثير من حيث العلاقة بين المعنى الكنائى والحقيقى الى أربعة أقسام :

الاول ــ التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية، و ذلك كأن تريد الاشارة الى معنى فتضعَ الفاظا تدل على معنى آخر، وتكون تلك الالفاظ و ذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الاشارة اليه . كقولنا : فلان" نقىُّ الثوب، اى منزّه . اوكمارأيت فى «أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ ..»

الثانى ــ الرّدف، وهو ان تريد معنى وتترك الالفاظ الموضوعة له وتاتى بما هو كالدليل والمرادف لذلك المعنى المقصود . مثل فلان" طويلُ النّجاد، تريد به طول القامة . فطول النّجادِ دليل على طول القامة فى الاكثر، وكأنه يرادفه . ومنه قولُه تعالى : «ليس كمثلِه شىءٌ، وهو السميعُ البصيرُ»[٤٨٧] و قولك : مثلُك لا يبخلُ، لان النفى عن مثل الشىء نفى عن ذلك الشىء .

الثالث ــ المجاورة، وهى أن تريد معنى وتترك لفظه الدال عليه بالوضع ذاكرا عبارة تدل على معنى مجاور لما تريده، فتكتفى بذكرها و دلالتها الكنائية . و ذلك كقول عنترة بن شدّاد العبسى :

وشككتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَه   ليسَ الكريمُ علَى القَنا بمُحَرَّمِ

كنى عن نفس الشخص بالثياب، لانه وصف المشكوك بالكرم ولا

٤٨٧ــ الشورى، ١١ .

توصف الثياب به، فثبت انه اراد ما تشتمل عليه الثياب .

الرّابع ــ ما ليس بالتمثيل والرّدف والمجاورة، كقوله تعالى : «أوَ من يُنشَّأُ في الحِلْيةِ وهو في الخِصام غيرُ مُبينٍ»[٤٨٨] فكنى عن النساء . بالاشتغال والعلاقة بالتزين وعدم الإبانة في الحجة عند المخاصمة.

وكقول ابى نواس :

تقولُ التى مِنْ بيتها خَفَّ محملى :

عزيزٌ علينا أنْ نراكَ تَسيرُ

فكنى عن ذكر امرأته بقوله : «التى من بيتها خفّ محملى» ولا يخفى حسن هذه الكناية .

فهذه الاقسام هى ما ذكره ابن الاثير فى كتابه «الجامع الكبير»[٤٩٨] و لكن علق عليها ملاحظات فى كتابه الآخر «المثل السائر»[٤٩٠] ومن اراد الاطلاع عليها فليرجع اليه .

الكناية واقسامها عند السكاكى :

اما السكاكى فهو فسر الكناية بـ «ترك التصريح بذكر الشيء الى ما يلزمه، لينتقل من المذكور الى المتروك»[٤٩١] وتمتاز الكناية عنده من المجاز بوجهين : احدهما انّ مبنى الكناية على الانتقال من اللازم الى الملزوم و مبنى المجاز على العكس . الثانى انّ الكناية لاتنافى ارادة الحقيقة بلفظها،

٤٨٨ــ الزخرف، ١٨ .
٤٨٩ــ الجامع الكبير، ١٥٧، ١٦٠ــ١٦١ ــ١٦٥ .
٤٩٠ــ المثل السائر ٢/١٩٩ــ٢٠٠ .
٤٩١ــ المفتاح، ١٨٩ .

فلايمتنع ان يراد من «نَئوم ُالضُّحى» انها تنام فى الضُحى مع ارادة كونها مخدومة مُرفَّهَةً . ولكن المجاز ينافى ذلك، فلايصح ان يراد فى «رعَينا الغيثَ» المطرُ، لان المجاز مصحوب بقرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقى.

والكناية عنده تنقسم من جهات مختلفة الى اقسام متعددة، فمن حيث نوع المُراد بها تنقسم الى ثلاثة اقسام :

الاول ــ المطلوب بها الموصوفُ وهو ما يقوم بنفسه، كما رأيت فى قوله عزوجل : «أومن يُنشَّأُ فى الحِلْية ...» وقول ابى نواس : «تقول التى مِنْ بيتِها خَفَّ محملى» فالمُكَنّى عنه فيهما هو الموصوف لا غير .

والمكنّى به عن الموصوف يمكن ان يكون معنى واحداً يختص بالمراد، فيدلُ عليه بأبسط وجه وأقربه الى السهولة مثل «مَجامِع الأضْغانِ» كنايةً عن القلب فى قول الشاعر :

الضاربينَ بكل أبْيضَ مِخْذَمٍ والطاعنينَ (مجامِعَ الأضْغانِ)

او مجموعة معانى تحتاج فى اختصاصها بالموصوف المُكنّى عنه الى تكلف ضم اللوازم بعضها الى بعض، فتَلفِّقُ مجموعاً وصفيا يعدُّ فى الدلالة على المراد بعيدا بالنسبة الى ما كان المكنى به معنى واحدا، و ذلك كقولك : «بَطلُ الإسلامِ وحبيبُ النّبى ومُفجّعُ هِنْدٍ والشهيدُ بأحُد» كنايةً عن حمزةَ سيدِ الشُهداءِ .

الثانى ــ المطلوب بها الصفة، ويراد بها ما يجرى مجرى الجود والكرم والشجاعة كقول اسماعيل بن يسار فى رثاء عروة بن الزبير :

منعَ التّعَزىَ أنّنى لِفراقِهِ
(لبِسَ العَدُوّ علىَّ جِلدَ الأرْبَدِ)[492]

٤٩٢ــ الأربد : الاسد .

فانه كنّى عن مجاهرة غيره له بالعداوة بـ «البس العدو ...» .

وكقول أعرابي لما سُئِل عن اشتعال شيبه: «هذا غبارُ الوَقائِعِ».

وقد يتوسط بين المكني والمكني عنه في هذا القسم وسائط، فينتقل المخاطب الى المراد من لازم بعيد، و ذلك كقول الخنساء في أخيها صخر:

طويلُ النِّجادِ رفيعُ العِمادِ (كثيرُ الرَّمادِ) اذا ماشَتا

فكنّت عن كرم أخيها بكثرة الرّماد، لكنّ فهمَ المراد يحتاج الى توسط لوازم أخرى فان كثرة الرّماد تستلزم كثرة حرق الحطب، ثم كثرة الطبخ، ثم كثرة الضيوف . اما قولها : «طويل النِجاد» كنايةٌ عن طول القامة، فهو لايحتاج الى التوسط، لأنّ طول حمالة السيف تستلزم طول الجسم بلا واسطة، فينتقل المخاطب الى المراد من لازم قريب .

الثالث ـ المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف، او بعبارة اخرى اثبات امر لأمر آخر ونفيُه عنه . و ذلك كقول الشَنْفري :

يَبيتُ بمنجاةٍ عن اللّوم بيتُها ، اذا ما بيوتٌ بالمَلامَةِ حَلَّتِ

فانه لما أراد ان يصف زوجته بالعفاف والبراءة عن الملامة نسب تلك الصفات الى بيتها على سبيل الكناية، ولايخفى حسنها لما فيها من المبالغة والتأكيد، فالمراد بالعبارة الكنائية هاهنا اثبات العفاف والبراءة لصاحبة الدّار . ثم إنه لم يقل : «يظلّ بمنجاة ...» قصداً الى زمان يكثر فيه التهمةُ والمَلامة[٤٩٣].

ومن حيث كثرة الوسائط وقلتها، وخفاءِ المراد و وضوحِه، وذكر الموصوف وحذفه تتفاوتُ الكناية الى تلويحٍ، و رمزٍ، وايماء وإشارةٍ، وتعريضٍ .

٤٩٣ـ المفتاح، ١٩٠ـ١٩٣ .

التلويح ــ كناية انتقل المخاطب فيها من لازم بعيد الى المراد، او بعبارة اخرى ما توسطَتْ فيه لوازم بين المُكنّى به والمُكنّى عنه، كما عرفت فى «كثير الرّماد» .

وكقول نصيب :

لعبدِ العزيزِ على قومِهِ ... وغيرهم ، مِنَنٌ ظاهِرَهْ
فبابُك أسهَلُ أبوابِهم ، ... وداركَ مأهولةٌ عامِرَهْ
وكلبُك آنَسُ بالزائرِيـ ... ـنَ مِنَ الأمّ بالابنةِ الزائِرَهْ

فانه كنى عن وفور احسان عبدالعزيز الى الخاص والعام بأنس كليه بالزائرين، فأنتَ تنتقل مِنْ أنسِ الكلب بالزائرين الى أنهم عنده معارف، ثم الى اتصال مشاهدته اياهم، ثم الى لزومهم باب عبدالعزيز، ثم الى المراد[٤٩٤].

ومنه قول أعرابية فى وصف زوجها : «له إبلٌ قليلاتُ المَسارِحِ كثيراتُ المَبارِكِ ، إذا سَمِعْنَ صوتَ المِزْهَرِ أيقنّ انّهنّ هَوالِكُ»[٤٩٥].

و وجه التسمية بالتلويح، هو ان التلويح بمعنى الاشارة الى غيرك من بعيد، فتناسب الكنايةُ التى ينتقل فيها المخاطب الى المراد من بعيد ان تُسمّى به .

الرّمزُ ــ كناية اشرتَ فيها الى المراد بلازم قريب مع نوع من الاستتار، اوان شِئْتَ فقل: كنايةٌ ذاتُ مسافة قريبة مع نوع من الخفاء، و ذلك كقولك : «عريضُ القفا» كناية عن الأبله . وقولك ايضا : «نعتُه

٤٩٤ــ المصدر نفسه، ١٩١ــ١٩٤ .

٤٩٥ــ المثل السائر ٢/٢٠١ .

لاينصَرِفُ» تريد أنه احمق .

وقال الشاعر :

صاحبُنا أحــوالُه عــالِيَهْ لكنّما غُرْفَتُه خالِيــه[٤٩٦]

فكنّى عن قلة الدّماغ والعقل بخلاء الغرفة، ولا يخفى ما فى هــذه الكنايات من الخفاء . وسببُ إطلاق «الرمز» على هذا القسم، أن الرمــز بمعنى الاشارة من قريب على سبيل الخُفْيَة، قال الله تعالى فى قصّة زكريّا: «ألاّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَةَ ايّامٍ إلاّ رمزا»[٤٩٧].

الإيماء والإشارة ــ كنايةٌ اشرتَ فيها الى المراد بلازم قريب بلاخفاء، و ذالك كقول البحترى :

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقــى رحلَه فى آلِ طلحةَ ثمّ لــم يَتَحَوَّلِ

فانه كنّى عن مجد آل طلحة بان المجد ألقى رحله فيهم، ولا يخفــى وضوح هذه الكناية :

ومنه قول الآخر :

سألتُ الندى والجودَ مالى أراكُما تَبدّلْتُما ذُلاً بــعِزٍّ مؤبَّدِ ؟

ومابالُ ركنِ المجد أمسى مُهَدّما؟ فقالا: أُصِبْنا بابنِ يحيى محمّد[٤٩٨]

فقلتُ: فهلاّ مُتّما عِندَ موتِهِ، فقدكُنتُما عبديه فى كلِّ مَشْهَدِ

فقالا: أقَمْنا كى نُعزّى بفقدِهِ مسافَةَ يومٍ ثم تتلوه فــى غَدِ

التعريض ــ كناية مسوقة لاجل موصوف غير مذكور، كقولك فــى عرض من يؤذى المسلمين : «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ مِنْ يدهِ و

٤٩٦ــ الكنايات، للثعالبى، ٣٨ .

٤٩٧ــ آل عمران، ٤١ .

٤٩٨ــ الموجود فى المفتاح ١٩٤ فقال .

لسانه» تريد به نفى الاسلام عن ذالك الشخص الموذى. فأنت ترى ان الموصوف الذى اريد نفى الاسلام منه لم يذكر فى العبارة، بل يُعرَفُ من السياق والقرائن[٤٩٩].

وهذا التعريض يأتى تارة على السبيل الخاص بالكناية، بمعنى ان ما يدل عليه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله عليهما، وذالك كقولك مهدّدا : «يومُ المظلوم عليكَ أشدّ مِنْ يومِك عليه» وانت تريد مع المخاطِب انسانا آخر معتمدا على قرائن الاحوال .

وتارة يأتى على سبيل المجاز، بمعنى أنه يوجد هناك قرائن تشعر بان ما يدل على التعريض لا يلائم ارادة المعنى الحقيقى، كما اذا كان المخاطب بالمثال المذكور كان رجلا مظلوما، او انسانا عادلا متقيا لم يكن مظنّة للظلم . فاذا قلت له : «يوم المظلوم عليك ...» واردت غيره، جرى هذا التعريض على سبيل المجاز[٥٠٠].

فالتعريض عند السكاكى قسم من الكنايه او صورة منها سيقت لأجل موصوف غير مذكور، وليس شيئا آخر غير الكناية . والتحقيق انه غير الكناية، ويوجد بينهما فروق كما سيأتى .

التعريض والمراد منه

التعريض فى اللغة :

يقال : عرّض لى فلان تعريضا، اذا رحرح بالشىء ولم يبيّن . و

٤٩٩– المفتاح، ١٩٣–١٩٤ .

٥٠٠– المصدر نفسه، ١٩٤ .

اعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يُشْبِه بعضُه بعضا فى المعانى، كالرّجل تسأله : «هل رأيتَ فلانا ؟» فيكره ان يكذب وقدرآه، فيقول: «إن فلاناً ليُرى» .

والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض التورية بالشىء عن الشىء .

قال النبى (ص) : إنّ فى المعاريض لَمَنْدوحَةً عن الكذب[٥٠١].

التعريض فى الاصطلاح :

لقد عبر التعريض فى الاصطلاح ايضا من الأجواء المختلفة كالكناية ، فترى الشافعى (١٥٠–٢٠٤ هـ) فى باب التعريض بالخِطْبة من كتاب الامّ يقول : «والتعريضُ كثير وهو خلاف التصريح، وهو تعريض الرّجل للمرأة بما يدلّها به على إرادة خطبتها بغير تصريح، وتجيبه بمثل ذلك»[٥٠٢] فمعنى هذا الكلام هو أن التعريض ترك التصريح، والتعبير بما يدل على المراد من بعيد أعم من أن تكون الدلالة بواسطة اللفظ والوضع مباشرة، او جاءت من السياق والقرائن، لعل الشافعى أقدمُ من تعرّضَ الى التعريض وتفسيره على ما وجدتُه .

وجعله ابن قتيبة من باب الكناية وعنى منه ما يبلغ به الشخص إرادته بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، فمن الامثلة التى اوردها للتعريض ما قاله اعرابى لما خرج مع أصاحبِه لجمع المؤنة والقوت، و فرغوا من العمل و رجعوا، ذهب رجل منهم فى بعض الليل الى عِكْمِ[٥٠٣] الاعرابى فأخذمنه بُرّاً وجعله فى عكمه، فلما قاموا للرّحيل رأى الاعرابى

٥٠١– اللسان مادة، عرض .

٥٠٢– الأمّ ١٧٠/٨ .

٥٠٣– العِكْم : العِدْل مادام المتاع فيه .

أن عُكْمه خفيف وعُكم صاحبه ثقيل، فأنشد :

عُكْمٌ تغشّى بعضَ أعكامِ القومِ
لم أرَ عُكماً سارِقاً قبلَ اليومِ

فعرّض بخيانة صاحبه بوجه هو الطف من التصريح[٥٠٤].

ولقد سبق أن الظاهر من كلام ابن المعتز والعسكرى هو ان التعريض والكناية مترادفان، وان كلاّ منهما يأتى فى موضع الآخر ولا يوجد بينهما فرق[٥٠٥].

وجاء التعريض فى «عيار الشعر» لابن طباطبا (ف ٣٢٢ هـ) ويراد منه تركُ التصريح والاختصارُ الذى ينوب عن الإطالة، و ذلك كقول عمرو بن معدى كرب :

فلو أنّ قومى أنْطَقَتْنى رماحُهم   نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

اى لو انّ قومى بذلوا جهدَهم فى القتال وصدقوا فى الدفاع عن أنفسهم، وطعنوا اعداءَهم برماحهم، واعجبتنى بطولتُهم وشجاعتُهم، وانطقتنى رماحُهم بمدحهم و ذكر حسن بلائهم، أطلقتُ لسانى فى ثنائهم ونطقت بمدحهم . لكنّ رماحَهم شقّتْ لسانى فما جرى بمدحهم، و أسكتَتْنى فما أتيتُ بثنائهم .

وكقول لبيد :

تمنى ابنَتاىَ أنْ يعيشَ أبوهما،
وهل أنا إلاّ مِنْ ربيعةَ او مُضَرْ؟[٥٠٦]

٥٠٤ـ تاويل مشكل القرآن، ٢٠٤ .

٥٠٥ـ البديع، ١١٥ والصناعتين، ٣٦٨ .

٥٠٦ـ عيار الشعر، ٣٠ .

اراد انه يموت يوما كغيره، ولا يكون بينه والآخرين فرق امام الموت، ألا ترى انه فرد من افراد قبيلة ربيعة او مضر ؟ وانت تعلم انه لم يكتب لهم البقاء، فكذلك لم يكتب له ان يعيش دائما .

و ذكر ابن رشيق القيرواني التعريض في باب الاشارة وعده نوعا منها، فهو لم يأت بتفسير له ولم يشر الى الفرق بينه وبين سائر انواعها الكثيرة، وكل ما جاء به في هذا المجال انه أورد للتعريض امثلة متعددة، منها قول كعب بن زهير لرسول الله (ص) :

فــي فِتْيةٍ مِنْ قــريشٍ قــال قائلُهم
ببــطنِ مــكّةَ لمّا أسْلَمــوا : زُولوا

فعرّض بعمر بن الخطاب وقيل بابي بكر رضي الله عنهما، وقيل برسول الله (ص) تعريض مدح[٥٠٧].

والى هذا نرى أن معنى التعريض في الاصطلاح يدور حول مفهوم عام مبهم اعني الاختصار، او ترك التصريح، او ترادُفِه للكناية، اوما شابهها . لكن التعريض لا يقف عند هذا الحد، فيصل الى الاخرين وينال حظّاً جديداً من التحقيق والتدقيق .

لقد فرّق الزمخشري بين الكناية والتعريض و أشار الى نكت دقيقة في التعريض، فقال : «والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج اليه : جئتك لأسلّم عليكَ ولأنظرَ الى وجهِك الكريمِ . ولذلك قالوا : وحسبك بالتسليم مني تقاضيا . وكأنه امالة الكلام الى عرض يدلّ على الغرض»[٥٠٨]. والظاهر ان الزمخشري اراد

٥٠٧ـ العمدة ٣٠٣/١ .

٥٠٨ـ الكشاف ١٤٣/١ .

فى كلامه هذا، ان دلالةالتعريض علىالغرض والمراد لاتتأتى من ناحية متن اللفظ بل من سياق العبارة وفحوى الكلام، وأن التعريض ترك التصريح بما يدل على الغرض و ذكره بكلام آخر يشير اليه من طريق السياق والفحوى[٥٠٩].

والتعريض عندابن الاثير ايضا حازمفهوما دقيقا، ففسره باللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقى ولاالمجازى . ثم قال: «فانّك اذا قلتَ لمن تتوقع صلَته ومعروفَه بغيرطلب: والله إنى لَمحتاج" وليس فى يدى شيء"، وأنا عريان والبردُ قد آذانى، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب . وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلةالطلب لاحقيقة ولا مجازا، وانما دلّ عليه من طريق المفهوم»[٥١٠].

والتحقيق فى بيان معنى التعريض وتحديده وبيان الفرق بينه وبين الكناية وغيرها أن يقال : انالتعريض هواللفظالمستعمل فيما وُضِع له مع الاشارة الى ما لم يوضع له من السياق، والموضوعُ له والمعرّضُ به مقصودان فيه، غير أنّ الاول من اللفظ والثانى من فحوى الكلام، وانّ الكناية هى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له اصالةً والموضوعِ له تبعاً، امّا المجاز فهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فقط ويقابله الحقيقة و هى اللفظ المستعمل فى ما وضع له فقط . وقد تقيّد هذه الحقيقة بالمجرّدة احترازا عن الكناية، اذ قد تسمى حقيقة غير مفردة حيث يراد فيها المعنى الحقيقى ايضا .

والمرادُ بالموضوع له فى التعريض اعمّ من أن يكون حقيقة او مجازا او كناية، اذ يجوز ان يكون اللفظ مستعملا فى معناه الحقيقى، او

٥٠٩– ليراجع حاشيةُ السيد على المطول، ٤١٢–٤١٣ .

٥١٠– المثل السائر ١٩٨/٢ .

المجازي، اوالمكني عنه وقد دلّ به اي بالمستعمل فيه من تلك المعاني على مقصود آخر بطريق إمالة الكلام الى عَرْضٍ، فالتعريض يجامع كلا من الحقيقة والمجاز والكناية[٥١١].

فالاول ــ كما اذا قلت في عَرض من يتكلم بالسوء ويمقتُه الناس: «لستُ أتكلّمُ بالسوء فيمقتني الناسُ»، تريد ان ذلك الشخص المتكلم بالسوء ممقوت عندالناس. فالكلام حقيقة في إفادة نفي ما يريدالمتكلم عن نفسه، لكن لما سيق عندتكلم فلان بالسوء أفاد معنى التعريض ايضا، غير أن فهم هذا المعنى جاء من ناحية السياق لا الوضع.

والثاني ــ كأن تقول حينما ترى بطلا شجاعا حرّا انقاد للئيم: «إنّ الأسودَ لاتأكلُ مِنْ فريسة الضَّبُعِ» فالكلام مجاز، وحقيقته أن الشجعان والأبطال لاتخضع امام اللئام ولا تعيش على ايديهم، فتعرض بشخص كان يخضع للئيم ويركع له طمعا في المال اوالجاه.

والثالث ــ كما اذا قلتَ: «المُسلمُ من سلم المسلمون مِنْ لسانِه ويدِه» وتريد به التعريض بنفي الاسلام عن مؤذٍ معيّن، فالمعنى الاصلي هاهنا انحصار الإسلام فيمن سلم المسلمون من يده ولسانه، والمعنى الكنائي نفي الإسلام عن مطلق المؤذي. فاذا استعمل اللفظ في المعنى الاخير ولم يكن هناك شخص معيّن يؤذي الناس حتى تُعرِّضَ به كان الكلام كناية فقط، والاّ جاز ان يعرض بهذا الشخص المعين انه غير مسلم فيصير الكلام تعريضا ايضا[٥١٢].

٥١١ــ ليراجع حاشية السيد على المطول، ٤١٣ــ ٤١٤.

٥١٢ــ ليراجع حاشية الدسوقي ٢٦٨/٤.

تلخيص الفرق بين التعريض والكناية

ويستفاد مما سبق أن الفرق بين التعريض والكناية يُلخّص فيما يلى:

الاول ــ أن التعريض أخفى من الكناية، لان دلالتها لفظية وضعية[٥١٣]، و دلالة التعريض من جهة المفهوم والسياق لا الوضع الحقيقى ولا المجازى.

الثانى ــ أن الكناية تأتى فى المفرد والمركب، واما التعريض فانّه يختص باللفظ المركب فلا يقع فى المفرد، و ذلك لان الدلالة فيه تتأتى ناحية السياق والمفهوم التى تحتاج الى إثبات حكم او نفيه، وهذا شىء لا يستقل به اللفظ المفرد.

الثالث ــ أن اللفظ ظاهر فى المعنى المجازى فى الكناية، واما فى التعريض فهو ظاهر فى بيان المعنى الحقيقى.

الرابع ــ ان المعنى الكنائىَ مقصود أصالةً والمعنى الحقيقىَ مقصود تبعاً، واما فى التعريض فهما مقصودان على السواء.

بلاغة الكناية والتعريض

عرفنا أن الكناية والتعريض لون من ألوان التعبير يُعرَض فيه الحقائقُ عرضا غيرَ مباشرٍ، لانه كما ان بعض مقامات الكلام يقتضى التصريح بالغرض والتعبير عن المراد مباشرة، فان هناك ايضا ما يستدعى الاشارة الى المطلوب من بعيد، فتكون فى النفس أوْقَعَ وأحلى وعند

٥١٣ــ المراد بالوضع المعنى العام.

بیان الغرض أنسب وأولی . قال الشیخ فی «أسرار البلاغة» : «ومن المرکوز فی الطبع أنّ الشیء اذا نیل بعد طلبٍ له او الاشتیاق الیه، ومعاناة الحنین نحوَه، کان نیله أحلی وبالمیزة أولی، فکان موقعه من النفس أجلّ و ألطف، وکانت به أضنّ وأشغف»[٥١٤].

فالتعبیر بطریق غیر مباشر یعطی المسألة عمقا وجلالا، ویلبسها طراوةً وجمالاً، ویوسّع فی أجوائها وآفاقها، ویبعث الانسانَ علی التفکیر وإعمال الذهن فی شأنها، ویزید فی حسنها وقبولها . قال شارلتن: «والفصاحة فی عرف النقاد ان تدور بالحدیث حول الموضوع ولا تمس قلبه وصمیمه» . وقال آخر : «قل الحقیقة کلّها، ولکن قلها بطریقة غیر مباشرة ...» ولهذا کانت الکنایة عند العرب أبلغ من الإفصاح، والتعریض أوقع من التصریح، والمجاز أبلغ من الحقیقة[٥١٥].

فالأسلوب الکنائی یتضمن بلاغة وبراعة فی الکلام، و نکتا وفوائد فی البیان لاتتحقق تلک اللطائف بالتعبیر المباشر . فمنها :

١ـ انه أطبق البلغاء علی أن الکنایة أبلغ من التصریح، وعلّلوا ذلک بانّ الاسلوب الکنائی کدعوی الشیء مع البیّنة والبرهان . و ذلک لأنک اذا کنیت مثلا بـ «حَمّالَةِ الحَطَبِ» عن الساعی، و به «طویلِ النّجاد» عن طویل القامة، فقد اثبت المطلوب باثبات شاهده و دلیله وهو علم علی وجوده، و ذلک لامحالة ابلغ من اثبات المراد بنفسه، فیکون سبیل هذا اللون من البیان سبیل الدعوی مع الشاهد[٥١٦].

وایضا أنه یختار فی الاسلوب الکنائی أمسّ المعانی وألصق الصفات

٥١٤ـ اسرار البلاغة، ١٥٨ .

٥١٥ـ الرمزیة، ٥١ .

٥١٦ـ دلایل الاعجاز، ٣٤٣ .

وأنسب التعبيرات للغرض او المراد، حتى لو عُبِّر عنه بلفظه الصريح لما حصل للقارىء والسامع ما حصل له عند الأسلوب الكنائي من التأثير في النفس وإبراز المسألة في صورة مقبولة ومطبوعة .

٢ـ أنه يُظهِر المعاني في صورة المحسوسات، فيجعلها ملموسة ومشهودة، ويصوّرها واضحة وبيّنة، وانّه يحكي الشخص بواسطة ذلك الأسلوب انفعالَ اعجابه وما انطبع في نفسه، والاعجاب باعتباره انفعالا تعجز اللغة العادية عن تصويره لأنها وُضِعَتْ بازاء الافكار لتُعبّر عن هذا العقل الهادىء المحدود . أما الانفعال فهو قوّة تحتاج الى لغة خاصة، فيحتال الأديبُ للحصول عليها بالاستعانة من الخيال و صُوَر التعبير من التشبيه والاستعارة والكناية وحسن التعليل، لتكون ملائمة لما تؤديه من روعة وسخط وحبّ وما اليها[517].

٣ـ أنه يقع في التعبير الكنائي من المبالغة في الوصف مالايكون في نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى، و ذلك كقول عمر بن ابى ربيعة :

بَعيدةُ مهوى القُرطِ امّا لِنوفلٍ ابوها، وامّا عبدِ شمسٍ وهاشمِ

أراد الشاعر أن يصف امراة بانها طويلة العنق، فعدل عن اللفظ الصريح وجاء بالكناية وقال : «بعيدة مهوى القرط» فدلّ ببعد مهوى القرط على طول الجيد مع المبالغة ،و ذلك لان بعد مهوى القرط يدل على طول اكثر من الطول الذى يدل عليه طويلة العنق، لان كلّ بعيدةِ مهوى القرط طويلةُ العنق وليس كلّ طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، اذا كان الطول في عنقها يسيرا[518].

٥١٧ـ علم البيان، ٢٦٠ .

٥١٨ـ سر الفصاحة، ٢٧٠ـ٢٧١ .

٤ـ أن الاسلوب الكنائى ـ وكذا التعريضى ـ أفضلُ وسيلة لبيان المراد والرمى الى الغرض والنَيْلِ من الخصم والتشفى لغُلّة الصدر، و مع هذا كلّه لا يجد الخصم فيه على الشخص سبيلاً ولا يأخذ عليه دليلا، فكأن الاسلوب الكنائى رميةٌ من غير رامٍ . قال المتنبى معرّضا بسيف الدولة ومادحاً كافورَ :

رَحلْتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ
علىَّ ، و كم باكٍ بأجفانِ ضيغَمِ
وما رَبّةُ القُرْطِ المليحِ مكانُه
بأجْزَعَ مِنْ ربِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ
فلو كان مابى مِنْ حبيبٍ مُقَنَّعٍ
عَذَرْتُ ، و لكِنْ مِنْ حبيبٍ مُعمَّمِ
رمى واتّقى رميى، ومِنْ دونِ مااتّقى
هوىً كاسِرٌ كفى و قوسى و أسهُمى
اذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظنونُه
و صَدَّقَ ما يعتادُه مِنْ تَوهُّمِ

كنّى الشاعرُ عن سيف الدولة فى هذه الأبيات با«لباكى باجْفانِ الضيغمِ» و «ربّ الحُسامِ المصمّم» و «الحبيب المُعمّم» وأشار الى انه يقوم بما هو من شيمة النساء اعنى الغدر، ثم لامه على مباهتته بالعدوان، ثم رماه بالجُبْن لانه يرمى ويتقى الرمى خلف غيره .

والمتنبى لا يعامله بالمثل لانه لا يزال يحمل بين جوانحه هوى قديما يكسر كفه وقوسه وأسهمه اذا حاول النضال، ثم وصفه بانه يُسىء الظن بأصدقائه لأنه سيّىء الفعل وكثير التوهم .

فترى ان المتنبى كيف نال من سيف الدولة، وأفرغ ما فى قلبه،

بدون ان يذكر اسمه ويجعل له على الشاعر حجة[٥١٩].

٥ــ انه يعتبر كرد فعل لطريقة البرناسية (Ecole Parna ssienne) التى لاتعنى بالخوالج النفسية، وتقصر عنايتها على نقل الطبيعة نقلاموضوعيا لايتدخل الفنان بشعوره الشخصى فيه، ولايحفل باظهار السمات الجمالية به. فالاسلوب الكنائى لون من الطريقة الرمزيه (Ecole Symboliste) التى دعت امام البرناسية الى التعبير بالايماء والايحاء والتكنية والهمس، لتترك للقارى نصيبا ايجابيا فى تكميل الصورة وتوسيع الفكرة وتقوية العاطفة بما يضيفه الى المعانى من توليد فكره وتجديد شعوره. قال الشاعر مالرميه (mallarme) : «إن البرناسيين يتناولون الشيء كلّه ويظهرونه كلّه، فيفقدون بذلك سحر الخفاء ويسلبون الذهن نشوة الطرب التى ينشئها فيه اعتقاده بانه يخلق. إن الشاعر اذا سمّى الشيءَ باسمه فقد افقد القصيدة ثلاثة أرباعِ المتعة. وما هذه المتعة الا اثر السعادة التى يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا رويدا فى أودية الحدس، و ذلك هو الحلم...»[٥٢٠].

٦ــ ان الأسلوب الكنائى ينزع الى اللغة الطبيعية بتمثيل الأشياء بخصائصها[٥٢١]، كما ترى فى هذه الامثلة : «كَأنّ أخمصَها بالشوكِ مُنْتَعِلُ"» كناية عن الدّلال والغَنج، وقول الشاعر :

والضّارِبينَ بكلِّ أبْيضَ مِخْذَمٍ
والطّاعِنينَ مَجامِعَ الأضْغانِ

كنى «بمَجامعِ الأضغانِ» عن القلب، فهو رُبّما لايُفارقها .

٥١٩ــ جواهر البلاغة، ٣٥٥ .

٥٢٠ــ دفاع عن البلاغة، ١٤٦ .

٥٢١ــ الصور البيانية، ٤٥٤ .

٧ـ أنه يتضمن التحرز عن التصريح بما لا يحسن ذكره صراحة، كما ترى في قول اعرابية حينما لدغتها عقرب وصرخت صرخة فسألها ابوها عن السبب : «لدغتني عقرب» قال لها : «أين؟» قالت : «الموضع الذي لا يضع فيه الراقي أنفه» .

٨ـ أنه وسيلة لترك اللفظ المتطير من كره الى ما هو أجمل منه، كقولهم : «لحق باللطيف الخبير» يكنّون به عن الموت، فتركوا التصريح به كرها له وتطيرا منه .

ومن هذا الباب انهم يكنّون عن اللّديغ بـ «السّليم» و عن الاعمى بـ «البصير» وعن المهلكة بـ «المفازة» وعن ملك الموت بـ «ابي يحيى» . وقد ظرف الصاحب في وصف أخوين مليح وقبيح حيث قال :

يحيى حكى المحيّا ، ولكن له أخٌ حكى وجهه ابي يحيى[522]

٩ـ انه وسيلة لترك التصريح بصناعة قد اشتهرت بين الناس بالخسة، مثل الحياكة، فتركوا التصريح بها وكنوا عنها بذكر منافعها، فيقال : «هو يزيّن الأحياء ويجهّز الموتى» .

١٠ـ أنه يقصد به الذم بعبارة ظاهرة في المدح، كقول العرب: «أرانيه الله أغرّ محجّلا» اى مقيدا، فظاهر العبارة مدح وباطنه ذمّ .

١١ـ أنه وسيلة للأدباء والبلغاء كي يعبّروا عما يجري بينهم، بحيث يخفى ذلك على غيرهم .

١٢ـ أنه وسيلة للتوسع والتفنن في اللغات والعبارات، كما ترى في الكناية عن الملوك «بقوم موسى» ، وعمن اشتهر أمره «بقائد الجمل»، وعن الشيخ «بقائد العنز»[523].

٥٢٢ـ الكناية والتعريض للثعالبي، ٥٣ .

٥٢٣ـ الكنايات للجرجاني، ٣ـ٤ .

فلا تغرنك هذه اللطائف بأن الكناية مقبولة في كل موضع، لانه كما لا يحسن التصريح بالمراد في كل مكان كذلك لا يحسن الكناية عنه مطلقا، لان مواضع الهزل والمجون وايراد النوادر يليق بها التصريح ولا تكون الكناية فيها مرضية، فان لكل مقام مقالا، ولكلّ غرض فنا وأسلوبا[٥٢٤].

امّا بلاغة التعريض فمنها ـ أنه يُنَـوّه به جانب الموصوف ويُفخّمُ شأنه، و ذلك كقوله تعالى : «تِلكَ الرُسلُ فضلّنا بعضَهم على بعضٍ ، منهم مَنْ كلم اللهُ و رفعَ بعضَهم درجاتٍ»[٥٢٥] قال الكشاف: «والظاهر أنه أراد محمدا (ص) لانه هو المفضّل عليهم، حيث أوتى ما لم يؤْتَه احد" من الآيات ... وفي هذا الابهام من تفخيم امره وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على انه العَلَم الذي لا يُشتبه والمتميز الذي لا يلتبس . ويقال للرجل : «من فعل هذا؟» فيقول: «احدُكم اوبعضُكم» يريد به الذي تُعورِف واشتُهِر بنحو من الافعال، فيكون افخم من التصريح به»[٥٢٦].

ومنها ـ أنه وسيلة للتلطف والاحتراز عن المخاشنة، و ذلك كقوله تعالى : «ومالِيَ لاأعبُدُ الذي فَطَرَني»[٥٢٧] اي ومالكم لاتعبدون، بدليل انه عقبّه بقوله : «واليه ترْجَعون» ومن هذا الباب ايضا قوله: «أأتّخِذُ من دونه آلهةً»[٥٢٨].

و وجه حسنه أنّ المتكلم يستطيع باستخدام هذا الاسلوب أن

٥٢٤ـ سر الفصاحة، ١٩٢ .

٥٢٥ـ البقرة، ٢٥٣ .

٥٢٦ـ الكشاف ١٥١/١ .

٥٢٧ـ يس، ٢٢ .

٥٢٨ـ يس، ٢٣ .

يُسمِعَ من يقصد خطابه به الحَقّ على وجه لا يُغضبه لانه لا ينسبه الى الباطل، ويُعين على قبوله لأنه لا يُريد للمخاطب الا ما يريد لنفسه .

ومنها ــ أنه يتوسل به لاستدراج الخصم الى الإذعان والتسليم، كقوله تعالى : «لئِنْ أشْرَكتَ ليُحْبَطَنّ عملُكَ»[٥٢٩] خوطب النبى (ص) واريد غيره، لاستحالة الشرك عليه . و وجهُ حسنه أنّ الخصم يذعن بان الشرك اذا افسد عمل النبى افسد اعمالهم قطعا .

ومنها ــ أنه يُتوسل به لافادة الذم والحطّ من شأن الخصم بدون ان يذكر اسمه، و ذلك كقوله تعالى : «انما يَتذكّرُ اولوا الألبابِ»[٥٣٠] فان فيه تعريضاً بانّ الكفار فى حكم البهائم فلا يتذكرون بالآيات والمواعظ.

ومنها ــ انه يأتى للإهانة والتوبيخ، نحو قوله عزوجل : «و اذا الموءودَةُ سُئِلَتْ، باىّ ذنبٍ قُتِلَتْ»[٥٣١] فإنّ سؤالها لإهانة قاتلها وتوبيخه[٥٣٢].

٥٢٩ــ الزمر، ٦٥ .

٥٣٠ــ الرّعد، ٢١ .

٥٣١ــ التكوير، ٨ .

٥٣٢ــ الاتقان ٢/٥٠ .

الباب الثالث في الاسلوب

تمهيد :

اعلم أن البلاغيين القدامى لم يدرسوا مسائل هذا العلم الا في الجملة واجزائها والصور البيانية وألوان من المحسنات البديعية، كأنهم ظنوا أن الفصاحة والبلاغة لا تعتبر إلا في هذه الاشياء، وأن الفضل في الكلام لا يرجع إلا اليها . فتدور الاعتبارات البلاغية والقواعد الجمالية دائما عندهم حول هذه الدائرة الضيقة، وتتكرر الملاحظات الفنية والبراعة الكلامية لديهم في هذا النطاق الصغير، كأن هؤلاء زعموا أن حسن البيان وقبحه لا يتصوران الا في هذه الامور، او أن بلاغة البيان وبراعته تتحققان ببلاغة الجملة وأجزائها من غير اعتبار شيء آخر . نعم ان منهم من أشار في مجال تفاضل الكلام الى غيرهما من النظم والسياق، لكنهم يقصدون في الغالب ما يرجع الى الجملة لا ما يتعلق بوحدة العمل الأدبي، او أنهم لم يدرسوا النظم والسياق خارج الجملة كموضوع لمسائل علم البلاغة، فهذا هو الشيخ يشير عند بيان إعجاز القرآن الى غير الجملة بقوله : «اعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه بل وجدوا اتساقا بهر العقول واعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما»[1].

١ــ دلائل الاعجاز، ٣٢ .

والتحقيق ان فى موطن البلاغة أشياء اخرى غير الجملة واجزائها كالقوالب الفنية والألوان التعبيرية الكلية من الحماسة والوصف والقصة وغيرها، فلها كالجملة مقتضيات ومتطلّبات اذا راعيتَها زدتَ الكلام شرفا وقدرا واذا أهملتَها تركتْ فى البيان عيبا ونقصا . فليست القواعد البلاغية والجمالية وقفا على الجملة وأجزائها فى النثر اوالابيات المفردة فى الشعر فإنّ هناك مايخص الأجناس والقوالب الفنية، اى وحدة العمل الادبى . «بل ان ارسطو ليذهب الى أن الحكم على اجزاء الجنس لا يكتمل الاّ بالنظر الى طبيعة الجنس الأدبى والموقف بعامة»[٢].

إن بلاغة الجملة فى حد ذاتها لاتكفى فى كمال عمل ادبى وارتفاع شأنه، فانك كثيرا ما ترى كلاما فى داخل نطاقه فصيحا وبليغا لكن اذا جعلتَه لَبِنةً من عمل أدبى فقد بلاغتَه وفصاحته . روى الأصمعى أنه قال : كان ابو عمر بن العلاء وخلف الأحمر ياتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان : يا أبا معاذ أحدثتَ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعَين له، ويقيمان عنده الى وقت الزوال ثم ينصرفان عنه.

وبينما أتياه يوما سألاه ما هذه القصيدة التى أحدثتَها فى سلم بن قتيبة ؟ قال هى التى بلغتْكم . قالوا بلغنا انك اكثرت فيها من الغريب. قال نعم، لاننى سمعت ان سلم بن قتيبة ادعى المعرفة بالغريب، فأحببت أن أورد عليه مالا يعرفه .

ثم استنشداه فأنشدهما :

بكّرا صاحبىَّ قبلَ الهجيرِ إنّ ذاكَ النَّجاحَ فى التبكيرِ

ولما فرغ من انشاء القصيدة قال له خلف : لو قلت يا ابامعاذ مكان

٢ـ النقد الادبى الحديث، ٢٥٢ .

«ان ذاك النجاح ...» «بكراً، فالنجاح فى التبكير» كان احسن . فقال بشار : لما بنيت القصيدة أعرابية وحشية قلت : «إن ذاك النجاح ...» كما تقول الاعراب البدويون، ولو قلت : «بكرا، فالنجاح ...» كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذاك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة . فقام خلف وقبّل بين عينيه[٣].

فهذه الرّواية من عباقرة الفن وفرسان الأدب، ترينا أنه يجب فى الوصول الى ذروة بلاغة الكلام وقمّة براعته النظر الى طبيعة العمل الأدبى واعتبار ما يناسبه، كما يجب النظر الى نفس الجملة وأجزائها وما يلائمهما ، لان كمال بلاغة الكلام وتمام آلة البيان وحسن قبول الفن، انما تحصل بالمطابقة لجميع الاعتبارات المناسبة لها فى صورها المختلفة و أقسامها المتنوعة، كالجملة واجزائها، والقوالب الفنية الكلية من الحماسة والوصف والرثاء والخطابة والمقامة وغيرها. فالاقتصار على دراسة الاعتبارات اللائقة بالجملة فى حد ذاتها وما يتعلق بها، إهمال لطبيعة العمل الأدبى والقوالب الكلية والفنون التعبيرية التى لها اثر كبير فى الإفصاح عن الغرض ، والبلوغ الى قرارة النفوس، والجذب للعقول والافئدة، والنهض بالهمم والنشاط . فعلى هذا كان جديرا بالمسائل البلاغية ان تحطم دائرة الجملة الضيقة، وتتناول الطرق التعبيرية الكلية مثل أساليب الكلام وانواعها الداخلة تحتها . إن سوق مباحث البلاغة الى هذه الناحية يعد عملا جديداً يستحق التقدير، لعل خير من قام بهذه الدراسة الجديدة الاستاذان العالمان: احمد الشائب واحمد حسن الزيات فى كتابيهما القيّمين «الاسلوب» و «دفاع عن البلاغة». كان من المناسب أن ادرس هذه الناحية ههنا بالتفصيل،

٣- دلائل الاعجاز، ٢١٠-٢١١ .

لكن لما رأيت أن الموضوع متسع بحيث يقتضى تخصيص كتاب به اكتفيت بالاشارة والاختصار فيه، آملاً أنْ تُتاح لى فرصةٌ أخرى فأعود اليه، و ما ذلك على الله بعزيز .

الأسلوب وسبب اختلاف ألوانه

الاسلوب فى اللغة الوجه والمذهب والطريق، وفى الاصطلاح يطلق ويراد به معانى متعددة، منها أنه كما قال عبدالقاهر : الضرب من النظم والطريقة فيه[٤].

ومنها ــ أنه الفن الادبى الذى يتخذه الاديب وسيلة للإقناع او التأثير.

ومنها ــ أنه طريقة التفكير والتصوير والتعبير[٥].

ومنها ــ أنه طريقة الكاتب او الشاعر الخاصة فى اختيار الالفاظ و تاليف الكلام[٦].

ومنها ــ أنه هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية وهو غير النظم، لان النظم هو الهيأة الحاصلة عن التأليفات اللفظية[٧].

ويستنتج من هذه المعانى أن الاسلوب هو الطريقة التى يأخذها الفنّان والأديب لبيان افكارهما وما يجول فى نفسهما، من المعارف والعواطف والانفعالات والابتداعات .

وهذه الطريقة تختلف باختلاف الفن الذى يعالجه الفنان والاديب ،

٤ــ دلائل الاعجاز، ٣٦١ .

٥ــ الاسلوب، ٤١، ٤٦ .

٦ــ دفاع عن البلاغة، ٧٠ .

٧ــ منهاج البلغاء، ٣٦٤ .

والموضوعِ الذى يُعبّرانعنه والشخصِ الذى يتكلمان بلسانه اويخلقانه، فمن البدهى أن طريقةالحماسة واسلوبها غير طريقةالاعتذار مثلا، وكذا انطريقةَالرّوايةغيرُ طريقِ الرسالة وانالشعرَ غيرالنثرِ، وانالنثرَ العلمى غيرُالنثرالأدبى، وأن لسانالبائسين غيرلسانالمُترفين، وأنخطابالأبطال والشجعان غير خطابالجُبناء والخائفين . ثم إن طريقة عرضالافكار والانفعالات تختلف اضافة على ذلك باختلافالكاتب والفنان حتى فى الموضوعالواحد، لان نفسياتالافراد وعواطفهم وانفعالاتهم وتخيلاتهم واستنتاجاتهم مختلفة، ولهذا قالوا : إنّالاسلوبَ هوالرّجلُ نفسُه .

فلكل كاتب مذهبه فى طريقةالتعبير عن افكاره وعما يعرض على قلبه، او فى اسلوبه وشكل بيانه وصوغه . فالشيب فى رأىالمعرّى أزهار أيّامالشباب يزدانُ روضُالحياة بها :

والشيبُ أزهارُ الشبابِ فما له
يُخفى ، وحسنُالرّوض فىالأزهارِ ؟

وفى رأىالفرزدق نجوم ليالىالشباب حيث يقول :

تفاريقُ شيبٍ فىالشبابِ لوامع وما حُسْنُ ليلٍ ليس فيه نجومُ

ولكنّه فى رأى ابنالرومى نباتخبيث يقص تهذيبالنباتالصالحة:

وقد قلتُ للعُذّالِ عند تتبعى
بالقَصّ شيباً كلّ يومٍ يحدُثُ :
كثُرَ الخبيثُ منالنبات فُهذّبَتْ
منهالأطايبُ ، وهى بعد ستَخبُث

وعندالشريفالرضى سيف صارمٌ فى يدالايّام على رأس من حَلّ به :

غالطونى عنالمشيبِ و قالوا : لاتَرُعْ إنّه جلاءُ حُسام

قلتُ: ما أمنُ مَنْ على الرأسِ منه صارمُ الحدِّ في يد الأيّام؟[٨]

فالأسلوب يحمل معه طابع الكاتب ويتلوّن بميوله وطبيعته ويصبح ملكا خاصا له، وهو كمرآة تنعكس عليها نفسية الكاتب والفنان كما تنعكس عليها القضايا والحوادث. قال بوفون -BUFFON-: «ان الافكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس، ولكن الاسلوب من الرجل. ومعنى ذلك ان الافكار تكون قبل ان يفرغها الفنان في قالبه الخاص من املاك العامة، فاذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصح ملكا له[٩].

فكلما كانت نفسيّاتُ الأفراد وطبايعهم متباينة، وبيئاتهم متفاوتة، وثقافاتهم متنوعة، ونزعات الفردية قويّة، والحرّية والاعتماد بالنفس و إبراز الشخصية بينهم شائعة، كانت طرق التعبير واساليب البيان و قوالب عرض الافكار مختلفة، ومن التشابه والتكرار والتقليد بعيدة. فلذلك نرى أنه لما كانت النزعة الفرديّة في الامة العربية في الجاهلية ضعيفة، والصفاتُ القوميةُ شديدة الظهور والعموم بحيث ان الشاعر اوالاديب يتكلم بلسان قومه ويرى بأعينهم ويحكمُ بحكمهم، ولا يوجد بين صفات الفرد وصفات الجماعة فروق كثيرة، كانت أساليب الشعر والخطابة في ذلك العصر متشابهة فلا تستبين فروقها الاّ للناقد البصير. ومن اختلف اسلوبه من الشعراء الجاهليين كامية بن ابي الصلت وعدي بن زيد وغيرهما كان ذلك من جرّاء تَغَلّبِ صفات الفردية عليهم. ولما جاء الاسلام اخذت هذه الفروق تتضح وتتباين حتى بلغت غايتها من ذلك في العصر العباسي، فلذلك نرى ان الاساليب ازدادت في الاختلاف والتنوع، وان الفنون الادبية ازدهرت في

٨- الاسلوب، ٤٥.

٩- دفاع عن البلاغة، ٨٢.

ذلك العصر[١٠].

ويمكن ان يُلَخّص اختلافُ الأساليب فى هذين الاصلين :

الاول ـ الموضوع، وهو الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى نفسه، علما او ادبا، نظما او نثرا، مقالة اوقصة او رسالة اوخطابة ... فان لكل فن منها اسلوبا يخصه وطريقة تلائمه، ويؤيّد ذلك القولُ المأثورُ: لكلٍّ مقامٍ مقال" .

الثانى ـ الاديب، فان شخصيات الادباء تتفاوت من حيث أذواقهم، ومواهبهم العقلية، ودرجات انفعالاتهم، وطبائعهم الخشنة اوالرقيقة، و طريقة تفكيرهم وتصويرهم، ولكل من هذه الحالات والصفات اثر خاص فى اختيار الكلمات وتنسيق العبارات وايراد التشبيهات والاستعارات[١١].

عناصر الاسلوب :

لقد عرفتَ مما تقدّم أنّ الاسلوب هو الطريق الخاص الذى يتخذه الكاتب للتعبير عما فى نفسه، فهو يطير دائما على جناحى اللفظ والمعنى، ويستمرّ على عملية خلق هذين الأصلين الرئيسيين : خلق الألفاظ بواسطة المعانى، وخلق المعانى بواسطة الالفاظ . فالأسلوب ليس هو اللفظ وحده كما انه ليس المعنى وحده، بل هو مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ونفسه وذوقه، وهذه العناصر هى الأفكار والعبارات فى عرض المسائل العلمية، والافكار والصور والعواطف والالفاظ فى القضايا الادبية .

والمراد بالصورة مايُستمدّ من الخيال كالتشبيه والاستعارة والكناية،

١٠ـ المصدر نفسه، ٧١ .

١١ـ الاسلوب، ٥٥ـ٥٤ .

وبالعاطفة ما يُحرِّكُ نفس الانسان ويوقظها لتميل الى معنى او تنفر منه .

فمثلا أن هذه العناصر في كلام امير البلاغة علي بن ابي طالب (ع) :
«ألا إنّ الخَطايا خيلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلُها، وخُلِعَتْ لُجُمُها، فتَقَحَّمتْ بهم في النار. وإن التّقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عليها اهلُها، وأُعْطُوا أزِمّتَها، فأوْرَدَتْهم الجنةَ» كما يلي :

١ـ الفكرة هي ان عاقبة الخطيئات الهلاك والنار، وعاقبة التقوى النجاح والجنة .

٢ـ انك تجد ههنا ان الفكرة قد تجسمت في صورتين : صورة فرس شُمُس لايكون لجامه في يد راكبه ولا ينقاد له، فيذهب بصاحبه على غير هواه حتى يلقيه في النار . وصورة ناقة ذلول منقادة لصاحبها وتجري كيفما يريد راكبها حتى تدخله الجنة .

٣ـ ان عنصر العاطفة ههنا هو عاطفةُ النفور من الالم الذي يشعر به الخاطيء المستطار وقد جمحت به خطاياه الشُّرُعْنُ عن أوعار الأرض حتى القَتْه في سواء الجحيم . وعاطفةُ الميل الى لذة المتقي الوادع وقد سارت به تقواه سيرا لينا حتى أبلغته جنة النعيم .

٤ـ ان عنصر الالفاظ هو هذه الكلمات المناسبة والملائمة لتلك الافكار : اعني الخيل الشُمُس، وخلع اللجام، والتقحم، والمطايا الذلل وغيرها[١٢].

واما تلك العناصر في قول المتنبي :

مِنَ الحِلْمِ أنْ تستعملَ الجهلَ دونَه
اذا اتسعَتْ فـي الحِلم طُرْقُ المَظالِمِ

١٢ـ دفاع عن البلاغة، ٧٧ .

و أن تَرِدَ الماء الذى شطرُه دم"
فتُسقى اذا لم يُسْقَ من لم يُزاحِمِ
و من عَرف الأيّامَ معرفتى بها
و بالناسِ، روّى رُمحَه غيرَ راحِمِ
فلا هو مرحوم" إذا اظفِروا به،
ولا في الرّدى الجارى عليهم بآثِمِ [١٣]

فهى عبارة عن :

الاول ــ فكرة ان الجهل حتم ان لم ينفع الحلم، وان الجهاد الاحمر واجب اذا لم تتحقق الآمال والرغبات الا به، وان الحق للقوة وان الناس لا يؤمنون الا بالرهبة .

الثاني ــ عاطفة السخط والغضب الذى سيطر على نفس الشاعر، فأنطقه بهذه الأبيات التى أنكر فيها الانصاف والترحم، وحرّض الناس على القساوة والخشونة[١٤].

الثالث ــ صورة الماء الممزوج بالدم وترويةالنفس منه، وصورة الفاتك الذى يبطش بالناس ولا يرحمهم، لانه يعلم اذا اظفروا به لا يراعون فيه إلاً ولاذمةً .

الرابع ــ العبارات المختارة الملائمة لفكرة الشاعر وهى مقابلة الحلم بالجهل، الماء الذى شطره دم، ترويةالرمح، غير راحم، فلا هو مرحوم و غيرها .

١٣ــ و رواية الديوان : «فليس بمرحوم» .
١٤ــ الاسلوب، ١٢ .

أقسام الأسلوب

اعلم ان في الحياة جوانب مختلفة وقضايا متنوعة وعوامل متفاوتة لا يمر بها الانسان كلّها سواء ولا ينظر اليها بعين واحدة، بل ان منها ما نستجيب له بعقولنا فقط بدون أن يتدخل فيه الشعور والاحساس، كما نرى في الجوانب التي يمارسها العلماء والرّياضيّون، مثل تركيب الهواء وتشريح الزَهرة ومسائل الأعداد. ومنها ما يمرّ بنا ويهزّ مشاعرنا وعواطفنا ويخرجنا الى عالم آخر، كما يُرى في المسائل الوجدانية، فمن الطّبعي أن يختلف التعبير عن هذين الاتجاهين: الاتجاه الذي يتكىء على العقل، والاتجاه الذي يهز المشاعر والعواطف، فكانت نتيجة هذا ان ينقسم الاسلوب في المرحلة الاولى الى قسمين رئيسيين: الأسلوب العلمي والأسلوب الادبي.

فالاسلوب العلمي ـ ما كان الكاتب فيه وقف امام جانب من الحياة وعالجه بمنطق العقل، وحصل على فكرة ورتبها ثم صاغها في قوالب مناسبة وعبارات واضحة. فالكاتب في الاسلوب العلمي يتكلم بعقله ليخاطب سائر العقول، وهو اذ يتكلم لا يكون الا فردا من الجنس البشري يوجه الكلام الى عنصر مشترك بينه وبين سائر الناس، فهو لا يُدخل جانبه الشخصي في كلامه، ذلك الجانب الذي يتميز به الافراد بعضهم من بعض، فالعقول في الناس كلّهم تنظر الى الأمور من جهة واحدة. ولهذا نرى ان التعبير العلمي يقوله هذا هو نفس التعبير الذي يقوله ذلك ولا سبيل الى الخلاف بينهما ولو كان من أقصى الأرض الى أقصاها[١٥].

١٥ـ فنون الادب، ٥٧.

الأسلوب العلمي بناؤه على المعارف العقلية والعناية باستقصاء الافكار، والغرض منه اداء الحقائق وقصد التعليم وخدمة المعرفة وإنارة العقول . و يمتاز هذا اللون من الاسلوب بالدقة والتحديد والسهولة والوضوح فـي العبارة، وبملائمته للخلوعن التكرار والايجاز والتطويل، وحشد المحسنات البديعية، والولوع بالمجاز الا ما جاء عفوا، وبالاحتراز عن كل ما يوجب الإبهام والغموض كالالفاظ المشتركة[١٦].

ومن نماذج الاسلوب العلمي ما قيل فى وصف الأهرام :

«كان القصدُ من بناءِ الأهرام ايجادُ مكانٍ حصينٍ خفيٍ يوضَع فيه تابوتُ المَلِك بعد مماته، ولذلك شَيّدوا الهرمَ الأكبرَ وجعلوا فيه أسرابا خفيّةً زلقةً صعبةَ الولوج لضيقها، وانخفاض سقفها وامّلاسِها حتى لا يتسنّى لأحدٍ الوصولُ الى المخدع الذى به التابوتُ، ومن أجل ذلك ايضا سدّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك، لا يعرف سرّ تحريكه الاّ الكهنة والحرّاس، و وُضِعَت أمثال هذا الحجر على مسافات متتابعـة فى الأسراب المذكورة، وبهذه الطريقة بقى المدخل ومنافـذ تلك الاسراب مجهولة أجيالا، مجهولة من الزمان . ويُعدّ الهرمُ الاكبر من عجائب الدنيا، قرر المهندسون والمؤرخون أن بناءه يشمل ٢/٣٠٠/٠٠٠ حجر متوسط، وزنُ الحجرِ منها طنان ونصف طن، وكان يشتغل فى بناء الهرم مائة الف رجل يستبدل بهم غيرهم كلّ ثلاثة اشهر، وقد استغرق بناءوه عشرين عاما»[١٧].

فترى خصائص وميزات الاسلوب العلمي متجلية فـى هذه القطعـة المنثورة .

١٦ـ الاسلوب، ٥٩ .

١٧ـ تاريخ مصر الى الفتح العثمانى، ١٧ـ١٦ بالنقل عـن الاسلوب ، ٥٧ـ٥٦ .

وأما الاسلوب الادبي ـ فهو ما كان الكاتب فيه عالج قضية هزّت مشاعره وأثارت عواطفه فتاثّر بها واستجاب لها بكل كيانه، وهذه القضية هاهنا ليست موضوعية بل تعدّ مسألة ذاتية تلونت بنفسية الكاتب واصطبغت بصنعته، فهو يعبر بهذا الاسلوب عن مكنون نفسه ويفصح عن حقيقة حسه .

يدور هذا الوجه من طرق التعبير على اساس العاطفة والاهتمام بالشعور والوجدان، فيخاطب الاحساسَ والشعور قبل أن يخاطب العقل، ولا يستخدم المنطقَ الاّ في نطاق ضيق، ولا يبسط الحقائق الموضوعية الاّ في القليل النادر، ويعنى بالتعميم والتفخيم ويقف عند مواطن الجمال والتأثير والجزالة والقوة، و ذلك لان الغاية منه هي إثارة الانفعال في نفوس القرّاء والسامعين والاستيلاءُ على قلوبهم حتى يشايعوه فيما احسه وتأثر به[18].

ويمتاز الاسلوب الادبي بالجمال والرّوعة والتاثير، فهذه الصفات ترجع في الغالب «الى خيال رائع وتصوير دقيق، وتلَمّس لوجوه الشبه البعيدة بين الاشياء، والباس المعنوي ثوب المحسوس، واظهار المحسوس في صورة المعنوي»[19] والى المحسنات البديعية، وحظه الموسيقى . فيكثر فيه الصور البيانية كالتشبيه و أنواع المجاز والكناية، والمحسنات البديعية كالجناس والطباق وحسن التعليل والسجع وغيرها .

ومن نماذج الاسلوب الادبي ما جاء في وصف «الاهرام» كما احسها الكاتب وتخيلها واهتزت بها مشاعره :

«ولما وقفتْ بنا الركاب في ساحة الاهرام، وقفنا هناك موقفَ

١٨ـ راجع الاسلوب، ٥٩، وفنون الادب، ٥٨ .

١٩ـ البلاغة الواضحة، ١٣ .

الإجلال والاعظام، قبالة ذلك العَلَمِ الذى يطاول الروابىَ والأعلامَ، والهضبةِ التى تعلو الهضاب والآكام والبنية التى تشرف على رَضْوى و شمام، وتُبلى ببقائها جدة الليالى والأيّام، وتطوى تحت ظلالها اقواماً بعد اقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام، خَلِقَتْ ثيابُ الدّهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب، شابت القرونُ وأخطأ قرنها وخط المشيب، ما برحت ثابتة تناطح مواقعَ النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم»[٢٠].

ثم ان الاسلوب الادبى يتنوع الى انواع : شعرا ونثرا، ثم حماسة ونسيبا ومدحا ورثاء واعتذارا وغيرها فى الشعر، اومقالة وقصة وخطابة و رسالة وغيرها فى النثر . ويرجع سبب ذلك الى اختلاف الموضوع وان الانسان لايبقى دائما فى حالة وجدانية واحدة ازاء جوانب الحياة، بل تَنْتابُه حالات" متعددة من الحزن والفرح والحب والبغض والغضب، فيتلوّن الأسلوب بتلك الالوان ويتاثر بها، فما أرَقّ اسلوب الانسان حينما كان رقيقا واعنفه حينما كان عنيفا، فإن كلّ اناءٍ يترشّح بما فيه . ولهذا نرى ان الغضب ينتج عنه الهجاء، والحزن ينتج عنه الرثاء، والحب ينتج عنه النسيب، والانفة ينتج عنه الفخر، الطرب ينتج عنه الخمريات واللهو و وصف مجالس الطرب والغناء[٢١].

وهذه الالوان من الاسلوب كما تختلف من حيث الانفعالات النفسية تختلف من حيث الصور والكلمات والعبارات، فمثلا ان الصور فى الحماسة تتخذ عناصرها من الدماء الجارية، والسيوف اللامعة، والرماح المتشاجرة. وان الكلمات فيها قوية الجرس، ايجابية المعنى، وانها هى الرّماح والطعن والضرب والقتل والاسر والانتصار وما شابهها . وان العبارات تحكى

٢٠- حديث عيسى بن هشام، ٤٠٥، بالنقل عن الاسلوب، ٥٨ .
٢١- الاسلوب، ٧٩، فى الاسلوب الادبى، ٧٣ .

موسيقى النفس الغالبة المنتصرة والعالية الايجابية[٢٢].

اما في الرثاء، فانت ترى ان الصور تتخذ موادّها واجزاءها من الوادي الآخر كالقبور، والبيوت المظلمة، والعيون الباكية، والأمل المقتول، و تربص الاعداء وما شابهها . وان الكلمات هي ما تدل على معان سلبية مؤلمة، كالفجيعة والكارثة والجزع والبكاء والخراب والظلمة والبؤس والفقر وغيرها . وان العبارات توحي بموسيقى الشجي والحزن والالم[٢٣].

و كذلك ترى ألوان الاسلوب في النثر تختلف من نواح متعددة، فمثلا ان الخطابة تمتاز بان الانفعال فيها أشد وأقوى، وان الكلمات فيها تتكرر لتثبيت الافكار وتمكين السامعين من الفهم واحيانا لتقريع الأسماع، وان العبارات فيها تختلف خبرا ونهيا واستفهاما وتعجبا، وانه يتخللها القصص والوصف الموجزان يستعين بهما الخطيب في الإقناع والتأثير[٢٤]. وتمتاز ايضا بانه تستخدم فيها صور" يفتن بها النواظر، والفاظ" يهز بها المشاعر ويكثر فيها محسنات تتحكمّ في الافئدة .

وترى ايضا ان اسلوب الشعر يتفاوت مع النثر في ان الشعر يغلب عليه صفة التأثير ولكن الغالب على النثر هو صفة الإفادة، ولهذا كانت الكناية والاستعارة اكثر دورانا في الشعر وكان التشبيه اكثر وقوعا في النثر ، لان التشبيه اقرب الى تصوير الواقع وأنسب بقصد الايضاح . وعلى هذا كان الاولى بالتشبيه التمثيلي ان يرد في الشعر لكثرة عنصر الخيال فيه[٢٥].

ويختلف اسلوب الشعر من النثر بان الكلمات في الشعر يجب ان تكون

٢٢ـ الاسلوب، ٨٠ .
٢٣ـ المصدر نفسه، ٨٦ .
٢٤ـ الاسلوب، ١١٨ .
٢٥ـ الرمزية، ٥٦ .

مختارة غير مبتذلة تدل بجرسها وبمعناها على ما تصوّر من أصوات و ألوان ونزعات نفسية، فلهذا كان استعمال كلمة «مُشْمَخِرّ» مثلا فى الشعر قبيحا دون النثر .

وايضا ان اساس الشعر على الاختصار والايجاز، فمن حقه الاكتفاء بالعناصر الرئيسية كالمسند والمسند اليه دون التزام بالمتعلقات والروابط[٢٦].

ومما يمتاز به اسلوب الشعر ايضا ان من حق الشعر ان يرفع نفوسنا عن تجربة الحياة العادية المألوفة الى مستوى أسمى وأرفع، وان من شأنه ان يخدعنا عن انفسنا فننسى لحظةً كل ما أحاط بنا من جوانب الحياة الملموسة، ويُحلّق بنا على جناحه فى عالم أروع واعلى . فان سها الشاعر وحشد الحكمة فى شعره، كان بمثابة من يخرج الينا من وراء الستار ونحن نظر فى دهشة وإعجاب الى بعض المناظر العجيبة على المسرح فيدلنا على الحيلة التى احدثت كل هذا التعجب فينا . فنكرّر هاهنا قول الشاعر مالرميه (mallarme) زعيم الرمزية : «ان الشاعر اذا سمّى الشيءَ باسمه فقد افقد القصيدة ثلاثة ارباع المتعة، وما هذه المتعة الا اثر السعادة التى يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا رويدا فى أودية الحدس، و ذلك هو الحلم»[٢٧].

ولما كان غرضى فى هذا الباب ان اتناول دراسة الاسلوب بالإشارة والإختصار، أضع القلم ههنا واحمد الله على ما انعم على من التوفيق فى تأليف هذه الرسالة، ومنّ عليّ بالإكمال والاتمام، وأُقدّم ثنائى الجميل لروح والدى الماجد الذى رافقنى فى جميع مراحل حياتى العلمية بالتعليم والارشاد، جزاه الله عنى خير جزاء واعطاه فى الآخرة خير عطاء .

محمد فاضلی

٢٦ـ الاسلوب، ٦٣، ٧١ .

٢٧ـ دفاع عن البلاغة، ١٤٦ .

فهرس الآيات

فهرس الاحاديث

فهرس الأشعار

((ق))

((هـ))

((ى))

فهرس الأعلام

مصادر الكتاب

١ـ ابراهيم على ابوالخشب، الأدب والبلاغة، الطبعةالثانية، مصر، ١٣٧٨ـ١٩٥٩.

٢ـ ابوالحسن حازم القرطاجنى، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمدالجبيب ابن الخوجه، تونس.

٣ـ ابوالحسن على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ـ٣٨٦)، النكت فى اعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دارالمعارف.

٤ـ ابوالعباس المبرد، الكامل فى اللغة والأدب والنحو والصرف، تحقيق الدكتور زكى مبارك، الطبعةالأولى، مصر.

٥ـ ابوالعلا المعرّى، سقطالزند، بيروت.

٦ـ ابوالفتح ضياءالدين نصرالله بن محمدبن عبدالكريم المعروف بابن الأثير (٦٢٧ هـ)، المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، طبع مصر، ١٣٥٨ـ١٩٣٩.

٧ـ ابوالفتح عثمان بن جنى، الخصائص، تحقيق محمدعلى النجار، دارالهدى، للطباعة والنشر، بيروت.

٨ـ ابوالفرج الاصفهانى، الاغانى، باشراف العلامة الشيخ عبدالله العلايلى وموسى سليمان واحمد ابوسعد، دارالثقافة، بيروت.

٩ـ ابوالقاسم الحسن بشرالآمدى (٣٧٠ هـ) الموازنة بين شعر ابى تمام والبحترى، تحقيق السيد احمد صقر، دارالمعارف، ١٣٨٠ـ١٩٦١.

١٠ـ ابوالقاسم حسين بن محمدالراغب الاصفهانى، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، ١٩٦١.

١١ـ ابوبشر عمروالملقب بسيبويه، الكتاب، الطبعةالاولى، المطبعة الكبرىالاميرية ببولاق، مصر ١٣١٦ .

١٢ـ ابوحيانالتوحيدى، المقايسات، تصحيح حسنالندوبى، مصر، ١٣٤٧ـ١٩٢٩ .

١٣ـ ابوسليمان محمدبن محمدبن ابراهيمالخطابى (٣٨٨ـ٣١٩ هـ) ، بيان اعجازالقرآن، المطبوع تحت عنوان «ثلاث رسائل فى اعجازالقرآن» تحقيق محمد خلفالله والدكتور زغلول سلام، دارالمعارف، مصر .

١٤ـ ابوعبيدة معمربنالمثنى (٢١٠ هـ)، مجازالقرآن، تحقيقالدكتور محمد فؤاد سزگين، مصر .

١٥ـ ابوعلىالحسنبن شيقالقيروانىالأزدى (٤٥٤ـ٣٩٠) ، العمدة فى محاسنالشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيىالدين عبدالحميد ، بيروت .

١٦ـ ابوعلىبن سينا مع شرح نصيرالدين طوسى، الاشارات، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دارالمعارف بمصر .

١٧ـ ابوعثمانعمروبنبحرالجاحظ، البيانوالتبيين، تحقيقعبدالسلام محمدهارون، الطبعةالثالثة، مصر ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

١٨ـ ابوعثمانعمروبنبحربن بحرالجاحظ، الحيوان، مطبعةالحميدية مصر، ١٣٢٣ هـ .

١٩ـ ابومحمد عبداللهبن مسلمبن قتيبه (٢٧٤ـ٢١٣)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيداحمد صقر، داراحياءالكتبالعربية .

٢٠ـ ابومنصورعبدالملكبن محمدالثعالبى (٤٣٠)، الكنايةوالتعريض، طبع مصر .

٢١ـ ابونواس، الديوان، بيروت، ١٣٨٢ـ١٩٦٢ .

٢٢ـ ابوهلالالحسنبن عبداللهبن سهلالعسكرى، الصناعتين، تحقيق علىمحمدالبجاوى ومحمدابراهيم ابوالفضل، الطبعةالاولى، داراحياء الكتبالعربيه ١٣٧١ـ١٩٥٢ .

٢٣ـ ابويعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي السكاكـي (٦٢٦ هـ) ، مفتاح العلوم ، الطبعة الاولى ، مطبعة مصفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٥٦ـ١٩٣٧ .

٢٤ـ ابن ابي الاصبع المصري (٥٥٦ـ٥٨٥) ، بديع القرآن ، تحقيـق حضني محمد شرف ، الطبعة الاولى ، مصر ١٣٧٧ـ١٩٥٧ .

٢٥ـ ابن السبكي ، جمع الجوامع ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٨ هـ .

٢٦ـ ابن حجة الحمري ، ابوبكر محمد بن علي (٧٦٧) ، خـزانة الأدب ، مطبعة بولاق ، مصر ١٢٧٣ هـ .

٢٧ـ ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، تحقيق عبدالرّحمن بدوي ، مكتبـه النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

٢٨ـ ابن سينا ، الشفاء ، نشر وزارة المعارف العمومية ، المطبعة الاميريه ١٣٧١ .

٢٩ـ احمد الشائب ، الاسلوب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ م .

٣٠ـ احمد حسن الزيات ، دفاع عن البلاغة ، الطبعة الثانية ، قاهرة .

٣١ـ ارسطو ، فن الشعر ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ، مصـر ١٩٥٣ .

٣٢ـ أرنولد بينت ، الذوق الأدبي كيف فيكون ، ترجمة الدكتور علـى محمد الجندي ، مصر .

٣٣ـ اسل آبر كرمي ، قواعد النقد الأدبي ، ترجمة الدكتور محمد عوض مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

٣٤ـ الامام ابوعبدالله محمد بن ادريس الشافعي ، (١٥٠ـ٢٤٠) ، الأم تصحيح محمد زهري النجار ، مكتبة كليات الأزهرية .

٣٥ـ الامام جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، طبع الشيخ عثمان عبدالرزاق ، مصر ١٣٠٦ .

٣٦ـ الامام عبدالقاهر الجرجاني ، اسرار البلاغة ، تحقيق احمد مصطفى

المراغى بك مطبعةالاستقامة، القاهره، ١٣٦٧-١٩٤٨ .

٣٧- الامام عبدالقاهرالجرجانى، دلائل‌الاعجاز، تصحيح السيدمحمد رشيد رضا، مطبعةالمنار،الطبعةالثالثة ١٣٦٦ .

٣٨- الامام فخرالدين محمدبن عمرالرازى (٦٠٦)، نهايةالايجاز فى درايةالإعجاز، مطبعةالآداب، قاهره ١٣١٧ هـ .

٣٩- الامام محمودبن عمرالزمخشرى (٥٢٨ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض‌التنزيل وعيون‌الأقاويل فى وجوه‌التأويل، الطبعةالاولى، مطبعة مصطفى محمد، مصر ١٣٥٤ هـ .

٤٠- الامير ابومحمد عبدالله بن‌محمدبن‌سعيدبن سنان‌الخفاجى‌الحلبى (٤٦٦ هـ) سرالفصاحة، تصحيح عبدالمتعال‌الصعيدى، طبع مصر .

٤١- امين‌الخولى، مجلة كليّةالآداب بالجامعةالمصرية المجلدالرابع، الجزءالثانى، ديسمبر ١٩٣٦، مقالة «البلاغة وعلم‌النفس» .

٤٢- تشارلتن، فنون‌الأدب، تقريب وشرح الدكتور نجيب محمود، الطبعةالثانية .

٤٣- التفتازانى (مختصرالمطول) ، بهاءالدين‌السبكى (عروس‌الأفراح ابن يعقوب‌المغربى (مواهب‌الفتاح) به‌نام شروح‌التلخيص، افست ايران .

٤٤- جورج ديهاحيل، دفاع عن‌الأدب، ترجمه الدكتور محمدمندور، الدارالقومية للطباعة والنشر، مصر .

٤٥- الحاج‌الملاهادى‌السبزوارى، شرح‌المنظومة، مكتبةبوذرجمهرى

٤٦- حسن كامل‌الصيرفى، ديوان‌البحترى،دارالمعارف‌مصر، ١٩٦٤.

٤٧- خالدبن عبدالله‌الازهرى، شرح‌التصريح على‌التوضيح، دارالفكر.

٤٨- الخطيب‌التبريزى، شرح ديوان ابى‌تمام، تحقيق محمدعبده عزام . طبع دارالمعارف، مصر ١٩٧٠ .

٤٩- الخطيب‌التبريزى، شرح ديوان‌الحماسه، ابوزكريا يحيى‌بن‌على، مطبعة بولاق، ١٢٩٦ هـ .

٥٠- الخطيب‌القزوينى، الإيضاح، المطبوع بهامش شروح‌التلخيص .

٥١ـ خلف الله محمد، نظرية عبدالقاهر فى اسرار البلاغة، مجلة كلية الآداب بجامعة الفاروق الاول، ١٩٤٤ .

٥٢ـ الدكتور ابراهيم سلامة، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٧١ـ١٩٥٢ .

٥٣ـ الدكتور احمد احمد بدوى، اسس النقد الادبى عند العرب، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٤ .

٥٤ـ الدكتور احمد مطلوب، مصطلحات بلاغية، الطبعة الاولى (١٣٩٢ هـ) .

٥٥ـ الدكتور بدوى طبّانه، البيان الغربى، مصر .

٥٦ـ الدكتور حفنى محمد شرف، الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، الطبعة الاولى، دار نهضة مصر، ١٩٦٥ـ١٣٨٥ .

٥٧ـ الدكتور درويش الجندى، الرمزية فى الادب العربى، دار نهضة مصر، للنشر والطباعة، القاهره .

٥٨ـ الدكتور شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر، الطبعة الثالثة، مكتبة الاندلس، بيروت، لبنان .

٥٩ـ الدكتور شيخ امين، البلاغة فى ثوبها الجديد (علم المعانى) دار العلم للملايين، بيروت .

٦٠ـ الدكتور عبدالعزيز عتيق، علم البيان، طبع دار النهضة، بيروت ١٣٦٠ـ١٩٧٤ .

٦١ـ الدكتور محمد غنيمى هلال، النقد الادبى الحديث، الطبعة الخامسة مكتبة الاغبوا المصرية، ١٩٧١ .

٦٢ـ الرّمانى والخطابى وعبدالقاهر الجرجانى، ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله، دار المعارف، مصر .

٦٣ـ اسامة بن منقذ، البديع فى نقد الشعر، مطبعة مصطفى البابى ـ الحلبى، القاهره، ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

٦٤ـ السيد احمد الهاشمى، جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع،

الطبعةالثالثة عشر، مصر، ١٣٨٣ هـ.

٦٥- السيدالشريفالجرجانى، شرح مفتاحالعلوم، مخطوط، مكتبة آستان قدس.

٦٦- السيوطى، الفيةابنمالك مع شرحه، طبع آقا، ايران ١٣١١.

٦٧- الشريفالرّضى، تلخيصالبيان فى مجازاتالقرآن، مطبعة المعارف بغداد، ١٣٧٥-١٩٥٥.

٦٨- الشريفالرضى، الديوان، بيروت، ١٣٨٠ هـ.

٦٩- شهابالدين احمدبن عبدالوهابالنويرى (٦٧٧-٧٣٣) نهاية الأرب فى فنونالأدب، مصر.

٧٠- الشيخ احمدالاسكندرى والشيخ مصطفى عنانى، الوسيط فى الادبالعربى وتاريخه، الطبعةالسادسة عشرة، دارالمعارف، بمصر.

٧١- الشيخالرئيس الحسينبن علىبن سينا، النجاة، الطبعةالثانية، مطبعةالسعادة، مصر، ١٣٥٧- ١٩٣٨.

٧٢- ضياءالدينبنالاثيرالجزارى، الجامعالكبير فى صناعةالمنظوم منالكلام والمنثور، بتحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعد، مطبعةالمجمعالعلمىالعراقى، ١٣٧٥-١٩٥٦.

٧٣- عباس حسن، النحوالوافى، الطبعةالثالثة، دارالمعارف، مصر ١٩٦٦.

٧٤- عباسمحمودالعقاد، اللغةالشاعره، مكتبةالانجلوالمصرية.

٧٥- عبداللهبنالمعتز (٢٩٦ هـ)، البديع، تحقيق محمد عبدالمنعم الخفاجى، مصر ١٣٦٤-١٩٤٥.

٧٦- عبدالحكيم، حاشيةالسيالكوتى، الشركةالصحافيةالعثمانية، استانبول، (١٣١١ هـ).

٧٧- عبدالحميد حسن، الاصولالغنية للأدب، مكتبةالأنجلوالمصرية، الطبعةالاولى.

٧٨- عبدالرحمنالبرقوقى، شرح ديوانالمتنبى، مطبعةالسعادة،

مصر .

٧٩ـ عبدالعلى السيد فوده، اساليب الاستفهام فى القرآن، نشر الرسائل الجامعية، مصر .

٨٠ـ عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية فى النقد العربى، دار الفكر العربى، ١٣٧٥ـ١٩٥٥ .

٨١ـ عصام الدين، الرسالة المخطوطة فى الإستعارة المعروف بعصام الدين الاستعارة .

٨٢ـ العلامة المحقق جمال الدين بن هشام الأنصارى، مغنى اللبيب، مطبعة حجازى، مصر ١٣٧٢ هـ .

٨٣ـ العلامة جلال الدين السيوطي، المزهر فى علوم اللغة وانواعها، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥ هـ .

٨٤ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، المطول وعليه حاشية الحلبى، طبع محمد كاظم، ايران، ١٣١٠ هـ .

٨٥ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، المطول وعليه حاشية السيد الشريف الجرجانى، مطبعة احمد كامل، ١٣٣٠ .

٨٦ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، شرح مفتاح العلوم، مخطوط، مكتبة آستان قدس .

٨٧ـ العلامة سعدالدين التفتازاني، مختصر المطول مع شروح التلخيص

٨٨ـ على الجارم ومصطفى امين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، الطبعة الحادية والعشرون، ١٣٨٩ـ١٩٦٩ .

٨٩ـ على الجندى، فن التشبيه، مكتبة نهضة، مصر، الطبعة الاولى ١٩٥٢ .

٩٠ـ على بوملجم، فى الأسلوب الأدبى، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت .

٩١ـ عنترة، الديوان عنترة، بيروت .

٩٢ـ عيسى سابا، ديوان الحطيئة، مكتبة صادر، بيروت .

٩٣ـ فدوى طوقان، وحدى مع الايام، دار العودة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٧٤ .

٩٤ـ الفرّاء ابوزكريا يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ)، معانى القرآن تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، قاهره ١٣٧٤ـ١٩٥٥ .

٩٥ـ الفرزدق، الديوان، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

٩٦ـ القاضى ابوالعباس احمد بن محمد الجرجانى الثقفى (٤٨٢ هـ)، كنايات الأدباء واشارات البلغاء، مطبعة السعادة، مصر .

٩٧ـ القاضى ابوبكر الباقلانى، اعجاز القرآن، محمد بن الطيب، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر .

٩٨ـ القاضى عضد الملة والدين، شرح مختصر المنتهى، طبع حسن حلمى، ١٣٠٧ .

٩٩ـ القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى (٣٦٦هـ) الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح محمد ابوالفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

١٠٠ـ مجنون ليلى، الديوان، مطبعة سپهر، بمبئ .

١٠١ـ محمد بن احمد بن طباطبا العلوى، عيار الشعر، تحقيق الدكتور طه الحاجرى والدكتور محمد زغلول سلام، قاهرة ١٩٥٦ .

١٠٢ـ محمد خلف الله، دراسات فى الادب الاسلامى، قاهره ١٣٦٣ـ ١٩٧٧ .

١٠٣ـ المهدى الآشتيانى، تعليقة على المنظومة .

١٠٤ـ هارون هاشم رشيد، الشعر المقاتل فى الارض المحتلة، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت .

١٠٥ـ يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مصر، ١٣٣٣ـ١٩١٤ .

اسف وشكر

مما يؤسفني انني كنت على جناح السفر ولم يتيسر القيام بتنظيم الفهارس، فتحمّل أعباء هذا العمل عدد من الطلاب المجدّين الوفيين ؛ فشكرا على جهودهم .